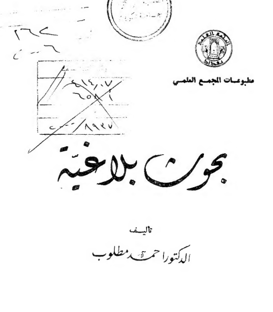


مطبوعات المجمع العلمي

بحوث بلاغية

تأليف

الدكتور احمد مطلوب

بغداد

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــــة

ماكنت أعرف أن البلاغة علم ذو أصول حتى دخل علينا صباح يوم استاذ تسمو به الهيبة ويعلوه الوقار ، وأخذ يطوف بنا في مسالك لم نألفها ، فاذا نحن أمام اتجاهات البلاغة نتلمس المؤثرات ونقف على اللغويين والنحاة والمفسرين والأدباء والفلاسفة وأصحاب الكلام ، واذا نحن نردد الشعر الرقيق وقد اختاره الاستاذ أمثلة للكلمة العذبة ، ونحفظ قواعد التشبيه والاستعارة والكناية ونلم بأصول الخبر والانشاء ، والتقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ، ونتطلع الى ألوان البديع نافرين منها حينا ومستأنسين بها حينا آخر . وكان ذلك أول تجربة أمر بها ، وقد حبب الي الاستاذ هذا العلم أو هذا الفن ، وجعلني أقدم رسالة التخرج في « ضياء الدين بن الأثير » الناقد البلاغي الكبير ، وأحصل على مرتبة الامتياز الخاصة . وكنت في الوقت نفسه أطلع على خطوات الاستاذ وهو يحقق مع الاستاذ الدكتور مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ كتاب « الجامع الكبير » لابن الأثير .

كان ذلك عام ١٩٥٣، وكان ذلك الاستاذ الدكتور جميل سعيد ـ رحمه الله ـ الذي وجدت فيه حبا لطلابه وحرصا على مستقبلهم ، وكان لتشجيعه أثر كبير في توجيهي نحو البلاغة والنقد ، وشاء الله أن أجد استاذة جليلة تأخذ بيدي وهي الدكتورة سهير القلماوي ـ حفظها الله ـ التي كانت أما رؤوما واذا أكمل بتوجيهها دراستي العليا في القاهرة برسالتين : الأولى « البلاغة عند السكاكي » والثانية « القزويني وشروح التلخيص » . وكان هذان الكتابان منطلقي في البحث والتأليف . فسرت في الطريق لا ألوي على شيء ، وكان زادي الارادة القوية وثقتي بالله . وكان علي أن أغذ السير أن أظل حريصا على الطريف والتليد ، وأن

أجمع ألوان الأدب لا كتسب ذوقاً لا تنفع في تكوينه قواعد البلاغة والنقد وحدها، وأخرجت أكثر من خمسين كتاباً – تأليفاً وتحقيقاً – ونشرت أكثر من مائة بحث علمي فيها من الاصالة وروح الأمة ورسالتها الخالدة ما جعل الناس بها يتشغفون . وسارت فإذا بها صفحات تنوّر الكتب وآراء تتردد في الندوات . وقد نادى خلق قبلي فما استجاب لهم مستجيب لأنهم لم يكونوا مخلصين للكلمة ولم يتواضعوا أمام العلم وكانوا فيما كتبوا أو ألّفوا من المدّعين .

لقد سرى البحث في دمي وكان نسغاً ينبض لا شجرة ميتة تعثو في جنباتها الرياح ، وكانت البلاغة والنقد مما أحببت ولو انصرفت اليهما كل الانصراف لكان النتاج أغزر ، ولكن صوت الأمة ونداء الوطن حينما يرتفعان يندفع اليهما من آمن بربه وأمته وأرضه . وكان ما كان ، ومن يقدر على أن يطفىء لهب الثورة في قلبه اذا تأجج ؟ لقد اندفعت في الطريق القويم فاذا أنا في خضم الحياة أعمل من أجل أمتي ووطني وأذود عنهما وأنثر القصائد والمقالات وأضع الكتب في غير البلاغة والنقد ، وألاقي النصب من أجل أن تقر عيون الآباء ويسعد الأبناء . ولكنني – على الرغم من ذلك – لم أنس ما بدأته قبل ثلث قرن ، وأصدرت كتباً في البلاغة والنقد ، وها أنا اليوم أصدر هذا الكتاب الذي سميته « بحوث بلاغية » واضعاً فيه بعض ما كتبت في السنوات الأخيرة عن مصادر البحث البلاغي ، والفصاحة عند الجاحظ ، والأساليب البلاغية ، والفنون البلاغية ، والبلاغة بين المنطق والتذوق ، وأثر القرآن في البلاغة ، وبديع القرآن الكريم ، وأثر الحديث في البلاغة ، وأثر المدائح النبوية في البلاغة ، وأثر البلاغة العربية في البلاغة الفارسية .

لقد أريد بهذه البحوث أن تظهر بعض جوانب البلاغة العربية التي أصابها الحيف ممن تنكروا لأصالة أمتهم وظنوا بها ظنّ السّوء وأنكروا أهميتها في التعبير والتصوير ، واندفعوا وراء بعض الاتجاهات التي لا تخدم اللغة ولا تقوّم الأساليب . ونسي هؤلاء أن البلاغة روح اللغة وأنها السبيل

المفضي الى الأدب الرائع والنقد القويم ، وأن كبار النقاد في الغرب قد عادوا اليها وأقروا بمالها من أثر في نقد الأدب وتحليله ، وما الدعوة الى « علم الاسلوب » إلا انتصار لها بل هو البلاغة بثوب جديد •

إن البحث في البلاغة العربية معين لا ينضب ، وان دارس القرآن الكريم والأدب العربي ومصنف المختارات والناقد الأدبي لن يستغنوا عنها ، لان أهدافها واسعة ، ومداها بعيد ، بخلاف بلاغة الأقوام الأخرى • وقد أدرك القدماء هذه الحقيقة وهم يبحثون في إعجاز القرآن الكريم ، وينقدون الأدب ، ويقومون الألسنة ، ويضعون المختارات • وأجدر بخلفتهم أن يولوا هذا الفن اهتماما كبيرا ، وأن يجددوا فيه وهم يستشرفون القرن الحادي والعشرين ، وأن تكون لهم أصول عربية في النقد والبيان • وآخر ما أختم به هذه المقدمة قوله تعالى :

« رَبَّنَا لا تُزِغْ قلوبَنا بعدَ إذ هَدَيْتَنا ، وَهَبْ لنا مِن لَدُنْكَ رحمةً إنكَ أنتَ الوهابُ • ربَّنا إنَّكَ جامعُ النَّاسِ ليومٍ لا رَيْبَ فيه إنَّ اللهَ لايُخْلِفُ الميعادَ • إنَّ الذين كفروا لن تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِن اللهِ شيئاً وأولئكَ هُمْ وَقُودُ النارِ • كَدَأْبِ آلِ فِرعَونَ والذين من قَبْلِهِم كَذَّبوا بآياتنا فأخذهم اللهُ بذنوبهم ، واللهُ شديدُ العقابِ • قُلْ للذين كفروا سَتُغْلَبون وتُحْشَرونَ الى جهنَّمَ وبِئْسَ المِهادُ » •

وما التوفيق الا من عند الله

الدكتور احمد مطلوب
عضو المجمع العلمي ـ بغداد

غرة رمضان ١٤١٦هـ
٢١ كانون الثاني ١٩٩٦م

* * *

(١)

مصادر البحث البلاغي

الأهداف :

نشأ البحث البلاغي عند العرب بعد أن نزل القرآن الكريم وامتدت دعوة الاسلام الى بقاع العالم ، وكانت نشأته تسير الى جانب نشأة علوم اللغة العربية ويتطور بتطورها عبر القرون • ومن أهم الأسباب التي دفعت الى هذا البحث اهتمام المسلمين بكتابهم العظيم ، فقد وجدوا فيه غير ما ألفوه في كلام العرب ووجدوه معجزة كبرى تحدى الله به الانس والجن على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • ولكي يبرهنوا على اعجازه ويتفهموا آياته واساليبه ويستنبطوا الأحكام منه اتجهوا الى البلاغة باحثين فنونها وموضحين أقسامها • وكان هذا الغرض من أهم الأهداف التي دفعتهم الى البحث والتأليف فيها ، لان « الانسان إذا أغفل علم العربية وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه من الايجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها ، الى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها »[١] •

ويقف الى جانب الغرض الديني دافعان آخران هما : الغرض التعليمي أي تعليم الناشئة لغة القرآن الكريم ومعرفة أساليبها بعد أن اتصل العرب

---

* نشر في مجلة « الجامعة » التي تصدرها جامعة الموصل في العراق العدد (٨) أيار ١٩٨١ •

(١) كتاب الصناعتين ص١ •

بأمم شتى وأدّى ذلك الاتصال الى فساد اللغة ودخول اللحن فيها . والغرض النقدي أي تمييز الكلام الحسن من الرديء والموازنة بين القصائد والخطب والرسائل ، ويتصل بهذا الغرض رواية الأدب ومعرفة الجيد الذي يروى والرديء الذي ينبغي أن يطرح . وقد أشار أبو هلال العسكري الى الهدفين التعليمي والنقدي بقوله : « ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة ، منها أن صاحب العربية إذا أخلّ بطلبه وفرط في التماسه ففاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته عَفّى على جميع محاسنه وعمّى سائر فضائله ؛ لأنه إذا لم يفرّق بين كلام جيد وآخر رديء ولفظ حسن وآخر قبيح وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله وظهر نقصه . وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشيء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الغرّ بالعرّ واستعمل الوحشي العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل ... وإذا أراد أيضا تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذا العلم ساء اختياره له وقبحت آثاره فيه فأخذ الرديء المرذول وترك الجيد المقبول فدلّ على قصور فهمه وتأخر معرفته وعلمه »[2].

كانت هذه الأهداف : خدمة القرآن الكريم وتفسير إعجازه ، وتعليم اللغة العربية واتقانها ، وانشاء الأدب ونقده — دافعا قويا حثّ العرب للخوض في دراسة البلاغة والتأليف فيها ، وكانت هذه الأهداف غرض المؤلفين جميعا ولا يخلو كتاب من كتب البلاغة والاعجاز من الاشارة اليها . وقد تظافرت جهود كثيرة على وضع أسس البلاغة وأصولها ، ولذلك تعددت مصادر بحثها وتنوعت مناهج درسها ، ومن أشهر الذين بحثوا فيها : علماء إعجاز القرآن الكريم ، والمفسرون والاصوليون ، واللغويون والنحاة ، والشعراء والكتاب ، والفلاسفة والمتكلمون ، والملخصون والشرّاح ، وأصحاب البديعيات . وكانت كل طبقة من هؤلاء تتفق في كثير من الأسس وتلتقي في أهداف واضحة المعالم ، وإن كان رجالها يختلفون في تصوّرهم للبحث البلاغي أحيانا .

---

(2) كتاب الصناعتين ص ٢ — ٣ .

اعجاز القرآن :

كان تأثير كتاب الله واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية ، وكانت آياته البينات الشاهد البلاغي الرفيع ، ولذلك انتهى كثير من الباحثين القدماء الى أن ثمرة علم البلاغة « هي في فهم الاعجاز من القرآن ؛ لان اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالالفاظ في انتقائها وجودة رصفها ، وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن ادراكه »(٣) .

وكان المتكلمون أول من بحث في اعجاز القرآن وبلاغته ، وقالت المعتزلة ــ إلاّ النظّام وهشاماً الفوطي وعباد بن سليمان ــ : « تأليف القرآن ونظمه معجز محال وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم ، وانه علم لرسول الله . وقال النظام : الآية والاعجوبة في القرآن ما فيه من الاخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم . وقال هشام وعباد : لانقول إن شيئا من الأعراض يدلّ على الله سبحانه وتعالى ــ ولا نقول أيضا إن عرضا يدل على نبوة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم يجعلا القرآن علما للنبي ، وزعما انّ القرآن أعراض »(٤) .

واختلفت وجهات النظر في الاعجاز وتشعّبت سبل القول ؛ لان الوصول الى ذلك صعب ، وتحديد البلاغة في القرآن أصعب ، ولكن الباحثين لم يقفوا ومضوا يتلمسون بلاغة الكتاب العزيز ويبينون اعجازه ، فكانت دراساتهم أحسن مصدر للبلاغة وأجلّ مورد لمن أراد أن يتذوق القرآن ويفهم البيان .

ومن اهم كتب الاعجاز « اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه » لابي عبدالله محمد بن يزيد الواسطي (ــ ٣٠٦هـ) ولم يصل هذا الكتاب ولا شرحا عبد القاهر الجرجاني له .

---

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٥٥٢ .
(٤) مقالات الاسلاميين ج١ ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

ورسالة « النكت في اعجاز القرآن » لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ــ ٣٨٦هـ) وقد تقسم البلاغة على عشرة أقسام : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان . وهذه الرسالة من أقدم كتب الاعجاز التي تحدثت عن فنون البلاغة وحددت معانيها ، وقد اعتمد المتأخرون عليها في كثير من مسائلهم البلاغية .

ورسالة « بيان اعجاز القرآن » لأبي سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (ــ ٣٨٨هـ) وقد جاءت فنون البلاغة فيها عند كلام المؤلف على ما في الآيات القرآنية من بلاغة أعجزت العالمين .

وكتاب « إعجاز القرآن » لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ــ ٤٠٣هـ) وهذا الكتاب من أهم كتب الاعجاز التي تحدثت عن النقد والبلاغة . وقد اهتم المؤلف بفنون البديع وذكر كثيراً منها كالتشبيه والتمثيل والاستعارة والغلو والمطابقة والتجنيس والمقابلة وصحة التقسيم والالتفات والاستطراد والتكرار والمبالغة . والباقلاني لا يرى أن القرآن معجز لان فيه هذه الفنون ، وانما هو معجز بأسلوبه ونظمه البديع وألفاظه ، وبأثره في النفوس . قال : « لا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه ، وذلك ان هذا الفن ليس فيه مايخرق العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب والتصنع له كقول الشعر ووصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة ، وله طريق يسلك ووجه يقصد وسلم يرتقى فيه اليه ، ومثال قد يقع طالبه عليه »[٥] . ولكن لماذا ذكر فنون البديع ؟ علل ذلك بأنه « باب من أبواب البراعة وجنس من أجناس البلاغة وانه لاينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم ولا وجه من وجوه فصاحتهم . واذا اورد هذا المورد ووضع هذا الموضع كان جديراً ، وانما لم نطلق القول اطلاقا

(٥) اعجاز القرآن ص١٦٨ .

لانّا لانجعل الاعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة موقوفا عليها ومضافا اليها وإن صحّ أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة آخذه بحظها من الحسن والبهجة متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع ».(٦)

وكتاب « المغني في أبواب التوحيد والعدل » ـ الجزء السادس عشر ـ للقاضي أبي الحسن عبد الجبار الأسد آبادي (ـ ٤١٥هـ)، وقد أظهر المؤلف فيه أنّ اعجاز القرآن بالنظم، وكان ذلك دافعا كبيراً الى القول بنظرية النظم التي شرحها عبد القاهر الجرجاني (ـ ٤٧١ أو ٤٧٤هـ) في كتابه « دلائل الاعجاز » الذي يعدّ من أهم كتب البلاغة العربية التي وضعت أسس البحث البلاغي وأوضحت مباحثه وأساليبه، وكان لهذا الكتاب وكتاب « أسرار البلاغة » أثر عظيم في البلاغيين الذين فسروا القرآن أو الذين تحدثوا عن الشعر وفنون الكلام.

ومن كتب الاعجاز الأخرى كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » لفخر الدين الرازي (ـ ٦٠٦هـ) وهو دعوة الى ترتيب أصول البلاغة ووضع قواعدها الراسخة، لان مؤلفه رأى عبد القاهر قد « أهمل رعاية ترتيب الأصول والابواب، وأطنب في الكلام كلّ الاطناب ».(٧) وقد عالج فيه موضوعات البلاغة ليصل الى رأيه في الاعجاز، ومعنى ذلك ان الفنون البديعية وسيلة لتربية الذوق الأدبي وادراك أسرار فن القول.

وكتاب « معترك الأقران في اعجاز القرآن » لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ـ ٩١١هـ)، وهو من أوسع الكتب التي بحثت في اعجاز القرآن ودرست فنون البلاغة التي كانت من وجوه ذلك الاعجاز.

ويتصل بهذه المسألة كتب علوم القرآن، ومن أشهرها « البرهان في علوم القرآن » لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ـ ٧٩٤هـ) و « الاتقان في

---

(٦) اعجاز القرآن ص١٧٠.
(٧) نهاية الايجاز ص٤.

علوم القرآن » السيوطي . وقد ذكر المؤلفان في كتابيهما معظم فنون البلاغة ، وفي ذلك إقرار بان دارس القرآن ينبغي أن يعرف وجوه بيانه ليرقى الى مراتب العلي ويدرك مافي كتاب الله من علم وأسرار وفن وجمال .

المفسرون والاصوليون :

المفسرون هم الذين ينظرون في كتاب الله ــ تعالى ــ فيفسرون ألفاظه ويوضحون معانيه ويبينون مقاصده وأهدافه ويشرحون مافيه من قيم رفيعة ونظرات صبية ويظهرون فنون القول فيه وروعة البيان . ولكي يستطيع المفسر أن ينهض بذلك كله لابد له من أن يطلع على علوم اللغة العربية لينفذ الى أسرار القرآن . ويغوص على معانيه . والبلاغة احدى تلك الوسائل المهمة التي تكشف أسرار الاعجاز وتوجيه معاني الآيات . وقد شعر المفسرون بذلك فأخذوا يضعون لدراساتهم القرآنية مقدمات بلاغية أو يخوضون في مباحثها ، وصاروا ينبهون الى أهمية ذلك .[8] وشاركهم البلاغيون في ذلك فقال عبدالقاهر : « ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن يتوهموا أبداً في الالفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل انها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بمواضع البلاغة وبمكان الشرف . وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل ، هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه وزند ضلالة قد قدحوا به » .[9] وقال السكاكي : « الواقف على تمام مراد الحكيم ــ تعالى وتقدس ــ من كلامه ، مفتقر الى هذين العلمين ــ المعاني والبيان ــ كل الافتقار . فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل » .[10]

(٨) ينظر جامع البيان ج١ ص٦ ، الكشاف ج١ ص(ك) .
(٩) دلائل الاعجاز ص٢٣٦ .
(١٠) مفتاح العلوم ص٧٧ .

وكتب التفسير كلها مصدر من مصادر البحث البلاغي المهمة ، ولعل أقدمها كتاب « معاني القرآن » لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ـ ٢٠٧هـ) وكتاب « مجاز القرآن » لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ـ ٢٠٨هـ) • وتتضح في هذين الكتابين أولى بذور البلاغة ، وهذا ما يدفع الى القول : إن نشأة البلاغة كانت عربية تتصل بكتاب الله قبل أن تتصل بالأدب وفنونه وبما عرف من بلاغة اليونان •

ومن الكتب المتصلة بالفاظ القرآن وتأويل معانيه كتاب « تأويل مشكل القرآن » لابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ـ ٢٧٦هـ) وقد تعرض المؤلف فيه لكثير من مسائل البلاغة ، ويكاد هذا الكتاب يكون أول دراسة تقوم على تصنيف المباحث ووضع الأبواب • ولعل أهم تفسير يرتبط بالبلاغة ارتباطاً وثيقاً « الكشاف » لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ـ ٥٢٨هـ) • وتتضح في هذا التفسير نزعة الزمخشري نحو تطبيق قواعد البلاغة على كلام الله والتنبيه الى ما فيه من أسرار البيان ، قال ابن خلدون : « وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله » [11] وعرف القدماء ذلك فكانوا إذا ما أقدموا على دراسته تزودوا بثقافة بلاغية ووضعوا الكتب لتعلمها كما فعل يحيى بن حمزة العلوي (ـ ٧٤٩هـ) حينما شرع بعض طلابه يقرأون عليه الكشاف فألف كتابه « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » وقال في مقدمته : « إن الباعث على تأليف هذا الكتاب هو أن جماعة من الأخوان شرعوا عليّ في قراءة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق استاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري فانه أسسه على قواعد هذا العلم فاتضح عند ذلك وجه الاعجاز من التنزيل وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل وتحققوا أنه لا سبيل الى الاطلاع على حقائق اعجاز القرآن إلاّ بادراكه والوقوف على أسراره وأغواره • ومن أجل هذا الوجه كان

---

(11) مقدمة ابن خلدون ص٥٥٢ .

متميزاً عن سائر التفاسير لأني لم أعلم تفسيراً مؤسساً على علمي المعاني والبيان سواه ، فسألني بعضهم أن أملي فيه كتاباً يشتمل على التهذيب والتحقيق»[١٢].

وكان للاصوليين والفقهاء أثر في البلاغة وفي كتب أصول الفقه بحوث مستفيضة عن الخبر والانشاء ، والحقيقة والمجاز ، وهي بحوث تدل على استثمار علم أصول الفقه بها ، قال السكاكي : « بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي ؟ ومن يتولاها »[١٣]. وقال السبكي : « واعلم أن علمي أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل ، فان الخبر والانشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هو موضوع غالب الأصول ، وان كل ما يتكلم عليه الأصولي من كون الأمر للوجوب والنهي للتحريم ومسألة الاخبار والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد والاجمال والتفصيل والتراجيح، كلها ترجع الى موضوع علم المعاني. وليس في أصول الفقه ما ينفرد به كلام الشارع عن غيره إلا الحكم الشرعي والقياس وأشياء يسيرة»[١٤] ، ولذلك كانت معرفة أركان علوم اللسان وهي : اللغة والنحو والبيان والأدب « ضرورية على أهل الشريعة ، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهي لغة العرب ، ونقلتها من الصحابة : التابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغتهم ، فلابدّ من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة »[١٥] .

ومن أقدم كتب الاصول التي تعرضت لبعض مسائل البلاغة كتاب « الرسالة » للامام محمد بن أدريس الشافعي (ـ ٢٠٤هـ) ، وقد تحدث الامام فيه عن البيان وأشار الى ما في القرآن الكريم من أساليب العرب ؛ لان الله ـ سبحانه وتعالى ـ خاطبهم بلسانهم على ما يعرفون من المعاني[١٦] ، وتكلم

---

(١٢) الطراز ج١ ص٥ .

(١٣) مفتاح العلوم ص١٩٩ .

(١٤) عروس الافراح ج١ ص٥٣ .

(١٥) مقدمة ابن خلدون ص٥٤٥ .

(١٦) تنظر الرسالة ص٢١ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ وغيرها .

الامام على تلك الأساليب التي اتخذها مدخلا لدراسة أصول الفقه • ومن كتب الاصول التي اهتمت بالبحث البلاغي كتاب « المعتمد في أصول الفقه » لأبي الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي (ــ ٤٣٦هـ) وكتاب « المستصفى من علم الأصول » للامام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ــ ٥٠٥هـ) وكتاب « الإحكام في اصول الأحكام » لأبي الحسن علي بن أبي علي سيف الدين الآمدي (ــ ٦٣١هـ) وكتاب « منتهى السول في علم الأصول » للآمدي نفسه •

وتعد هذه الكتب الاصولية من أهم مصادر البلاغة ولا سيما موضوعات الخبر والانشاء ، والحقيقة والمجاز •

ومن الفقهاء الذين أسهموا في حركة التأليف الامام عز الدين عبدالعزيز ابن عبدالسلام (ــ ٦٦٠هـ) صاحب كتاب « الاشارة الى الايجاز في بعض أنواع المجاز » ، والامام شمس الدين أبو عبدالله محمد المعروف بابن قيم الجوزية (ــ ٧٥١هـ) مؤلف كتاب « الفوائد ــ المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان » • وهذان الكتابان ليسا في الفقه وأصوله وانما هما مقدمات بلاغية ذات قيمة كبيرة لمن يريد الخوض في أحكام الشريعة والاصول ولا سيما كتاب ابن قيم الجوزية الذي نظم مباحث البلاغة تنظيما دقيقا •

اللغويون والنحاة :

للغويين يد طولى في نشأة البلاغة وتطورها ، وقد ظل دورهم مشهوداً منذ عهد التدوين واستطاعوا أن يسيطروا على مناهج الدرس ويرفعوا لواء المحافظة على اللغة • وكان أبو عبيدة من أقدم اللغويين الذين تعرضوا للدرس البلاغي في كتابه « مجاز القرآن » وكتابه « النقائض » الذين ذكر فيه بعض المصطلحات البلاغية كالاستعارة والتشبيه • ومن الرواة واللغويين الذين أثروا في نشأة البلاغة والنقد أبو سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي (ــ ٢١٦هـ)

وله كتاب « فحولة الشعراء » وقد تعرض فيه لبعض مسائل البلاغة والنقد •
وله آراء نقلها البلاغيــون عنه كالحاتمـي في كتابـه « حلية المحاضرة » وابن رشيق في « العمدة » وأبي هلال في « كتاب الصناعتين » وقدامة بن جعفر في « نقد الشعر » • ومن اللغويـين والنحاة أبـو العباس محمد بن يزيـد المبرد (ــ ٢٨٥هـ) صاحب رسالة « البلاغة » و « كتاب الكامل » و « المقتضب » •
ومنهم أبو الحسن احمد بـن فارس (ــ ٣٩٥هـ) مؤلف « الصاحبي » الذي يعدّ خطوة متقدمة في تصنيف مباحث علم المعاني إذ قسّم الكـلام على عشرة أقسام : الخبـر والاستخبار ، والأمـر والنهي ، والدعـاء والطلب ، والعرض والتحضيض ، والتمني والتعجب • ولم يقف عند هـذه المباحث وانما تعرض لموضوعات البلاغة الأخرى كالتقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والتكرار ، والمجاز والتشبيه ، والايماء والتهكم والكناية •

وكان كتاب أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه (ــ ١٨٠هـ) من أقدم كتب النحو التي حملت في صفحاتها كثيراً من أساليب التعبير وفنون القول • ويعدّ هذا الكتاب مصدراً مهماً في دراسة البلاغة لانه وضع البذور التي أثمرت فيما بعد قواعدَ واصولاً • ويأتي بعده كتـاب « معاني القرآن » للفراء و « قواعـد الشعر » لأبي العباس احمد بـن يحيى المعـروف بثعلب (ــ ٢٩١هـ) الذي كان الخطوة الاولـى لجهد ابن المعتز في البلاغة ، وتأتي أهميته من أن مؤلفه عقد فصولاً خاصة للتشبيه والافراط والغلو ولطافة المعنى والتعريض والاستعارة وحسن الخروج ومجاورة الاضداد ــ وهـو الطباق ــ والمطابق ــ وهو الجناس • ويقف عبدالقاهر الجرجاني على قمة النحاة في القرن الخامس للهجرة ، وهو صاحب « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » اللذين يعدّان من أهم كتب البلاغة ، ولولا جنوح الأدب نحو التقليد لتطورت الحياة الفكرية وتقدمت الدراسات البلاغية ، وقد حاول كمال الديـن عبدالواحد بن عبدالكريم بن خلف الانصاري السماكي المعروف بابن الزملكاني (ــ ٦٥١هـ) أن يُحيي جذوة عبد القاهر في كتابه « التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز

القرآن » و « البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن » ولكن هيهات ، فقد بدأت ريح التقليد تهب من كل مكان وصارت البلاغة متونا تحفظ ، وشروحا تقرأ ، وحواشي تدقق ، وتقريرات تتّبع •

الشعراء والكتاب :

كان الشعراء منذ الجاهلية يعنون بالقول ويجوّدون أشعارهم وينقحونها ، وقد دلت الملاحظات البيانية على أنهم أصحاب ذوق ومعرفة بجيد الشعر ورديئه • ومن الشعراء الذين كان لهم السبق في الدراسات البلاغية الخليفة العباسي عبدالله بن المعتز الذي استفاد من جهود السابقين كالجاحظ وابن قتيبة والمبرد وثعلب ، فألف « كتاب البديع » الذي فتح باب البحث والتأليف في البلاغة • وقد أقامه على قسمين :

الأول : البديع وهو خمسة فنون : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، وردّ اعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي •

الثاني : محاسن الكلام وهو ثلاثة عشر فنا : الالتفات . والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين . والتعريض والكناية ، والافراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، واعنات الشاعر نفسه في القوافي ، وحسن الابتداآت •

ومن الشعراء الذين أغنوا البلاغة الشريف الرضي (ــ ٤٠٦هـ) صاحب « تلخيص البيان في مجازات القرآن » و « المجازات النبوية » • وابن رشيق القيرواني (ــ ٤٦٣هـ) مؤلف « العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده » و « قراضة الذهب » • وابن سنان الخفاجي (ــ ٤٦٦هـ) صاحب « سر الفصاحة » • وأسامة بن منقذ (ــ ٥٨٤هـ) مؤلف « البديع في نقد الشعر » • وابن أبي الأصبع المصري (ــ ٦٥٤هـ) مؤلف « تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن » و « بديع القرآن » •

وكان للكتّاب أثر واضح في البلاغة ، فقد صبغوا كثيراً من بحوثها بصبغة أدبية لما امتازوا به من أدب رفيع وذوق سليم ، وفي كتب الأدب كثير من أقوال الادباء في البلاغة وتحديدها • وممن تركوا آراء أثرت في البحث البلاغي عبدالله بن المقفع (ــ ١٤٣هـ) وعمرو بن عبيد (ــ ١٤٤هـ) وشبيب ابن شيبة (ــ ١٧٠هـ) وسهل بن هارون (ــ ١٧٣هـ) وجعفر بن يحيى (ــ ١٨٧هـ) وكلثوم بن عمرو العتابي (ــ ٢٢٠هـ) • ولكن هؤلاء لم يؤلفوا كتبا في البلاغة والبيان ، وكان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ــ ٢٥٥هـ) من أقدم الكتّاب الذين انصرفوا الى البحث في البيان ، وفي كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وبعض رسائله كثير من الفنون البلاغية التي امتدت جذورها الى القرآن الكريم وكلام العرب القديم •

ومن الكتاب الذين عرفوا في العصر العباسي قدامة بن جعفر (ــ ٣٣٧هـ) صاحب « نقد الشعر » و « جواهر الالفاظ » ، وهو في الكتاب الأول عالم بالبلاغة والنقد وقد أضاف كثيراً من الفنون التي طوّرت البحث البلاغي • ومنهم ابو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب صاحب « البرهان في وجوه البيان » الذي طبع قسم منه باسم « نقد النثر » ونسب الى قدامة • ومنهم ابو هلال العسكري (ــ ٣٩٥هـ) صاحب « كتاب الصناعتين » • وابن ناقيا البغدادي (ــ ٤٨٥هـ) مؤلف « الجمان في تشبيهات القرآن » • وابن شيث القرشي صاحب « معالم الكتابة ومغانم الاصابة » • وضياء الدين بن الاثير (ــ ٦٣٧هـ) مؤلف « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » و « الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور » و « الاستدراك » • وابن أبي الحديد (ــ ٦٥٥هـ) صاحب « شرح نهج البلاغة » و « الفلك الدائر على المثل السائر » • وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ــ ٧٦٥هـ) صاحب « نصرة الثائر على المثل السائر » • وشهاب الدين محمود الحلبي (ــ ٧٢٥هـ) صاحب « حسن التوسل الى صناعة الترسل » • وشهاب الدين

احمد بن عبدالوهاب النويري (ــ ٧٣٣هـ) مؤلف « نهاية الارب فــي فنون الادب » .

وكان للنقاد دور بارز في البلاغة . فقد استعانوا بفنونها فــي دراساتهم ولوّنوا كتبهم ببحوثها ، ومن الذين تعرضوا للبلاغة في كتبهــم النقديــة أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا (ــ ٣٢٢هـ) صاحب « عيار الشعر » . وأبو القاسم الحسن بن بشر بــن يحيى الآمدي (ــ ٣٧١هـ) مؤلف « الموازنــة بين شعر أبي تمام والبحتري » . والقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني (ــ ٣٩٢هـ) مؤلف « الوساطة بين المتنبي وخصومه » .

وتمتاز كتب الشعراء والكتاب والنقاد بذوق رفيع ونظرة أدبية مرهفة ، ومتابعة لفنون البلاغة والوقوف على النصوص الأدبية وقفة المعجب المتأثر اكثر من وقفة المقرر للاصول .

الفلاسفة والمتكلمون :

كان للفلاسفة والمتكلمين أثر في نشأة البلاغة وتطورهــا ، وكان نشاط المتكلمين واسعاً لما لهم من أثر كبــير في الحياة العقلية . وقد قال الجاحظ إن « كبار المتكلمين ورؤســاء النظارين فوق اكثر الخطباء وأبلــغ مــن كثير من البلغاء»[١٧] . ولذلك قيل إن علم البيان نبت في حجور المتكلمين . ولعل صحيفة بشر بن المعتمر (ــ ٢١٠هـ) أصدق دليــل على ذلك ، فقد نثر بشر فيها بعض البذور البلاغيــة ، ولكن الجاحظ ظل أبرز المتكلمين وأظهر من أثّر في نشأة البلاغة وتطورها وأقرب الى النزعــة الأدبية في عرض مسائلها وفنونهــا ، لأن الفلاسفة والمتكلمين الآخرين أخذوا ينزعــون منزعاً عقليــاً في البحث البلاغي ويتضح ذلك عند الذين لخصوا أو شرحوا كتابــي « الشعر » و « الخطابة » لأرسطو مثل أبي نصر الفارابي (ــ ٣٣٩هـ) وابن سينــا (ــ ٤٢٨هـ) وابن

(١٧) البيان والتبيين ج١ ص١٣٩ .

رشد(ـ ٥٩٥هـ)وظهر اتجاه الفلاسفة والمتكلمين في كتب البلاغة المتأخرة مثل « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » للرازي و « مفتاح العلوم » لسراج الدين يوسف بن أبي بكر أبي يعقوب السكاكي (ـ ٦٢٦هـ) و « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » لأبي الحسن حازم القرطاجني (ـ ٦٨٤هـ) و « المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع » لأبي محمد القاسم السجلماسي (من أعيان القرن السابع والثامن) وكتاب « الأقصى القريب في علم البيان » لأبي عبدالله محمد بن عمرو التنوخي (من أعيان المائة السابعة) وكتاب « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » ليحيى بن حمزة العلوي (ـ ٧٤٩هـ) .

وتمتاز هذه الكتب باتجاهها نحو المقاييس العقلية والأخذ من منطق الفلاسفة والمتكلمين ، ولعل كتابي القرطاجني والسجلماسي من اكثر الكتب تأثراً بهذا الاتجاه .

الملخصون والشراح :

لم تكن الحياة الفكرية بعد القرن السادس تبشر بالابداع في التأليف فقد رانت سحابة من الجمود ، ومضى المؤلفون يلخصون ويشرحون الكتب السابقة وقد شهد القرن السابع وما بعده حركة شرح وتلخيص واسعة المدى ، ومن أشهر الذين لخصوا القسم الثالث من « مفتاح العلوم » بدر الدين بن مالك (ـ ٦٨٦هـ) فقد وضع كتاب « المصباح في علم المعاني والبيان والبديع » وكتاب « روض الأذهان في علم البيان » . واختصر جلال الدين محمد بن عبدالرحمن الخطيب القزويني (ـ ٧٣٩هـ) القسم الثالث من المفتاح بكتابه « التلخيص » ثم شرح هذا التلخيص بكتابه « الايضاح » . وتوالت الشروح بعد ذلك فكان « عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح » لبهاء الدين السبكي (ـ ٧٧٣هـ) و « الشرح المختصر » و « الشرح المطول » لسعد الدين مسعود بن عمر المشهور بالتفتازاني (ـ ٧٩٢هـ) و « شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم » و « وحاشية على الشرح المطول على التلخيص » للسيد

الشريف الجرجاني (ــ ٨١٦هـ) و « الشرح الأطول » لابراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الأسفراييني (ــ ٩٥١هـ) و « مواهب الفتاح في شرح المفتاح » لابن يعقوب المغربي (ــ ١١١٠هـ) و «الحاشية على مختصر السعد» لمحمد بن عرفة الدسوقي (ــ ١٢٣٠هـ) .

وتزخر هذه الشروح بقضايا الفلسفة والمنطق والاصول ، ولذلك ابتعدت كثيراً عن النزعة الفنية وتحكيم الذوق في دراسة البلاغة .

اصحاب البديعيات :

انصرف بعض المتأخرين الى نظم البديعيات ، وهي قصائد تتضمن فنونا بلاغية ومعظمها في مدح النبي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن البحر البسيط وعلى روي الميم . والبديعيات كثيرة ولبعضها شروح ومن أهمها : « النتائج الالهية في شرح الكافية »[١٨] لصفي الدين الحلي (ــ ٧٥٠هـ) و « طراز الحلة وشفاء الغلة » لأبي جعفر احمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي (ــ ٧٧٩هـ) و « خزانة الأدب وغاية الارب » لابن حجة الحموي (ــ ٨٣٧هـ) وشرح « نظم البديع في مدح خير شفيع » لجلال الدين السيوطي (ــ ٩١١هـ) وشرح « الفتح المبين في مدح الأمين » لعائشة الباعونية (ــ ٩٢٢هـ) و « أنوار الربيع في أنواع البديع » لصدر الدين بن معصوم الحسيني المدني (ــ ١١١٧هـ) ــ و « نفحات الازهار على نسمات الاسحار في مدح النبي المختار » لعبد الغني النابلسي (ــ ١١٤٣هـ) . وهذه الشروح كتب بلاغية تعرضت لدراسة جميع الفنون ، ولها قيمة كبيرة في البحث البلاغي ولا سيما « خزانة الأدب » للحموي و « أنوار الربيع » للمدني ، وهي بعد ذلك تمثل ذوق ذلك العهد وثقافته وتحمل في صفحاتها كثيراً من النصوص التي ضاعت مصادرها ، أو لاتزال بعيدة عن أيدي الدارسين .

(١٨) طبعهـا مجمع اللغـة العربيـة بدمشـق سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م بتحقيق الدكتور نسيب نشاوي وبعنوان « شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع » .

تلك أهم مصادر البحث البلاغي عند العرب وقد اتضح أن البلاغة لقيت اهتماما كبيراً من بيئات علمية مختلفة ، فعلماء اعجاز القرآن والمفسرون والاصوليون واللغويون والنحاة والشعراء والكتاب والفلاسفة والمتكلمون والملخصون والشراح وأصحاب البديعات ــ شاركوا في ارساء قواعد البلاغة وترسيخ مباحثها وايضاح اتجاهاتها • وكانت كل طائفة من تلك الفرق تحمل نظرة خاصة الى البلاغة ولكنها لاتعزل فريقا عن فريق وانما تنتهي كلها الى تذوق كتاب الله العزيز واتقان أساليب العرب وان تعددت كتبها واختلفت مناهجها • ولكن الدارس يلحظ اتجاهين بارزين هما : الاتجاه الأدبي والاتجاه الكلامي ، أو مايسمى بالمدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية • وأمر هذين الاتجاهين قديم فقد قال أبو هلال : « وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين وانما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل »[١٩] • وقال السيوطي : « وررقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لاعلى طريقة العجم وأهل الفلسفة »[٢٠] • ولكن الحدود بين المدرستين غير فاصلة ؛ لأن كل اتجاه يحمل سمات الاتجاه الآخر بقدر ، ولعل « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » للجرجاني و « الطراز » للعلوي خير ما يمثل هذا المزج بين الاتجاه العقلي في تحديد الفنون وتقسيمها ، والاتجاه الفني في نقد النصوص واظهار ما فيها من روعة وجمال وتأثير •

وتبقى هناك مصادر أخرى لدراسة البلاغة ، وهي مختلفة تتمثل في كتب الأدب واللغة والنحو والنوادر والتعليقات والرسائل العامة[٢١] • وفي كتب البلاغة الحديثة فائدة لاتنكر ولكنها لاتغني عن الرجوع الى المصادر الاصيلة• وأهم مصادر البحث البلاغي :

١ ــ الاتقان في علوم القرآن ــ جلال الدين السيوطي •

(١٩) كتاب الصناعتين ص٩ • (٢٠) حسن المحاضرة ج١ ص١٥٥ •

(٢١) وتتضح هذه المصادر في كتابنا « معجم المصطلحات البلاغية وتطورها » وكتابنا « مناهج بلاغية » •

٢ ـ اتمام الدراية لقراء النقاية ـ جلال الدين السيوطي •
٣ ـ احكام صنعة الكلام ـ محمد بن عبدالغفور الكلاعي •
٤ ـ الاحكام في أصول الأحكام ـ أبو الحسن علي سيف الدين الآمدي •
٥ ـ أدب الكاتب ـ ابن قتيبة •
٦ ـ أساس البلاغة ـ جار الله الزمخشري •
٧ ـ الاستدراك ـ ضياء الدين بن الأثير •
٨ ـ أسرار البلاغة ـ عبدالقاهر الجرجاني •
٩ ـ الاشارة الى الايجاز في بعض أنواع المجاز ـ عز الدين بن عبدالسلام •
١٠ ـ الأطول ـ ابراهيم بن محمد عصام الدين الاسفراييني •
١١ ـ الأقصى القريب في علم البيان ـ محمد بن محمد التنوخي •
١٢ ـ أنوار الربيع في أنواع البديع ـ ابن معصوم المدني •
١٣ ـ الايضاح في شرح مقامات الحريري ـ أبو المظفر ناصر المطرزي •
١٤ ـ الايضاح في علوم البلاغة ـ جلال الدين الخطيب القزويني •
١٥ ـ كتاب الايمان ـ ابن تيمية •
١٦ ـ البحر المحيط ـ أبو حيان الاندلسي •
١٧ ـ البديع ـ عبدالله بن المعتز •
١٨ ـ البديع في نقد الشعر ـ أسامة بن منقذ •
١٩ ـ بديع القرآن ـ ابن أبي الاصبع المصري •
٢٠ ـ البرهان في علوم القرآن ـ بدرالدين الزركشي •
٢١ ـ البرهان في وجوه البيان ـ ابن وهب الكاتب •
٢٢ ـ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ـ ابن الزملكاني
٢٣ ـ البلاغة ـ المبرد • ٢٤ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ •
٢٥ ـ تأويل مشكل القرآن ـ ابن قتيبة •
٢٦ ـ التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن ـ ابن الزملكاني
٢٧ ـ تحرير التحبير ـ ابن أبي الاصبع المصري •

٢٨ ــ كتاب التشبيهات ــ ابن أبي عون .
٢٩ ــ التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ــ أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري .
٣٠ ــ تلخيص البيان في مجازات القرآن ــ الشريف الرضي .
٣١ ــ تلخيص الخطابة ــ ابن رشد .
٣٢ ــ التلخيص في علوم البلاغة ــ جلال الدين الخطيب القزويني .
٣٣ ــ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ــ الخطابي والرماني والجرجاني .
٣٤ ــ جامع البيان في تفسير القرآن ــ ابن جرير الطبري .
٣٥ ــ الجامع الكبير ــ ضياءالدين بن الاثير .
٣٦ ــ الجمان في تشبيهات القرآن ــ ابن ناقيا البغدادي .
٣٧ ــ جمع الجواهر في الملح والنوادر ــ الحصري القيرواني .
٣٨ ــ جواهر الالفاظ ــ قدامة بن جعفر .
٣٩ ــ جوهر الكنز ــ ابن الاثير الحلبي .
٤٠ ــ حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني ــ محمد بن عرفة الدسوقي .
٤١ ــ حاشية السيد الشريف الجرجاني .
٤٢ ــ حدائق السحر في دقائق الشعر ــ رشيد الدين الوطواط .
٤٣ ــ حسن التوسل الى صناعة الترسل ــ شهاب الدين الحلبي .
٤٤ ــ حلية المحاضرة في صناعة الشعر ــ أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي .
٤٥ ــ الحيوان ــ الجاحظ .
٤٦ ــ الخراج وصناعة الكتابة ــ قدامة بن جعفر .
٤٧ ــ خزانة الأدب وغاية الارب ــ ابن حجة الحموي .
٤٨ ــ الخصائص ــ ابن جني .
٤٩ ــ الخطابة ــ أرسطو .
٥٠ ــ الخطابة ــ ابن سينا .

٥١ ـ الدر الدائر المنتخب من كنايات واستعارات وتشبيهات العرب ـ الزمخشري •
٥٢ ـ دلائل الاعجاز ـ عبدالقاهر الجرجاني •
٥٣ ـ رسائل البلغاء ـ جمعها محمد كرد علي •
٥٤ ـ الرسالة ـ الامام محمد بن ادريس الشافعي •
٥٥ ـ الرسالة الحاتمية ـ أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي •
٥٦ ـ الرسالة الشافية ـ عبدالقاهر الجرجاني •
٥٧ ـ الرسالة العذراء ـ ابن المدبر •
٥٨ ـ الرسالة العسجدية في المعاني المؤيدية ـ عباس بن علي الصنعاني •
٥٩ ـ الرسالة الموضحة • أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي •
٦٠ ـ روض الاذهان في علم المعاني والبيان ـ بدر الدين بن مالك •
٦١ ـ زهر الآداب وثمر الالباب ـ الحصري القيرواني •
٦٢ ـ سر الفصاحة ـ ابن سنان الخفاجي •
٦٣ ـ سرقات أبي نواس ـ مهلهل بن يموت بن المزرع •
٦٤ ـ شرح بديعية الباعونية ـ عائشة الباعونية •
٦٥ ـ شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ـ جلال الدين السيوطي •
٦٦ ـ شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد •
٦٧ ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة •
٦٨ ـ الشفاء ـ ابن سينا •
٦٩ ـ الصاحبي ـ احمد بن فارس •
٧٠ ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا ـ القلقشندي •
٧١ ـ كتاب الصناعتين ـ أبو هلال العسكري •
٧٢ ـ طبقات الشعراء ـ عبدالله بن المعتز •
٧٣ ـ طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام الجمحي •
٧٤ ـ طراز الحلة وشفاء الغلة ـ ابو جعفر الرعيني •

٧٥ ـ الطراز ـ يحيى بن حمزة العلوي •
٧٦ ـ عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ـ بهاء الدين السبكي •
٧٧ ـ العقد الفريد ـ ابن عبدربه •
٧٨ ـ العمدة ـ ابن رشيق القيرواني •
٧٩ ـ عيار الشعر ـ ابن طباطبا العلوي •
٨٠ ـ عيون الاخبار ـ ابن قتيبة •
٨١ ـ الفاضل ـ المبرد •
٨٢ ـ فحولة الشعراء ـ الاصمعي •
٨٣ ـ الفلك الدائر على المثل السائر ـ ابن أبي الحديد •
٨٤ ـ فن الشعر ـ أرسطو •
٨٥ ـ الفوائد (المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان) ـ ابن قيم الجوزية •
٨٦ ـ قانون البلاغة ـ ابو طاهر محمد بن حيدر البغدادي •
٨٧ ـ قراضة الذهب ـ ابن رشيق القيرواني •
٨٨ ـ قواعد الشعر ـ ثعلب •
٨٩ ـ الكامل ـ المبرد •
٩٠ ـ كتاب سيبويه ـ عمرو بن قنبر سيبويه •
٩١ ـ الكشاف ـ جار الله الزمخشري •
٩٢ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الاثير •
٩٣ ـ المجازات النبوية ـ الشريف الرضي •
٩٤ ـ مجاز القرآن ـ أبو عبيدة •
٩٥ ـ المختصر ـ سعد الدين التفتازاني •
٩٦ ـ المزهر ـ جلال الدين السيوطي •
٩٧ ـ المستصفى من علوم الاصول ـ الامام أبو حامد الغزالي •
٩٨ ـ المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ـ بدرالدين بن مالك •
٩٩ ـ المصون في الأدب ـ أبو احمد الحسن بن عبدالله العسكري •

١٠٠ ـ المطول ـ سعدالدين التفتازاني •
١٠١ ـ معالم الكتابة ومغانم الاصابة ـ ابن شيث القرشي •
١٠٢ ـ معاني القرآن ـ الفراء •
١٠٣ ـ معترك الاقران في اعجاز القرآن ـ جلال‌الدين السيوطي •
١٠٤ ـ المعتمد في أصول الفقه ـ محمد بن علي بن الطيب البصري •
١٠٥ ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ ابـو الحسـن عبدالجبار الأسد آبادي •
١٠٦ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكي •
١٠٧ ـ المقابسات ـ أبو حيان التوحيدي •
١٠٨ ـ المقتضب ـ المبرد •
١٠٩ ـ مقدمة ابن خلدون ـ ابن خلدون •
١١٠ ـ المنزع البديع فـي تجنيس أساليب البديـع ـ ابـو محمـد الناسم السجلماسي •
١١١ ـ منتهى السول في علم الاصول ـ أبو الحسن علي الآمدي •
١١٢ ـ منطق أرسطو ـ أرسطو طاليس •
١١٣ ـ منهاج البلغاء وسراج الادباء ـ حازم القرطاجني •
١١٤ ـ الموازنة بـين شعر أبي تمـام والبحتري ـ أبـو القاسـم الحسن بن بشر الآمدي •
١١٥ ـ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ـ ابن يعقوب المغربي •
١١٦ ـ الموشح ـ المرزباني •
١١٧ ـ نصرة الثائر على المثل السائر ـ صلاح الدين الصفدي •
١١٨ ـ نضرة الاغريض في نصرة القريض ـ المظفر بن الفضل العلوي •
١١٩ ـ نفحات الازهار ـ عبد الغني النابلسي •
١٢٠ ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر •
١٢١ ـ نقد النثر ـ المنسوب الى قدامة بن جعفر •

١٢٢ ــ النكت في إعجاز القرآن ــ الرماني •

١٢٣ ــ نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ــ فخر الدين الرازي •

١٢٤ ــ الوافي في العروض والقوافي ــ الخطيب التبريزي •

١٢٥ ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه ــ علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني

وهناك كثير من كتب البلاغة ومصادرها المخطوطة ، أما مراجـع البحث البلاغي فهي كثيرة تحفل بها مكتبات العالم ، ولا يزال الباحثـون يضيفون كل عام كتباً وبحوثاً جديدة[٢٢] • وتأتي أهمية المراجـع من أنها تفتح أمام الباحث سبل الكشف عن المصادر وتفسر له ما غمض وتوضح له ما استبهم وتمـزج له بعض ما تلقفه المعاصرون من الغرب بما قرأوه في كتب العرب ، وفي ذلك فائدة لمن أراد التجديد •

استدراك :

تضاف الى القائمة بعض المصادر القديمة وهي :

١ ــ أصول البلاغة ــ كمال الدين ميثم البحراني •

٢ ــ الروض المريع في صناعة البديع ــ ابن البناء المراكشي •

٣ ــ شرح الكافية البديعية ــ صفي الدين الحلي •

٤ ــ المنصف ــ الحسن بن علي بن وكيع •

٥ ــ نكت الانتصار لنقل القرآن ــ أبو بكر الباقلاني •

---

(٢٢) لم يكن حينما بدأنا بالتاليف في البلاغة عام ١٩٥٦م ، الا مايعد على اصابع اليد من الكتب المحققة والمؤلفة في البلاغة والنقد .

المصــادر :

١ ـ إعجاز القرآن ـ أبو بكـر محمـد بن الطيب الباقلانـي • تحقيق احمد صقر • القاهرة •

٢ ـ البيان والتبييـن ـ الجاحظ • تحقيـق عبدالسلام هـارون ـ القاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م •

٣ ـ جامع البيان في تفسير القرآن ـ ابن جرير الطبري • القاهرة •

٤ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهـرة ـ جلال الديـن السيوطي • القاهرة ١٢٩٩هـ •

٥ ـ دلائل الاعجـاز ـ عبدالقاهر الجرجانـي ـ تحقيق محمد رشيد رضا • القاهرة ١٣٧٢هـ •

٦ ـ الرسالة ـ محمد بن ادريس الشافعـي ـ تحقيق احمد شاكـر • القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٤٠م •

٧ ـ الطراز ـ يحيى بن حمزة العلوي • القاهرة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م •

٨ ـ عروس الافـراح ـ بهـاء الديـن السبكـي • (شـروح التلخيص • القاهرة ١٩٣٧م) •

٩ ـ كتاب الصناعتين ـ أبو هـلال العسكري • تحقيق علي محمـد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم • القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م •

١٠ ـ الكشاف ـ جار الله الزمخشري • القاهـرة ـ الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ •

١١ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكي • القاهرة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م •

١٢ ـ مقالات الاسلاميين ـ أبو الحسن الاشعري ـ استانبول ١٩٢٩م •

١٣ ـ مقدمة ابن خلدون ـ ابن خلدون • دار الكشاف ـ بيروت •

١٤ ـ نهاية الايجاز ـ فخر الدين الرازي • القاهرة ١٣١٧هـ •

* * *

(٢)

الفصاحة عند الجاحظ

الفصاحـــة :

كانت الفصاحة من أهم ماعُني به العرب ؛ لانها عنوان القدرة على الكلام والقاء الخطب وانشاء الشعر . والفصاحة هي الوضوح والبيان ، قال ابن منظور : « الفصاحة : البيان . فَصُحَ الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فُصحاء وفِصاح وفُصُح ، وامرأة فصيحة من نسوة فِصاح وفصائح . رجل فصيح وكلام فصيح : أي بليغ . لسان فصيح : أي طلق ... وفَصُحَ الاعجمي فصاحة : تكلم بالعربية وفهم عنه . وقيل : وجادت لغته حتى لا يلحن . أفصح كلامه افصاحا وأفصح : تكلم بالفصاحة ، وكذلك الصبي ، يقال : أفصح الصبي في منطقه افصاحا إذا فهمت مايقول في أول ما يتكلم . أفصح الأغتم : اذا فهمت كلامه بعد غُتْمته .[1] أفصح عن الشيء افصاحا : إذا بيّنه وكشفه فَصُحَ الرجل وتفصح إذا كان عربي اللسان فازداد فصاحة . وقيل : تَفَصَّحَ في كلامه وتفاصح : تكلّفَ الفصاحة ، يقال : ما كان فصيحا ولقد فصح فصاحة وهو البيّن في اللسان والبلاغة . التفصّح : استعمال الفصاحة وقيل : التشبه بالفصحاء ، وقيل : جميع الحيوان ضربان : أعجم وفصيح ؛ فالفصيح :

---

* نشر في مجلة المورد (العدد الأول سنة ١٩٨٢) ثم نشر بتعديل في كتابي « البلاغة عند الجاحظ » الذي نشرته وزارة الثقافة والاعلام العراقية سنة ١٩٨٣م . وكنت قد اهتممت بتتبع المصطلح البلاغي منذ اكثر من ثلاثين سنة وظهر ذلك في كتبي الكثيرة ثم تتوج في « معجم المصطلحات البلاغية وتطورها » و « معجم النقد العربي القديم » .

(١) الغتمة : العجمة في المنطق . الاغتم : من لايفصح في كلامه .

كل ناطق ، والاعجم : كل مالاينطــق • الفصيح في اللغة المنطلق اللســان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه »[٢] .

ويتضح في هذا القول أن الفصاحة بيان التعبير ووضوحه ، وأنها تخص الكلام والمتكلم ، ففصاحة الكلام أن يكون واضحا بليغا ، وفصاحة المتكلم أن يكــون منطلق اللسان في القــول ، عارفاً جيد الكــلام من رديئــه • ولو مضينــا نبحث عن لفظــة « الفصاحــة » لرأيناهــا في كــلام العــرب كقول نَضْلة السُّلَمي :

رأَوه فازْدَرَوه وهو خِرْقٌ ... وينفع أهلَه الرجلُ القبيحُ

فلم يَخْشَوا مُصالته عليهم ... وتحت الرغوة اللبنُ الفصيحُ[٣]

وفي القرآن الكريم كقوله تعالى حكاية عن نبيه موسى ــ عليه السلام : «وأخي هرونُ هو أفْصَحُ مني لساناً»[٤] • وفي الحديث النبــوي الشريف كقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أنا أفصح العــرب بيد أني مــن قريش » وقوله : « غفر لــه بعدد كل فصيح وأعجــم »[٥] • ولا يخرج مافي كتاب الله وكلام الرسول الكريم عن المعنى الذي ذكرته المعاجم لكلمة « الفصاحة » وهو الظهور والبيان وانطلاق اللسان ، وحينما دخلت هذه اللفظة الدراسات البلاغية ارتبطت بلفظة البلاغة وصارت صنوهــا ، وأصبح رجال البلاغــة الاوائل لا يفرقون بينهما بل لم يروا بأساً في أن يستعملوا إحداهما مكان الأخرى •

وكان أبو عثمان عمرو بــن بحر الجاحظ المتوفى سنــة ٢٥٥هـ من اوائل الذين اهتموا بدراسة الفصاحة ، وفي كتابيه « البيان والتبيين » و «الحيوان» وغيرهما كثير من الاشارات الى فصاحة المتكلم وفصاحة الكلام ، وهي اشارات

---

(٢) لسان العرب (فصح) .
(٣) الخرق : الظــريف في سماحــة ونجــدة . المصالــة : ماقطــر من الجرة أو الخابية .
(٤) سورة القصص ، الآية ٣٤ .
(٥) النهاية في غريب الحديث والاثر ج٣ ص٤٥٠ .

كان لها أثر عظيم في الدراسات البلاغية وتقسيم الفصاحة الى نوعيها فصاحة المتكلم وفصاحة الكلام .

فصاحة المتكلم :

حدد القدماء فصاحة المتكلم بان يكون منطلق اللسان في القول ، عارفاً جيد الكلام من رديئه ، وأن لا يكون في لسانه عيب يمنعه من الطلاقة واخراج الحروف من مخارجها بصورة صحيحة . وقد عالج الجاحظ هذه المسألة في كثير من فصول كتابه «البيان والتبيين» وتعرض لها عند كلامه على الخطابة وما ينبغي أن يتصف به الخطيب ، وهدفه من ذلك أن يعطي صورة وضاءة للخطباء العرب وهو يرد على الشعوبيين الحاقدين .

عرف الجاحظ الفصيح والاعجم بقوله : « الفصيح هو الانسان، والأعجم كل ذي صوت لا يفهم إرادته الا ماكان من جنسه »[٦] . فالعربي فصيح إن أدى الكلام أداء حسنا وأفهم الآخرين وكان نطقه للحروف سليما واخراجه للكلمات صحيحاً ، وكان بعيداً عما عرف في بعض قبائل العرب من كشكشة وغمغمة . وقد قال معاوية لأبي سفيان يوماً : «مَنْ أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات وتيامنوا عن عنعنة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، وليست لهم غمغمة قضاعة ولاطمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قريش »[٧] . فقريش من أفصح قبائل العرب ، وهي التي نزل عليها كتاب الله أول منزل فأصبح بيانه وألفاظه المثل الأعلى لكل فصيح بليغ ، وصار أهل الأمصار يفخرون بلغتهم التي تقرب من لغة القرآن ولا تخرج على ما جاء فيه من عذب الالفاظ . قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر : « ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة انما الفصاحة لنا أهل مكة . فقال ابن المناذر :

---

(٦) الحيوان ج١ ص٣٢ .

(٧) البيان والتبيين ج٣ ص٢١٢ .

أما الفاظنا فأحكى لألفاظ القرآن وأكثرها له موافقة فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم »[8]

لقد ذهب الجاحظ الى أن الفصيح من عبّر عن نفسه بوضوح وأبان عن قصده بجلاء وينطبق ذلك على أية لغة مادام المتكلم ينطق حروفها نطقاً سليماً ويتكلم بها بطلاقة ووضوح • إن الانسان فصيح « وإن عبّر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية • وليس العربي أسوأ فهماً لطمطمة الرومي من الرومي لبيان لسان العربي ، فكل انسان من هذا الوجه يقال له فصيح »[9]• وهذا ادراك واسع لحقيقة الفصاحة التي لاتخص لغة من اللغات أو أمة من الامم بل هي مقسومة عليهم ، والفصيح فيهم مـن عبّر عن نفسه بلسان سليـم • وقد تجتمع فصاحة لغتين أو أكثر في واحد ، وممن ذكرهم الجاحظ وكان من أعاجيب الدنيا موسى بن سيار الأسواري الذي « كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحوّل وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فـلا يـدرى بأي لسـان هو أبين • واللغتان إذا التقتا في اللسـان الواحد أدخـل كل واحـدة منهما الضيم على صاحبتها[10] • إلاّ ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الاسواري »[11] •

لقد أولى الجاحظ الفصاحـة عناية كبيرة لأهميتها فـي المناظرة والخطابة وانشاد الشعر ، وقال : « كلما كان اللسان أبين كـان أحمد ، كما انه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد »[12] • وذكـر سؤال موسى ـ عليـه السلام لربه أن يحلل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وأن يكـون أخوه هـرون ردءً

(8) البيان ج1 ص18 ـ 19 •
(9) الحيوان ج1 ص32 •
(10) عالج الجاحظ هذه المسألة في الحيوان ج1 ص76 •
(11) البيان ج1 ص368 •
(12) البيان والتبيين ج1 ص11 •

يصد قه ، لانه أفصح لسانا ، ولم يكن ذلك إلاّ « رغبة منه في غاية الافصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق اليه أميل والعقول عنه أفهم، والنفوس اليه أسرع ، وان كان قد يأتي من وراء الحاجة ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة »[١٣] . ففصاحة المتكلم مهمة في التعبير وإضفاء الروعة على المعاني وأكسابها القوة في التأثير ، وكان العرب يأنسون بالحديث الجميل والكلام العذب ويعدونه جانبا من القرى ، وقد قالوا : « من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة واطاله الحديث عند المواكلة »[١٤] . وقال عروة بن الورد :

سلي الجائعَ الغرثانَ يا أمَّ منذرٍ   إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

هل ابْسُطُ وجهي إنّه أوّلُ القِرى   وأبذلُ معروفي له دون منكري

وكان إعطاء الحروف حقها من الفصاحة أول ماسعى اليه الفصحاء ، ولذلك كانوا يتمرنون على النطق السليم والالقاء الحسن ليكونوا أشد تأثيرا حينما يتحدثون أو يخطبون أو يجادلون . وكانوا يتحاشون الحروف التي لايحسنون نطقها ، ويبتعدون عن الالفاظ التي لا يُطاق بها اللسان . وكان واصل بن عطاء المعتزلي من أحرص الناس على أن يكون كلامه فصيحا ؛ لانه كان صاحب مقالة ورئيس نحلة ، ولما علم أنه ألثغ وأنّ مخرج ذلك منه شنيع رام اسقاط الراء من كلامه واخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه حتى انتظم لـه ما حاول . ومن طريف ما ذكره الجاحظ عنه ان بشارا حينما هجاه بقوله :

مالي أشايعُ غزّالا له عُنُقٌ   كنِقْنِقِ الدوِّ إنْ ولّى وإنْ مثلا

عنق الزرافة ما بالي وبالكم   أتكفرون رجالا أكفروا رجلا[١٥]

(١٣) البيان ج١ ص٧ . (١٤) البيان ج١ ص١٠ .

(١٥) النقنق : ذكر النعام ، الدو : الفلاة . ويشير بشار في البيت الثاني الى طول عنق واصل بن عطاء

قال: «أما لبذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت اليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله ، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عقيلي أو سدوسي »[١٦].

لقد تجنب واصل الراء في كلامه وهو كثير الدوران في اللغة العربية ، وهو حين لم يستطع أن يقول بشار ، وابن برد ، والمرعث ، جعل « المكنى بأبي معاذ » بدلاً من بشار وابن برد و « المشنف » بدلاً من « المرعث » و « الملحد » بدلاً من « الكافر » ، وقال لولا أن الغيلة سجية مـن سجايا الغاليـة » ولم يذكر المنصورية ولا المغيرية[١٧] لمكان الراء ، وقال : « لبعثت اليه من يبعج بطنه » ولم يقل : لأرسلت اليـه من يبقر بطنـه » وقال : « على مضجعـه » ولم يقل : « على فراشه » أو « سريره » وكان إذا أراد أن يقول « البر » قـال : القمح أو الحنطة ، والحنطة كوفية والقمح لغة شامية ، هذا وهو يعلم أن لغة من قال « بر » أفصح من لغة من قال : قمح أو حنطة . ولقدرته على اجتناب الراء قال الشاعر :

ويجعل البـرّ قمحاً فـي تصرفه   وجانبَ الراءَ حتى احتال للشعر
ولم يُطق مطراً والقول يُعجله   فعاذ بالغيث إشفاقـاً مـن المطـر

وقال قطرب النحوي فيما نقله الجاحظ عنه : « سألت عثمان البري : كيف كان واصل يصنع في العـدد ؟ وكيف كان يصنـع بعشرة وعشرين واربعين ؟ وكيف كان يصنـع بالقمر والبدر ويوم الاربعاء وشهـر رمضان ؟ وكيف كان يصنع بالمحرم وسفر وربيـع الآخر وجمادى الآخرة ورجب ؟ فقال : ما لي فيما يقول إلا ما قال صفوان :

ملقّنٌ ملهَمٌ فيما يحاوله   جمٌّ خواطرُه جوّابُ آفاقِ[١٨]

---

(١٦) البيان والتبيين ج١ ص١٦ .
(١٧) المنصورية والمغيرية : من الفرق الغالية . (١٨) البيان ج١ ص٢٢ .

ذكر الجاحظ ذلك كله ليؤكد أهمية الفصاحة وأثرها في الحديث ، ولكي يجاوها خاض في مسائل كثيرة كالاصوات والاسنان واللسان وعيوبه والعي والحصر واللحن واقتران الحروف وتنافر الالفاظ وغرابتها وجمالها وتنوعها وتطورها . ولكنه على طريقته في البحث والتأليف نثر هذه المسائل في كتبه نثراً ، وجَمَّعَ الأشباه والنظائر ، وضَمَّ بعضها الى بعض يعطي صورة عن جهوده في الفصاحة .

الأصـــوات :

الاصوات ظاهرة طبيعية تنشأ عن اهتزاز الاجسام ، والصوت الانساني ينشأ من ذبذبات مصدرها الحنجرة التي تضم الوترين الصوتيين ، واهتزازات هذين الوترين تطلق من الفم او الانف وتنتقل خلال الهواء الخارجي . واعضاء النطق هي القصبة الهوائية والحنجرة والحلق واللسان والحنك والفراغ الانفي والشفتان ، ولكل عضو وظيفة خاصة في اخـراج الصوت وتحديد مخارج الحروف . وقد تحدث الجاحظ عن الصوت وهو « آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم بـه التقطيع وبـه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلاّ بظهور الصوت ولا تكـون الحروف كلاما إلاّ بالتقطيع والتأليف »[١٩] . وللصوت تأثير عجيب في النفوس « فمـن ذلك ان منه ما يقتل كصوت الصاعقة . ومنها ما يسرّ النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حالـق ، وذلك مثل هذه الاغاني المطربة . ومن ذلك ما يكمد ، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنحو هذه الأصـوات الشجية والقراءات الملحنة . وليس يعتريهم ذلك من قبل المعاني ؛ لانهم في كثـير من ذلك لايفهمـون كلامهم ، وقد بكى ماسرجويه[٢٠] من قـراءة أبي الخـوخ فقيل له : كيف بكيت من كتـاب الله

(١٩) البيان والتبيين ج١ ص٧٩ .

(٢٠) ماسرجويه : يهودي من اطباء البصرة واحد المترجمين من السريانية .

ولا تصدّق به ؟ قال : إنما أبكاني الشجا • وبالأصوات ينوّمون الصبيان والأطفال »(٢١) •

وللدربة أثر في اخـراج الحروف وان كان الأعجمي غـير قادر على نطق جميع الحروف العربية إلا بعد النصب ، ويظهر ذلك منه من غير تأمل طويل أو ملاحظة دقيقة فقد « يتكلم المغـلاق (٢٢) » الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظـه متخيراً فاخراً ومعناه شريفاً ، ويعلم مـع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطـي • وكذلك إذا تكلم الخراساني علـى هذه الصفة فانك تعلم مع إعرابه وتخيّر ألفاظـه في مخرج كلامـه أنّه خراساني ، وكذلك إن كان من كتاب الأحواز • ومع هذا انا نجد الحاكية من النّاس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئا ، وكذلك تكون حكايته للخراساني والأحوازي والزنجي والسندي والأحباشي وغير ذلك • نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم ، فاذا ما حكى كلام الفأفاء فكأنما قـد جمعت كل طرفـة في كل فأفاء في الارض في لسان واحد ، وتجده يحكي الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمـى واحداً يجمع ذلك كله فكأنه قد جمع جميع طرف حركات العميان في أعمـى واحد »•(٢٣) وكان بعضهم يقلد أصوات الحيوانات ويُربي عليها في التقليد • ومن طريف ماذكره الجاحظ أن أبا دَبُّوبة الزنجي مولى آل زياد كان « يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلاّ نهق ، وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقـة فلا تنبعث لذلك ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دَبُّوبة يحركه • وقد كان جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد ، وكذلك كان في نباح الكلاب »(٢٤) •

(٢١) الحيوان ج٤ ص١٩٢ •
(٢٢) يقال استغلق عليه الكلام : اذا ارتج عليه فلم يجد وجها للتكلم •
(٢٣) البيان والتبيين ج١ ص٦٩ •
(٢٤) البيان ج١ ص٦٩ – ٧٠ •

وقد يصعب تغيير النطق إذا تمكن في الألسنة ، واتنبه الجاحظ الى ذلك فقال : « ألا ترى أن السندي إذا جلب كبيراً فانه لايستطيع إلا" أن يجعل الجيم زايا ولو أقام في عليا تميم وفي سفلى قيس وبين عجز هـوازن خمسين عاما • وكذلك النبطي النح وهو خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النبط ، وان النبطي النح يجعل الزاي سيناً فاذا أراد أن يقـول : « زورق » قال سورق ، ويجعل العين همزة فاذا أراد أن يقول : « مشمعـل » قـال : مشمئل والنخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومية وأهلها يزعمون أنها مولدة بأن تقول :
« ناعمة » وتقول : « شمس » ثلاث مـرات متواليات »[٢٥] • وربط بين كثرة مخارج الحروف وكثرة ما يحتاج اليه الانسان أو الحيوان من أصوات تعبر عن حاجاته قال : « وتزعم الهنـد أن سبب ماله كثر كـلام الناس واختلفت صور ألفاظهم ومخارج كلامهم ومقادير أصواتهم في اللين والشدة وفي المد والقطع ، كثرة حاجاتهم ، ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم واتسعت على قدر اتساع معرفتهم »[٢٦] ، ولذلك كانت أصوات الحيوانات وصورها قليلة ، فالسنانير لا تعدو حوائجها خمسة أوجـه : « منها صياحها إذا ضُربت ولذلك صورة ، وصياحها إذا دعت أخواتها وآلافها ولذلك صورة ، وصياحها إذا دعت أولادها للطعم ولذلك صورة ، وصياحها إذا جاعت ولذلك صورة ، فلما قلّت وجوه المعرفـة ووجوه الحاجات ، قلّت وجوه مخارج الاصوات ، واصواتها تلك فيما بينها هي كلامها»[٢٧] • وربط بين صعوبـة اللغة واصواتها وقال : « واللغات انما تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله باماكنها التي وضعت فيها وعلى قدرة كثرة العـدد وقلته ، وعلى قـدر مخارجهـا وخفتها وسلسها وثقلها وتعقدها في أنفسها ، كفرق مابين الزنجي والخوزي فان الرجل

---

(٢٥) البيان ج١ ص٧٠ — ٧١ •

(٢٦) الحيوان ج٢ ص٢١ — ٢٢ •

(٢٧) الحيوان ج٤ ص٢٢ • ويلاحظ ان الجاحظ سها عن ذكر الصورة الخامسة.

يتنخس في بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلم بعامة كلامهم ، ويبايع الخوز ويجاورهم زمانا فلا يتعلق منهم بطائل »[٢٨] .

وتكلم الجاحظ على بعض أعضاء النطق كالاسنان واللسان وذكر بعض ما يتصل بها وتأثيرها في اخراج الحروف .

الأسنان :

وهي أحد أقسام الحنك في أعضاء النطق أو الجهاز العضلي وقدراتها في إخراج الحروف ، وقد قال سهل بن هارون : « لو عرف الزنجي فرط حاجته الى ثناياه[٢٩] في اقامة الحروف وتكميل آلة البيان لما نزع ثناياه »[٣٠] . وكان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قد قال من قبل في سهيل بن عمرو الخطيب: « يا رسول الله انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبداً »[٣١] ، ولذلك لم يتكلم معاوية بن أبي سفيان على منبر جماعة منذ سقطت ثناياه .

وليس شيء من الحروف أدخل في باب النقص والعجز من فم الأهتم[٣٢] من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة . ولا تخرج الضاد إلا من الشدق الايمن إلا أن يكون المتكلم أعسر يَسراً مثل عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فانه كان يخرج الضاد من أي شدقيه شاء ، فأما الأيمن والأعسر والأضبط[٣٣] فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد[٣٤] . وقيل إن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه اذا سقط أكثرها

(٢٨) الحيوان ج٥ ص٢٨٩ .
(٢٩) الثنايا : أسنان مقدم الفم ، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل .
(٣٠) البيان والتبيين ج١ ص٥٨ .
(٣١) البيان والتبيين ج١ ص٥٨ .
(٣٢) الأهتم : هو الذي انكسرت ثناياه من أصولها .
(٣٣) الأضبط : الاعسر اليسر الذي يعمل بكلتا يديه .
(٣٤) ينظر البيان ج١ ص٦٢ .

وخالف احد شطريها الشطر الآخر ، قال الجاحظ : « وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهدهم الناس بعد أن سقطت جميع أسنانهم وبعد أن بقي منها الثلث أو الربع • ومن سقطت جميع أسنانه وكـان معنى كلامه مفهوما الوليد ابن هشام القحذمي ، وصاحب الأخبار ، ومنهـم أبو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبي وكان ذا بيـان ولسن • وكان عبيد الله بن أبي غسـان يصرّف لسانه كيف شاء ، وكان الالحاح على القيسي[٣٥] قد برد أسنانـه حتى لايرى أحد منها شيئاً إلاّ إنْ تطلّع في لحم اللثـة أو في أصول منابت الاسنان • وكان سفيان بن الابرد الكلبي كثيراً ما يجمع بين الحار والقار فتساقطت أسنانه جمع ، وكان فـي ذلك خطيبا بيّنا • وقال أهـل التجربـة : إذا كان في اللحم الذي فيه مغارز الأسنان تشمير وقصر سَمْكه[٣٦] ، ذهبت الحروف وفسد البيان • واذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئاً يقرعه ويصكه ولم يمرّ في هواء واسع المجال ، وكان لسانه يملأ جوبة فمه ، واذا كان كذلك ، لم يضره سقوط اسنانه إلاّ بالمقدار المغتفر والجزء والمحتمل »[٣٧] •

اللســـان :

اللسان عضو مهم في عمليـة النطق لمرونته وكثرة حركتـه في الفم عند الكلام •وقد تحدث الجاحظ عنه وذكر صلته الوثيقة بالنطق وقال إن من سقط جميع أسنانه كان عظم اللسان نافعاً له ، ونقل عن أرسطو « ان كل طائر عريض اللسان فالافصاح بحـروف الكلام منه أوجد »[٣٨] • وقـال : « ويؤكد ذلك قول صاحب المنطق فانه زعم في كتاب الحيوان ان الطائر والسبع والبهيمة كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصـح وأبين وأحكـى لما يلقن ولما يسمع كنحو الببغاء والعُدّاف وغراب البين وما أشبه ذلك »[٣٩] •

---

(٣٥) القيسي : المشمس الجاف ، ولا يزال هذا مستعملا في العراق .
(٣٦) التشمير : التقليص . السمك ـ بالفتح وسكون الميم ـ : الارتفاع .
(٣٧) البيان ج١ ص ٦١ ـ ٦٢ .
(٣٨) الحيوان ج٥ ص٢٨٨ . (٣٩) البيان والتبيين ج١ ص٦٢ .

ويحتاج اللسان الى التدريب فاذا « تــرك الانسان القول فلتت خواطره وتبلدت نفســه وفســد حســه » وكانوا يروّون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفــع الصوت وتحقيق الاعـراب ، لان ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم[٤٠] . واللسان إذا اكثرت تقليبه رقّ ولان ، واذا أقللت تقليبه وأطلت إسكانه جسأ وغلظ »[٤١] . وكانوا يمتدحون رحابة الشدقين وقد قيل لأعرابي : مـا الجمال ؟ قال : « غؤور العينين ، واشراف الحـاجبين ، ورحب الشدقين »[٤٢] . وكانوا يذمون المتشدق الـذي يلوي شدقه للتفصح ، ولكن الجاحظ رأى أن « صاحب التشديق والتقعير والتقعيب[٤٣] من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عيي يتكلف الخطابة ومـن حَصِر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة ، ومدار اللائمـة ومستقر المذمـة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف وبياناً يمازجه التزيّد ، إلا أنّ تعاطي الحصر المنقوص مقام الدرب التام أقبح من تعاطي البليغ الخطيب ومن تشادق الأعرابي التح ، وانتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني والالفاظ وفي التحبير والارتجال انه البحر الذي لا ينزح والغمر الذي لا يسبر أيسر من انتحال الحصر المنخوب فـي مسـلاخ[٤٤] التـام الموفـر والجامـع المحكـك وإن كـان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد قال : « إياي والتشادق » . وقال : « أبغضكم اليّ الثرثـارون المتفيهقون » . وقـال : « من بداجا »[٤٥] . وعـاب الفدّادين[٤٥] والمتزيدين في جهـارة الصوت وانتحال سعة الاشداق ورحب الغلاصم وهدل الشفاه ، وأعلمنا أنّ ذلك في أهل الوبر أكثر وفي أهل المدر أقل »[٤٦] .

(٤٠) الجرم ــ بكسر الجيم ــ : الحلق .
(٤١) البيان ج١ ص٢٧٢ .
(٤٢) الحيوان ج٢ ص١٧٥ .
(٤٣) التقعير : أن يتكلم باقصى قعر فمه . التقعيب في الكلام كالتقعير فيه .
(٤٤) المنخوب : الجبان . المسلاخ : الجلد .
(٤٥) الفداد : الجافي الصوت والكلام .
(٤٦) البيان والتبيين ج١ ص١٣ .

ومن الخطباء من كان أشغى أفلج[47] كزيد بن جندب ، « ولولا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة »[48] ، ومنهم من كان أروق ومن كان أضجم ، ومن كان أفقم[49] .

عيوب اللسان :

لابدّ للفصيح من أن يكون سليم النطق أي يكون لسانه خالياً من العيوب التي تعوقه عن اخراج الحروف بصورتها الصحيحة ، وقد تكلم الجاحظ على بعضها ومنها :

١ ــ اللثغة : وهي التي تعتري الصبيان الى أن ينشأوا ، وهي خلاف مايعتري الشيخ الهرم المسترخي الحنك وخلاف مايعتري أصحاب اللكن من العجم ومن ينشأ من العرب مع العجم[50] والحروف التي تدخلها اللثغة اربعة هي : القاف والسين واللام والراء ، قال الجاحظ : « فأما التي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوّره الخط ، لانه ليس من الحروف المعروفة وانما هو مخرج من المخارج ، والمخارج لاتحصى ولا يوقف عليها ، وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم ، وليس ذلك في شيء اكثر منه في لغة الخوز ، وفي سواحل البحر من أسياف فارس ناس كثير كلامهم يشبه الصفير ، فمن يستطيع أن يصور كثيراً من حروف الزمزمة والحروف التي تظهر من فم المجوسي إذا ترك الافصاح عن معانيه وأخذ في باب الكناية وهو على الطعام ؟ فاللثغة التي تعرض للسين تكون ثاءً كقولهم لابي يكسوم[51] « أبي يكثوم » وكما يقولون : « بثرة » إذا أرادوا : « بسْرة » و « بثم الله » إذا أرادوا : « بسم الله » » .

(٤٧) الشغا : اختلاف نبتة الأسنان . الفلج : شق في الشفة العليا .
(٤٨) البيان ج١ ص٥٥ .
(٤٩) الروق : طول في الثنايا العليا على السفلى . الضجم : اعوجاج في الفم والفقم مثله .
(٥٠) البيان ج١ ص٧١ .
(٥١) كنية ابرهة الملك الحبشي صاحب الفيل .

واللثغة الثانية التي تعرض للقاف فان صاحبها يجعل القاف طاء فاذا أراد أن يقول: « قلت له » قال: « طلت له » واذا أراد أن يقول: « قال لي » قال: « طال لي ».

وأما اللثغة التي تقع في اللام فان من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله: « اعتللت »: « اعتييت » وبدل: « جمل »: « جمَي ». وآخرون يجعلون اللام كافا كالذي عرض لعمر أخي هلال فانه كان اذا أراد أن يقول: « ما العلة في هذا؟ » قال: مكعكة في هذا؟ ».

وأما اللثغة التي تقع في الراء فان عددها يضعف على عدد لثغة اللام؛ لان الذي يعرض لها أربعة أحرف، فمنهم من إذا أراد أن يقول: « عمرو » قال: « عَمي » فيجعل الراء ياء. ومنهم من اذا أراد أن يقول: « عمرو » قال: « عَمْغ » فيجعل الراء غينا. ومنهم من اذا أراد أن يقول: « عمرو » قال: « عَمْذ » فيجعل الراء ذالا. واذا أنشد قول الشاعر:

واستبدت مَرةً واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبد

قال:

واستبدت مَذةً واحدةً إنما العاجز من لا يستبد

فمن هؤلاء علي بن الجنيد بن فريدي. ومنهم من يجعل الراء غينا معجمة فاذا أراد أن ينشد هذا البيت قال:

واستبدت مغة واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبد

كما ان الذي لثغته بالياء إذا أراد أن يقول: « واستبدت مرة واحدة » يقول: « واستبدت ميَّة واحدة ».

وأما اللثغة الخامسة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء ولسليمان بن يزيد العدوي الشاعر فليس الى تصويرها سبيل، وكذلك اللثغة التي تعرض في

السين كنحو ما كان يعرض لمحمد بن الحجاج كاتب داود بن محمد كاتب أم جعفر فان تلك أيضاً ليست لها صورة في الخط ترى بالعين وانما يصورها اللسان وتتادّى بالسمع »[٥٢] ، ولكنهم قالوا إن اللثغة التي تكون بالغين أقلها قبحاً وأوجدها في كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم[٥٣] ، وقد تجتمع في اللسان لثغتان في حرفين كأن يجعل اللام ياء والراء ياء كلثغة شوشى صاحب عبدالله بن خالد الأموي فانه قال مرة : « موياي ويي أيّي » يريد : « مولاي ولي الري »[٥٤] ، واللثغة التي في الراء اذا كانت بالياء فهي أحقرهن وأوضعهن لذي المروءة ثم التي على الظاء ، ثم التي على الذال ، فاما التي على الغين فهي أيسرهن ويقال إن صاحبها لو جهد نفسه واحدّ لسانه وتكلف مخرج الراء على حقها والافصاح بها لم يك بعيداً من أن تجيبه الطبيعة ويؤثر فيها ذلك التعهد أثراً حسناً ، وقد كانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين وكان إذا شاء أن يقول « عمرو » و « لعمري » وما أشبه ذلك على الصحة قاله ، ولكنه كان يستثقل التكلف والتهيؤ لذلك ، وقد قال الجاحظ له: « إذا لم يكن المانع إلاّ هذا العذر فلست أشك انك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهراً واحدا ان لسانك كان يستقيم »[٥٥] ، وكانوا يقولون إن أحسن اللثغ ما كان على السين وهو أن تصير ثاء ، وكانوا يقولون أيضاً :أحسنها على الراء وهو أن تصير غيناً[٥٦] ، وكانوا يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن ومقدودة مجدولة فاذا أسنّت واكتهلت تغيّر ذلك الاستملاح[٥٧] ، وكانوا

---

(٥٢) البيان والتبيين ج١ ص٣٤ – ٣٦ .
(٥٣) البيان والتبيين ج١ ص١٥ ، ٣٧ .
(٥٤) البيان ج١ ص٣٦ .
(٥٥) البيان ج١ ص٣٦ – ٣٧ .
(٥٦) البيان ج٢ ص٢٣٢ .
(٥٧) البيان ج١ ص١٤٦ .

يخافون من الورانة في اللثغ ولذلك يقال ان أبا رمادة طلق امرأته حين وجدها لثغاء خشية أن تجيئه بولد ألثغ وقال :

لثغاء تأتي بحيفس ألثغ تميس في الموشي والمصبغ [٥٨]

٢ ـ التتعتع : وهو التردد في الكلام فـاذا تتعتع اللسـان في التاء فهو فاناء ، وقد قيل في مدح الطلق اللسان :

ليس بفأفاء ولا تمتام ولا كثير الهجر في الكلام

وقيل : إنّ التمتام غير المعْرِب عن معناه ولا المفصح بحاجته[٥٩]، واذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألفّ ، وقيل : بلسانه لَفَف ، قال الشاعر :

كأنّ فيه لَفَفاً إذا نَطَق من طول تَحْبيس وهَمّ وأرق

قال الجاحظ : « كأنه لما جلس وحده ولم يكن له من يكلمه وطال عليه ذلك أصابه لَفَف في لسانه ». وكان يزيد بن جابر قاضي الأزارقة بعد المقعطل يقال له : « الصموت » لانه لما طال صمته ثقل عليه الكلام فكان لسانه يلتوي ولا يكاد يبين ، وأخبرني محمد بن الجهم ان مثل ذلك اعتراه ايام محاربة الزط من طول التفكر ولزوم الصمت »[٦٠] . وقد يكون في كلام بعضهم عجلة فلا يستطيع السامع أن يفهم منه إلا بعد النصب والانتباه الشديدين .

٣ ـ الحُبْسة : وهي أن يثقل الكلام في اللسان ، ولكنه لا يبلغ حدّ الفأفاء والتمتام .

٤ ـ العقلة : هي أن ينحبس اللسان عن الكلام .

(٥٨) البيان ج١ ص٥٧ . الحيفس : ـ بوزن هزبر ـ الولد القصير الصغير .
(٥٩) البيان ج١ ص٣٧ ـ ٣٨ .
(٦٠) البيان والتبيين ج١ ص٣٨ .

٥ ـ اللكنة : وهي العجمة في اللسان ، أو أن تعترض في الكلام اللغة الأجنبية ، قال الجاحظ : « ويقال في لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأولى الى المخرج الأول »[٦١] • وقد يكون المتكلم غير قادر على نطق بعض الحروف ، ومن ذلك زياد الأعجم الذي كان فصيح الشعر غير انه لا ينطق الطاء فاذا نطق «السلطان» قال : «الشلتان» • ومنهم سحيم عبد بني الحسحاس الذي كان يقلب الشين سينا فاذا نطق : « ما شعرت » قال : « ماسعرت » • ومنهم أم ولد لجرير بن الخطفي الشاعر وكانت تقلب الذال دالاً في كلمة « الجرذان » • ومنهم عبيد الله بن زياد الذي نشأ في الأساورة عند شيرويه الأسواري زوج أمه مرجانة ، فانه كان يقلب الحاء هاءً فيقول في : « أحروري ؟ » : « أهروري ؟ » • وكان شعيب بن سنان ينطق العربية بلكنة رومية فيقول في : « حائن » : « هائن » • ومنهم أبو مسلم الخراساني الذي كان يقلب القاف كافاً فيقول في « قلت » : « كلت » •

وذكر الجاحظ موضعا آخر من اللكنة يتصل بصيغة الفعل أو بناء الكلمة لا بنطق الحروف ، فقد قيل لنبطي : لم ابتعت هذه الأتان ؟ قال : « أركبها وتلدْ لي فجاء بالمعنى بعينه ولم يبدل الحروف بغيرها ولا زاد فيها ولا نقص ولكنه فتح المكسور حين قال : « وتَلَدلي » ولم يقل : « تَلِدُ لي »[٦٢] •

٦ ـ الحكلة : وهي نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانية إلا بالاستدلال[٦٣] • قال الجاحظ وهو يتحدث عن الحبسة : « يقال في لسانه حبسة إذا كان في لسانه ثقل يمنعه من البيان ، فاذا كان الثقل الذي في لسانه من قبل العجمة قيل في لسانه حُكْلَة ، والحُكْل من الحيوان كله ما

(٦١) البيان ج١ ص٣٩ •
(٦٢) ينظر البيان والتبيين ج١ ص٧١ ، ج٢ ص٢١٣ ، الحيوان ج٣ ص٢٩٢ •
(٦٣) البيان ج١ ص٤٠ •

لم يكن له صوت يستبان باختلاف مخارجه عند حرجه وضجره وطلبه ما يغذوه أو عند هياجه إذا أراد السفاد ، أو عند وعيد لقتال ، وغير ذلك من أمره »[٦٤] .

العـي :

وكانوا يذمون العي ، وهـو العجز عن الأمر وإحكامه أو عـن الحجة ، وقد بدأ الجاحظ كتاب « البيان والتبيين » بقوله : « اللهـم نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك مـن التكلف لما لانحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن . ونعوذ بك من السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العي والحصر وقديما ما تعوذوا بالله من شرهما وتضرعوا الى الله في السلامة منهما »[٦٥] . ونقل بعض الأقوال من ذلك قولهـم : « البيان بصر والعي عمى كما انَّ العلـم بصر والجهل عمى ، والبيان مـن نتاج العلم والعي مـن نتاج الجهل »[٦٦] . وقول النمر بن تولب :

أعِذْني رَبِّ من حصر وعيٍّ ومـن نَفَس أعالجهـا عِلاجا

وقول الآخر :

وما بيَ من عيٍّ ولا أَنْطِقُ الخنا إذا جمع الأقوامَ في الخطب مَحْفِلُ

وكانـوا يقولون : « عـي أبأس مـن شلـل » كـأن العـي فوق كل زمانة[٦٧] . وفي الباب الذي عقـده الجاحظ للعـي[٦٨] أمثلة كثيرة تدل على استهجان القدماء له وتفورهم منه .

الحصـر :

وكان يذمون الحصر وهو « ضرب من العي . حصر الرجل حصـراً مثل تعب تعبـاً فهـو حَصِر عيـي في منطقه . وقيـل : حصـر لم يقـدر على

---

(٦٤) الحيوان ج٤ ص٢١ .
(٦٥) البيان ج١ ص٣ .
(٦٦) البيان ج١ ص٧٧ .
(٦٧) البيان ج١ ص٢١٥ .
(٦٨) ينظر البيان ج٢ ص٢٣٤ .

الكلام»[٦٩] . وقال الجاحظ : «والناس لا يُعيِّرون الخرس ولا يلومون من استولى على بيانه العجز ، وهم يذمون الحصر ويؤنبون العيي فان تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء وتعاطيا مناظرة البلغاء تضاعف عليهما الذم وترادف عليهما التأنيب . ومماتنة العيي الحصر للبليغ المصقع في سبيل مماتنة المنقطع المفحم للشاعر المفلق وأحدهما ألوم من صاحبه ، والألسنة اليه أسرع . وليس اللجلاج والتمتام والألثغ والفأفاء وذو الحُبْسة والحُكْلة والرتة[٧٠] وذو اللفف والعجلة في سبيل الحَصِر في خطبته والعيي في مناظلة خصومه كما ان سبيل المفحم عند الشعراء والبكيء عند الخطباء خلاف سبيل المسهب الثرثار والخطل المكثار »[٧١] .

اللحن :

وكانوا يستقبحون اللحن ، لانه من عيوب الكلام ، وقالوا : « اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه »[٧٢] . وكان أول لحن سمع بالبادية « هذه عصاتي » وأول لحن سمع في العراق : « حيّ على الفلاح »[٧٣] . وأقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم ، وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الأسواق . وقد رأى الجاحظ أن تذكر النوادر والطرف كما قيلت ولا يصلح ما فيها من لحن ، قال « ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الأعراب فاياك أن تحكيها إلاّ مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فانك إن غيّرتها بان تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر

(٦٩) لسان العرب (حصر) .
(٧٠) الرتة : عجلة في الكلام وقلة أناة ، وقيل هي العجلة في الكلام ، والحكلة : شبه العجمة في الكلام .
(٧١) البيان ج١ ص١٢ .
(٧٢) البيان ج٢ ص٢١٦ .
(٧٣) البيان ج٢ ص٢١٩ .

العوام وماحة من ماح الحشوة والطغام نايـاك أن تستعمل فيها الاعـراب أو تتخير لها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومـن الذي أريدت لـه ويذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها »(٧٤) ، وقال : « إن الاعراب يفسد نوادر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب »(٧٥) ، وقال في كتابه « البخلاء » : « وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا انا انما تركنا ذلك لأن الاعراب يبغض هـذا الباب ويخرجـه من حدّه إلا أن أحكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه »(٧٦) وقال عن الجواري : « واللحن من الجـواري الظراف ومن الكواعب النواهد ومن الشوابّ الملاح ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر ، وربما استملح الرجل ذلك منهن مالم تكن الجارية صاحبـة تكلف ، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد »(٧٧) . وفي باب اللحن(٧٨) كثير من الأخبار والطرائف وهي تدل على استهجان القدماء لهذا العيب الذي يقع فيه المتحدثون والخطباء ، وفي باب اللحانين والبلغاء(٧٩) اسماء بعض الذين كانوا يقعون في هذا العيب على الرغم مما عرفوا به من بلاغة واقتدار على الكلام .

تلك هي المسائل التي تحدث عنها الجاحظ في باب فصاحة الكلام ، وتلك هي العيوب التي عرض لها ، وقد يكون بعضها طبيعيا لابدّ للمتكلم فيها ، وقد يكـون بعضها بسبب نقص التمرين والعنايـة بالكـلام ، ولذلك كان العرب يرسلون أولادهم الى البادية أو يتخذون لهم مؤدبين يدربونهم علـى الفصاحة والنطق السليم ، ويعلمونهـم البيان وفن القول ؛ لأن التمرين سبيل الى اتقان

---

(٧٤) البيان والتبيين ج١ ص١٤٥ — ١٤٦ . (٧٥) الحيوان ج١ ص٢٨٢ .

(٧٦) البخلاء ص٤٠ .

(٧٧) البيان ج١ ص١٤٦ .

(٧٨) البيان ج٢ ص٢١٠ .

(٧٩) البيان ج٢ ص٢٢٠ .

الكلام وسلامة النطق و فصاحة اللسان ، وقد قال الجاحظ : « وبـد الانسان لاتكون أبداً إلّا خرقاء ولا تصير صناعاً ما لم تكن المعرفة ثقافاً لهـا ، واللسان لايكون أبداً ذاهبا في طريـق البيان متصرفـاً في الالفـاظ الا بعد أن تكون المعرفة متخللة به منقلة له واضعة في مواضع حدوده وعلى أماكن حظوظه ، وهو علة له في الأماكن المميقة ومصرّفة له في المواضع المختلفة »[٨٠] . فالفصاحة من صفات المتكلم كما هي من صفات الكـلام ، وقـد كانت مهمـة في القديم حينما كان العربي يتمـد على فصاحتـه في القـاء الخطب وانشـاد الشعر ومقارعـة الخصـوم ، والجاحظ حـين بحـث هـذه المسألـة كانـت أمامه الخطابـة والمناظـرات التي كانت تقـوم بين المتكلمين وخصومهـم أو بينهم وبين الطاعنين في كتـاب الله العزيز . وقـد كانت جهـارة الصـوت وسلامة اللسان من العيوب ذات أهمية كبيرة لانها تؤثر تأثيراً عظيما على المستمعين، ولم يقف الأمر عند هذه المسائل بل كان الخطيب يعتمد على هيئتـه وزيه واشاراته وتمثيله للمعاني بنبرات صوته ومقاطع كلامه، وقد قال أبو داود بن حريز وقدجرى شيء من ذكر الخطب : « تلخيص المعاني رفـق ، والاستعانة بالغـريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر في عيـون الناس عـيّ ، ومسّ اللحية هلك » . وقال : رأس الخطابـة الطبـع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحلية الاعراب وبهاؤها تخير الالفـاظ ، والمحبـة مقرونة بقلة الاستكراه »[٨١] وقال الجاحظ : « إن البيان يحتاج الى تمييـز وسياسة والى ترتيب ورياضة ، والى تمام الآلة وإحكام الصنعة والى سهولة المخرج وجهارة النطق وتكميل الحروف واقامة الوزن ، وان حاجة المنطق الى الحلاوة والطلاوة كحاجته الى الجزالة والفصاحة ، وان ذلك من اكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق وتزين به المعاني »[٨٢] .

---

(٨٠) الحيوان ج١ ص١١٦ .

(٨١) البيان والتبيين ج١ ص٤٤ .

(٨٢) البيان ج١ ص١٤ .

فصاحة الكلام :

أما فصاحة الكلام فهي « خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد »[٨٣] . وقد تحدث الجاحظ عن ذلك حديث العارف المطلع والأديب المقتدر وكان لنزعته الأدبية وثقافته الواسعة أكبر الأثر في معالجة هذا الموضوع . ولا تنحصر فصاحة الكلام في مسألة واحدة وانما تشمل كثيراً من المسائل المتصلة بالحروف والالفاظ والكلام ، وقد أولى الجاحظ هذه المسائل عناية كبيرة وتحدث عنها حديث الخبير .

الحروف :

تحدث الجاحظ عن الحروف وذكر ما يشيع منها في بعض اللغات ، قال : « ولكل لغة حروف تدور في اكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين واستعمال الجرامقة للعين وقال الأصمعي : ليس للروم ضاد ولا للفرس ثاء ولا للسرياني ذال[٨٤] » . وقال إن اكثر الحروف دورانا في اللغة العربية الراء والياء واللام والألف ، ولذلك كانوا يتعجبون من واصل بن عطاء لتجنبه الراء في كلامه . وأنشد أبو محمد اليزيدي :

وخلة اللفظ في الياءات إنْ ذُكرتْ ... كخلة اللفظ في اللامات والألف

وخصلة الراء فيها غير خافية ... فاعرفْ مواقعها في القول والصحف

قال الجاحظ : « يزعم أنَّ هذه الحروف اكثر تردادا من غيرها والحاجة اليها أشد واعتبر ذلك بان تأخذ عدة رسائل وعدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم فانك متى حصلت جميع حروفها وعددت كل شكل على حدة علمت أنَّ هذه الحروف الحاجة اليها أشد »[٨٥] . وذكر أن الميم والباء أول ماتتهيأ

(٨٣) الإيضاح ص٤ .
(٨٤) البيان والتبيين ج١ ص٦٤ ـ ٦٥ .
(٨٥) البيان ج١ ص٢٢ .

في أفواه الاطفال كقولهم « ماما » و « بابا » لانهما خارجان من عمل اللسان ، وانما يظهران بالتقاء الشفتين (٨٦) .

وتحدث عن اقتران الحروف ، وهو ما يتصل بفصاحة اللفظة المفردة وقال: « فأما في اقتران الحروف فان الجيم لاتقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير ، والزاي لاتقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير . وهذا باب كبير وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي اليها يجري »(٨٧) . وهذه التفاتة ذكية ، لان للغة العربية ذوقاً خاصاً في اقتران الحروف ، ولذلك لانجد ما أشار اليه الجاحظ إلا في الالفاظ الدخيلة . وبهذه القاعدة يستطيع الباحث أن يعرف أصيل اللفظ العربي من دخيله .

الالفاظ :

تتكوّن اللفظة من حروف ، وللفظة المفردة موقع في الجملة فاذا وضعت وضعا حسنا كانت جميلة موحية واذا وقعت في غير موقعها نبَت وأنكرتها الأذواق وقد تكلم الجاحظ على تنافر الالفاظ وقال : « ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وان كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها إلاّ ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبْرُ

ولما رأى من لاعلم له أن أحداً لايستطيع أن ينشدها هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج وقيل لهم إن ذلك انما اعتراه إذ كان من أشعار الجن صدقوا ذلك . ومن ذلك قول ابن يسير :

لم يضرها والحمد لله شيٌ ... وانثنتْ نحو عزْفِ نَفْسٍ ذَهولِ

(٨٦) البيان ج١ ص٦٢ .
(٨٧) البيان ج١ ص٦٩ .

فتفقد النصف الأخير من هذا البيت فانـك ستجد بعض ألفاظـه يتبرأ من بعض »[٨٨] • ولذلك ينبغي أن تكون الالفاظ متماثلة متلائمة لكـي لايقع بينها التنافر فتصبح كأولاد علة»[٨٩] ، قال الجاحظ : « وأنشدني أبو العاصي قال أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى :

وبعض قريض القوم أولادُ علّةٍ ... يكدُّ لسانَ الناطقِ المتحفّظ

وقال أبو العاصي : وأنشدني في ذلك أبو البيداء :

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه ... لسانٌ دعيٌّ فـي القريض دخيـل

فانه يقول : إذا كان الشعر مستكرهاً ، وكانت ألفاظ البيت مـن الشعر لا يقع بعضها مماثـلاً لبعض كان بينها من التنافر مابين أولاد العـلات • واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مرضيا موافقا ، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج، فتعلم بذلك انه قدأفرغ افراغا واحداً،وسبك سبكاً واحداً،فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان • وأما قوله : «كبعر الكبش» فانما ذهب الى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور ، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملساً ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفـة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكدّه ، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية سلسة النظام خفيفة على اللسان حتى كأنّ البيت بأسرة كلمـة واحدة وحتى كأنّ الكلمة بأسرها حرف واحد »[٩٠] •

---

(٨٨) البيان والتبيين ج١ ص٦٥ — ٦٦ ، وينظر الحيوان ج١ ص٢٠٧ •

(٨٩) أولاد علة : بنو رجل واحد من امهات شتى •

(٩٠) البيان والتبيين ج١ ص٦٦ •

ومن أمثلة الكلام الذي لا تتباين ألفاظه ولا تتنافر أجزاؤه قول الأجرد الثقفي :

مَنْ كان ذا عَضُدٍ يدركْ ظلامته إنَّ الذليل الذي ليست له عَضُدُ
تنبو يداه إذا ما قلَّ ناصرُه ويأنف الضيم إن أثرى له عَدَدُ

وقول أبي حيّة النميري :

رمتْني وسِتْرُ الله بيني وبينها عشيّةَ آرام الكناس رميمُ
رميمُ التي قالت لجارات بيتها ضمنت لكم أنْ لا يزال يهيمُ
ألا ربَّ يومٍ لو رمتني رميتها ولكنَّ عهدي بالنضال قديمُ

الغرابة :

قال الجاحظ إن اللفظ كما لا ينبغي أن يكون عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلاّ أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي[٩١] . فالفصاحة لا تتفق مع الغريب لانه يقضي عليها ويحيل الكلام ألغازاً ويجعله بعيداً عن الفهم والادراك ، والمغربون هم مدخولون في عقولهم إذا كانوا من غير الأعراب ، فأبو علقمة النحوي مرّ ببعض طرق البصرة وهاجت به «مرّة» فوثب عليه قوم فاقبلوا يعضون إبهامه ويؤذنون في أذنه فأفلت منهم وقال: «مالكم تتكأكؤون عليَّ كما تتكأكؤون على ذي جنّة افرنقعوا عني»[٩٢] .
وقال الجاحظ بعد أن ذكر بعض الغريب : « فأن كانوا رووا الكلام لانه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة ، وان كانوا إنما دوّنوه في الكتب وتذاكروه في المجالس لانه غريب فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرماح وأشعار هذيل تأتي لهم مع حسن الرصف على اكثر من ذلك»[٩٣] ، ولذلك

(٩١) البيان ج١ ص١٤٤ .
(٩٢) البيان ج١ ص٣٧٩ . (٩٣) البيان ج١ ص٣٧٨ .

كانت الاستعانة بالغريب عجزاً ، وكانت دليلا على أن المتكلم أو الكاتب لايعرف أهمية الالفاظ وفصاحتها وايحاءها وصلة ما بينها وبين المعاني التي ينبغـي أن تكون الألفاظ مطابقة لها ، أو هي كما نقل الجاحظ عن صحيفة بشر بن المعتمر : « ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظاً كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله أن تكون أسـوأ حالا منك قبـل أن تلتمس إظهارهمـا وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما »[٩٤].

إن جمال الألفاظ وحسنهـا وصلتها بالمعاني مهمـة فـي الكلام البليغ ، والغرابة تفقدها ذلك الحسن والجمال ، وقـد نقل الجاحظ عن بعض الربانيين الراسخين فـي العلم ماتفعله الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فان المعنـى اذا اكتسى لفظاً حسنا وأعاره البليـغ مخرجا سهلا ومنحـه المتكلم دلا متعشقا صار فـي قلبك أحلـى ولصدرك أملا . والمعاني إذا كسيت الالفاظ الكريمة واكتسبت الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارهـا بقدر مازينت وحسب مازخرفت . فقـد صارت الألفاظ في معاني المعارض وصارت المعاني في معنى الجواري ، والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوي ومدخـل خـدع الشيطان خفـي »[٩٥]. فاللفظ الحسن عند الجاحظ هو ما لم يكن غريبا بل كان كريما في نفسه،قال:«ومتى كان اللفظ أيضاً كريما في نفسه متخيراً من جنسه وكان سليما من الفضـول وبريئا من التعقيد حبب الى النفوس واتصل بالاذهـان والتحم بالعقول وهشت اليه الأسماع وارتاحت له القلوب وخف على ألسن الرواة وشاع في الآفاق ذكره وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم ورياضة للمتعلم الريض »[٩٦] . ولذلك تشيع بعض الألفاظ ويستخفها الناس ؛ لانها فصيحـة جميلـة أو لأنها توحي

---

(٩٤) البيان والتبيين ج١ ص١٣٦ .
(٩٥) البيان ج١ ص٢٥٤ .
(٩٦) البيان ج٢ ص٨ .

بقرينتها وما يتصل بها من الالفاظ وما تعطيه مــن معان ، قال الجاحظ : « وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منهـا ، ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهــر • والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر لانك لاتجد القرآن يلفظ به إلاّ في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لايفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث • ولفظ القرآن الذي عليه نزل انه اذا ذكر الأبصار لم يقـل الأسماع ، واذا ذكر سبع سماوات لم يقل : الأرضين ألا تراه لايجمع الأرض ارضين ولا السمع أسماعا ، والجاري على أفواه العامة[97] غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال • وقـد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظة النكاح في القرآن إلاّ في موضع التزويج • والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ماهو أقـل استعمالاً وتدع ماهو أظهر وأكثر »[98] • ومعنى ذلك أن للالفاظ ايحاءً خاصا حينما تأتي في الكلام أو حينما تقرن بغيرها ولذلك تشيع كلمات وتهمل غيرها أو تتجنب لما فيها من ايحاء غير جميل • ومما يتصل بهذه المسألة ما ذكره الجاحظ من تنبيه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى اجتناب اضافة المؤمن الطاهر الى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه ، فقد روي عنه ــ عليه السلام ــ انه قال : «لايقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي »[99] • وذكر الجاحظ في باب « مايكره من الكلام »[100]

---

(٩٧) قال الجاحظ في البيان والتبيين جا ص١٣٧ : « واذا سمعتموني أذكر العوام فاني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة ولست أعني أيضا الاكراد في الجبـال وسكان الجزائر في البحـار ، ولست أعني من الأمم مثل الببر والطيلسان ومثل موقـان وجيلان ومثل الزنـج وأشباه الزنج ... وأما العـوام من أهل ملتنا ودعوتنـا ولغتنا وأدبنـا واخلاقنا فالطبقـة التي عقولهـا واخلاقهـا فـوق تلك الأمم ولـم يبلغـوا منزلة الخاصة منـا » •

(٩٨) البيان جا ص٢٠ •　　　(٩٩) الحيوان جا ص٣٣٥ •

(١٠٠) ينظر الحيوان جا ص٣٣٥ ــ ٣٤٣ •

كثيراً من الالفاظ التي يكره استعمالها في غير مواضعها ، ومن ذلك قول القائل « استأثر الله بفلان » والصحيح أن يقال : « مات فلان » ويقال في «استأثر»: « استأثر الله بعلم الغيب ، واستأثر الله بكذا وكذا » . وكانوا يكرهون أن يقال : « قراءة عبدالله » أو « قراءة سالم » أو قراءة « أُبيّ » أو « قراءة زيد » ويكرهون أن يقال : « سنةأبي بكر وعمر » . وكره ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قول القائل : « أسلمت في كذا وكذا » وقال : « ليس الاسلام إلاّ لله ــ عز وجل ــ » . وكره ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قول القائل : « الناس قد انصرفوا » يريد من الصلاة ، قال : « بل قولوا : قد قضوا الصلاة ، وقد فرغوا من الصلاة ، وقد صلوا ، لقوله : « ثم انصرفوا صرَفَ الله قلوبَهم »[101] .

وهذه الأمثلة التي ذكرها الجاحظ تدل على أن للالفاظ ايحاءً خاصاً واستعمالاً تحدده اللغة وأساليب التعبير ، وان لها سحراً يؤثر في النفوس كما تقدم من كلام بعض الربانيين من الأدباء وأهل المعرفة من البلغاء ، وكما جاء عن عمر بن الخطاب حينما حبس الأحنف بن قيس حولا تاماً وقال : « إنّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد كان خوّفنا كل منافق عليم وخفت أن تكون منهم » وذلك لما كان راعه من حسن منطقه ومال اليه لما رأى من رفقه وقلة تكلفه[102] . وقد قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إنّ من البيان لسحرا » ، وقال عمر بن عبدالعزيز لرجل أحسن في طلب حاجة وتأتى لها بكلام وجيز ومنطق حسن : « هذا ــ والله ــ السحر الحلال » .

ومن طريف ما تحدث عنه الجاحظ سلطان الحظ على الالفاظ ، قال : « وكما تحظى بعض الأشعار وبعض الأمثال وبعض الالفاظ دون غيرها ودون ما يجري مجراها أو يكون أرفع منها »[103] ولذلك تشيع ألفاظ بعينها ويتداولها

(١٠١) سورة التوبة ، الاية ١٢٧ ، وهي : « واذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بانهم قوم لايفقهون».
(١٠٢) البيان والتبيين ج١ ص٢٥٤ . (١٠٣) الحيوان ج٢ ص١٠٢ .

الأدباء أكثر من غيرها ، وقد يكون وراء ذلك سبب من الأسباب كخفتها أو دلالتها على المعاني الجديدة أو صلتها بالحضارة الى جانب ما أشار اليه الجاحظ وهو الحظ الذي يرانق الانسان .

التعقيد :

من شروط الكلام الفصيح أن يكون بعيداً عن التعقيد ، وقد نقل الجاحظ عن بشر بن المعتمر قوله: «إياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك»[(١٠٤)] ، وصارت هذه العبارة قاعدة سار عليها البلاغيون في فصاحة الكلام ، ولم يشرح الجاحظ التعقيد أو يذكر له أمثلة كما فعل في كثير من المسائل المتصلة بالالفاظ ، وقد يرجع ذلك الى أن الشعر لايزال في صفائه ورونق أساوبه ولم تدخل فيه التعمية التي أخذت تظهر بعد ذلك في الكلام .

الدلالــة :

للمعاني ألفاظ تدل عليها ، ولكن تلك الالفاظ لا تبقى محتفظة بمعانيها الأولى بل تنتقل الى غيرها وتكتسب صوراً جديدة لم تكن معروفة من قبل . وقد أدرك الجاحظ ذلك وعرف أن اللغة تتطور بتقدم الحياة ، وان اللغة التي يتحدث بها أهل زمان قد تختلف عما يتحدث به أهل زمان سابق أو لاحق . وكان للمعاني الجديدة أثر في هذا التطور ، فقد نقل عن الاصمعي قوله : « كان للعرب كلام على معان فاذا ابتذلت تلك المعاني لم يتكلم بذلك الكلام»[(١٠٥)]، ومن ذلك قول الناس : «ساق اليها صداقها»، وإنما كان هذا يقال حين كان الصداق إبلاً وغنما . وقال الجاحظ تعليقا على ذلك : « وفي قياس

(١٠٤) البيان والتبيين ج١ ص١٣٦ .
(١٠٥) البخلاء ص٢١٤ .

الأصمعي ان أصحاب التمر الذين كان التمر دياتهم ومهورهم كانوا لا يقولون : « ساق فلان صداقه » • قال : ومن ذلك قول الناس اليوم : « قد بنى فلان البارحة على أهله » وانما كان هذا القول لمن كان يضرب على أهله في تلك الليلة قبته وخيمته وذلك هو بناؤه » •

وكان لنزول القرآن الكريم أثر كبير في تطور الدلالة ، فقد تركت ألفاظ كانت مستعملة في الجاهلية ومن ذلك تسميتهم للخراج « أتاوة » وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان « الحملان والمكس » • كما تركوا « أنعم صباحا » و « انعم ظلاما » وصاروا يقولون : « كيف أصبحتم ؟ » و « كيف أمسيتم ؟ » وتركوا أن يقال للملك أو السيد المطاع : « أبيت اللعن » وترك العبد أن يقول لسيده : « ربي » كما يقال : «رب الدار » و « رب البيت ».• وتركوا أن يقولوا لقوّام الملوك : « السدنة » وقالوا : « الحجبة » ، وتركوا « غلامة » و « المرباع » و « النشيطة » وبقي « الصفايا »[١٠٦] • واستحدثت أسماء لم تكن ، وقد اشتقت من أسماء متقدمة عى التشبيه من ذلك قولهم لمن أدرك الجاهلية والاسلام « مخضرم » ، ومن ذلك اسم « منافق » لمن راءى بالاسلام واستسرّ بالكفر و « المشرك » و « الكافر » و » الفاسق « و « التيمّم » و « القرآن » و « الفرقان »[١٠٧]• ومن ذلك قولهم في الاسلام لمن لم يحج « صرورة » ولم يكن ذلك معناها في الجاهلية ، فالصرورة عندهم « كان أرفع الناس في مراتب العبادة ، وهو اليوم اسم للذي لم يحج اما لعجز وإما لتضييع واما لانكار ، فهما مختلفان كما ترى »[١٠٨] •

---

(١٠٦) المرباع : ربع جميع الغنيمة الذي كان خالصا للرئيس وصار في الاسلام الخمس. النشيطة : كان للرئيس ان ينشط عند قسمة المتاع العلق النفيس يراه اذا استحلاه، وبقي الصفي، وكان لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كل مغنم ، وهو كالسيف اللهذم والفرس العتيق والدرع الحصينة والشيء النادر (ينظر الحيوان ح١ ص٣٢٧) •

(١٠٧) الحيوان ج١ ص٣٣٠ •

(١٠٨) الحيوان ج١ ص٣٤٧ •

لقد نزل القرآن الكريم بألفاظ ذات دلالات جديـدة ، وليس ذلك غريبا فقد تغيرت كثير من قيم العرب وجاءت قيم جديدة ، وكان لابدّ من التعبير عن هذه القيم والمعاني ، وكان نزول القرآن اكبر دافع الى تطـور اللغة وقـد قال الجاحظ وهو يتحدث عن الفاظ كتاب الله : « فاذا كانت العرب يشتقون كلاما من كلامهم وأسماء من أسمائهم ، واللغة عارية في أيديهم ممن خلقهم ومكنهم وألهمهم وعلمهم ، وكان ذلك منهم صوابا عند جميع الناس فالذي أعارهم هذه النعمة أحق بالاشتقاق وأوجب طاعة . وكما انه له أن يبتدىء الاسماء فكذلك له أن يبتدئها مما أحب ، قد سمّى كتابه المنزل « قرآنا » وهذا الاسم لم يكن قد كان »[109] . وقال : « واذا كان للنابغة أن يبتدىء الاسماء على الاشتقاق من أصل اللغة كقوله :

إلا" الأواريّ لأياً مـا أبيّنها والنؤي كالحوض بالمظلومـة الجلد

وحتى اجتمعت العرب على تصويبه وعلى اتباع أثره وعلى أنها لغة عربية ، فالله الذي له أصل اللغة أحـق بذلك »[110] وأصبحت كلمات كثيرة مصطلحات جديدة اقتضتها نهضـة العرب العلميـة ، ومـن ذلك مصطلحـات المتكلمين والعروضيين والنحاة قال الجاحظ عن المتكلمين : « وهـم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفا لكـل خلف وقدوة لكل تابع ، ولذلك قالوا : العرض والجوهر وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشي وذكـروا الهذيّة والهويه والماهية[111] وأشبـاه ذلك » . وقال عن العروضيين : « وكما وضع الخليل بن احمد لأوزان القصيد وقصـار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الالقاب وتلك الاوزان بتلك الاسماء ، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك ،

---

(١٠٩) الحيوان ج١ ص٣٤٨ .

(١١٠) الحيوان ج٥ ص٢٨٠ . (١١١) نسبة الى : هذا ، هو ، ماهو .

وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف ، وقد ذكرت العرب في أشعارها السناد والاقواء والاكفاء ولم أسمع بالايطاء ، وقالوا في القصيد والرجز والسجع والخطب وذكروا حروف الروي والقوافي وقالوا : هذا بيت وهذا مصراع » ، وقال عن النحاة : «وكما سمّى النحويون فذكروا الحال والظروف وما أشبه ذلك لانهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو ، وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم » .(١١٢)

لقد أدرك الجاحظ بسعة علمه وصدق حسه أن الالفاظ تنتقل من معنى الى آخر ، وان المعاني الجديدة تغير كثيراً من دلالة الالفاظ ، ولو نظر الباحث الى معاني هذه الكلمات وغيرها لوجدها تختلف اختلافاً واضحا عما كانت عليه قبل أن تكون مصطلحات دينية أو كلامية أو عروضية أو نحوية أو علمية ، وهذه نظرة عميقة في فهم اللغة وما يطرأ عليها من تحوّل يقتضيه تطور الحياة ، ولو استعمل المتكلم أو الكاتب هذه الالفاظ بمعانيها القديمة لخرج عن الفصاحة وصار كلامه غير فصيح لانه لا يفهم منه المعنى الجديد أو ما تعارف عليه الناس في زمانه ، ولم يقف الأمر عند هذا التطور وانما دخلت اللغة العربية ألفاظ أجنبية ، وهذا أمر طبيعي بعد أن اتصل العرب بالاقوام المختلفة وامتزجت المجتمعات العربية والاسلامية ، وقد حصل شيء من ذلك قبل الاسلام ، قال الجاحظ : « إن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من قديم العهد علقوا بالفاظ من ألفاظهم ولذلك يسمون البطيخ : « الخربز » ويسمون السميط : « الرزدق » ويسمون المصوص : « المزور » ويسمون الشطرنج : « الأشترنج » في غير ذلك من الاسماء ، وكذلك أهل الكوفة فانهم يسمون المسحاة : « بال » و « بال » بالفارسية »(١١٣) ، ولكن اللغة العربية استطاعت

(١١٢) البيان والتبيين ج١ ص١٣٩ — ١٤٠ .

(١١٣) البيان والتبيين ج١ ص١٩ .

أن تجري كثيراً من الالفاظ الأجنبية مجرى العربية ، وهذا من خصائص اللغات الحية .

والتفت الجاحظ الى الالفاظ بحسب طبقات الناس ، ولذلك ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها ويجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً وعرف ان لكل طبقة من الناس ألفاظاً تديرها في كلامها ، فالكتاب يكثرون من الالفاظ الجميلة الموحية التي لا توغل في الغرابة ولا تسقط في الا بتذال ، وهم كما قال عنهم : « أما أنا فلم أرَ قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا مـن الالفاظ مالم يكـن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً »(١١٤) .

والمتكلمون يكثرون من الالفاظ الدالة على الجوهر والعرض والكون والفساد والتلاشي والليسية والأيسية ، قال الجاحظ : « فان رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ أن اكون مادمت في المعاني التي هي عبارتها ، والعادة فيها أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود وأدع التكلف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل إلاّ بعد الرياضة الطويلة ، وأرى أن ألفظ بالفاظ المتكلمين مادمت خائضاً في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام ، فان ذلك أفهم لهم عني وأخف لمؤونتهم عليّ » ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها فلم تلزق بصناعتهم إلاّ بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة . وقبيح بالمتكلم أن يفتقر الى الفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والتجار ، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته أو فـي حديث إذا تحدث أو خبره اذا أخبر . وكذلك فان من الخطأ أن يجلب الفاظ الاعراب وألفاظ العوام وهـو في صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل »(١١٥) . ولكن قـد تحسن بعض ألفاظ المتكلمين على وجه التظرف والتماجن كما جـاء في شعر أبـي نواس وغيره من ظرفاء ذلك الزمان .

وانتبه الجاحظ الى ما يستعمله الأديب في كلامه من الفاظ يديرها ويكثر منها ، وهو ما يسمى « لغة الكاتب » أو « لغة الشاعر » ، قال : « ولكـل قوم

(١١٤) البيان ج١ ص١٣٧ . (١١٥) الحيوان ج٣ ص٣٦٨ .

ألفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الارض وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر في الارض وصاحب كلام موزون ، فلابدّ من أن يكــون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها يديرها في كلامه وان كان واسـع العلم ، غزيـر المعاني ، كثير اللفظ »[116] .

المعاني :

وربـط بين الالفـاظ والمعانـي فقـال إن اللفظ مـن دلالات المعاني وهو الذي يصوّرهـا في النفوس وينقلها الى الآخريـن[117] . وقرن اللفظ بالمعنى فقال : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكـل نوع من المعاني نوع من الاسمـاء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصاح في موضـع الافصاح ، والكنايـة في موضـع الكناية ، والاسترسال في موضـع الاسترسال . واذا كـان موضـع الحديث على أنه مضحك ومله ، ودخل في باب المزاح والطيب فاستعملت فيه الاعراب انقلب عن جهته وان كانَ في لفظ سخف وابدلت السخافة بالجزالة صـار الحديث الذي وضع على أن يسـرّ النفوس يكربها وبأخذ بأكظامهـا »[118] . وقال : « انما الالفاظ على أقدار المعاني فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها ، وشريفها لشريفها ، وسخيفها لسخيفها ، والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ الى أقل ما تحتاج اليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسة »[119] .

لقد اهتم الجاحظ بالالفاظ اهتماما عظيماً وأولاهـا عناية كبيرة ودفعه ذلك الى أن يقول : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفهـا العجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، والمدنـي . وانما الشـأن في إقامة الـوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجـودة السبك ، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير »[120] . وظن بعض الباحثين انه يميل الى اللفظ كل الميل وانه لايرى للمعنى كبير أهمية ، ولعل موقفه من أبي

(116) الحيوان ج٣ ص٣٦٦ . (117) البيان والتبيين ج١ ص٧٦ .
(118) الحيوان ج٣ ص٣٩ ، وينظر البيان ج١ ص١٤٥ .
(119) الحيوان ج٦ ص٨ . (120) الحيوان ج٣ ص١٣١ — ١٣٢ .

عمرو الشيباني يشعر بانه من أنصار اللفظ ، فقد أعجب الشيباني بقول القائل :

لا تحسبنّ الموتَ مـوتَ البلى   فانمـا المـوت سؤالُ الرجـال

كلاهمـا مَـوْتٌ ولكـنّ ذا   أفظـعُ من ذاك لـذلّ السؤال

قال الجاحظ : « وأنا رأيت أبا عمـرو الشيباني وقد بلـغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يـوم الجمعة أنْ كلف رجـلاً حتى أحضره دواةً وقرطاساً حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتـين لا يقول شعراً أبداً ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً »[١٢١] ، والواقـع ان الجاحظ عُني باللفظ وأعطـاه نصيبه من الاهتمام وشغل بالمعنى والتصوير الذي قال عنـه : « فانما الشعر صناعـة وضرب من النسج وجنس من التصوير »[١٢٢] ، وكلامه في كتبه يؤكد أنه لم يهمل المعنى لان «مدار الأمر على فهم المعاني لا الالفاظ ، والحقائـق لا العبارات »[١٢٣] وان حكم المعاني « خلاف حكم الالفاظ ، لان المعاني مبسوطة الى غير غاية وممتدة الى غير نهاية ، وأسماء المعانـي متصورة معدودة ومحصلة محدودة »[١٢٣] ، وقال : « فاذا كان المعنـى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبـع بعيداً عن الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال مصونـاً عن التكلف صنع في القلـوب صنيع الغيث في التربة الكريمـة »[١٢٤] ، وقـال وهو يتكلم على ثمامـة بن أشرس : « وما علمت أنه كان في زمانه قرويٌ ولا بلديٌ كان بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف ، وله من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه ، وكان لفظه في وزن إشارته ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظـه الى سمعك بأسرع من معناه الى قلبك »[١٢٥] ، وقال : « ومتى شاكل ــ أبقاك الله ــ ذلك

---

(١٢١) الحيوان ج٣ ص١٣١ .
(١٢٢) الحيوان ج٥ ص٥٤٢ .
(١٢٣) البيان والتبيين ج١ ص٧٦ .
(١٢٤) البيان ج١ ص٨٣ .
(١٢٥) البيان والتبيين ج١ ص١١١ .

اللفظ معناه وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وفقا ولذلك القدر لِفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف كان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع »[١٣٦] .

هذه الأقوال الكثيرة تدل دلالة واضحة على أن الجاحظ لم يهمل المعنى وكيف يهمله وهو جوهر الكلام ؟ وكيف يميل عنه وهو المعتزلي الذي يعتمد في الاقناع على الفكرة والمعنى قبل اعتماده على الألفاظ ؟ وكيف يهمله وهو لم يفرق بين الفصاحة التي أصبحت وصفا للألفاظ والبلاغة التي صارت وصفا للمعاني قبل الألفاظ ؟ لقد كانت اللفظتان عنده بمعنى واحد وكان كثيراً ما يجمع بينهما ، قال في تعريف البلاغة : « وقال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه ودونّاه ـ لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك »[١٣٧] . وان المعاني والألفاظ تتحد لتخرج صورة تنتقل الى القراء والسامعين ، ومحال أن يكون اللفظ وحده مؤديا الهدف أو المعنى وحده محققا الغاية ، ولكن الجاحظ رأى ـ الى جانب اهتمامه بالمعنى ـ أنّ الصياغة مهمة في التعبير ، ولذلك كان من أصحاب الأساليب التي تعرض الفكرة عرضا واضحا وتعبر عنها تعبيرا دقيقا ، أو هو من أنصار النظم ، وقد فسّر اعجاز القرآن الكريم به وألف كتابا هو « نظم القرآن » وكان لهذا الاتجاه أثر في الدراسات البلاغية حينما أقام عبدالقاهر الجرجاني اعجاز القرآن على النظم .

الأثــر :

كان لجهود الجاحظ في الفصاحة أثر كبير في الدراسات البلاغية والنقدية ، وقد أخذ الدارسون يستقون منه مادة بحثهم ويحاولون أن يضعوا شروطاً لفصاحة اللفظة المفردة والألفاظ المؤلفة . وبدأت لفظة « الفصاحة » تأخذ

(١٣٦) البيان ج٢ ص٧ . (١٣٧) البيان ج١ ص١١٥ .

صورة علمية بعد أن كانت عامـة المعنى واسعة الدلالة ، وأخـذت تنفصل عن البلاغة التي اقترنت بها في بداية التأليف . والبحث في أثر الجاحظ متسع الجوانب ؛ لأنه لم يتـرك أديبا أو مؤلفا من غـير أن يؤثر فيـه ، وكان كتابه « البيان والتبيين » أحد الكتب الأربعة التي عدّت من أصول الأدب وأركانه ، قال ابن خلدون : « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النـوادر لأبي علي القالي البغدادي ، وما سوى هذه الأربعة فتَبَعٌ لها وفروع » عنها »[١٢٨] . وسيكون الوقوف على أهم البلاغيين والنقاد ولعل أول من نقل كلام الجاحظ وأمثلته في فصاحة الكلام أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ــ ٣٨٦هـ) فقـد وقف عند كلام الجاحظ من غير أن يذكره وذكـر البيت المشهور : « وقبرحرب ... » مثالاً للتنافر وأبيات أبي حيـة النميري : « رمتني وستر الله » مثالاً للتلاؤم[١٣١] . وكان أبو هلال العسكري (ــ ٣٩٥هـ) اكثر تأثراً به فقد نقل كثيراً من أقوال القدماء عنه ورتبها ترتيبا دقيقا لأن كتاب « البيان والتبيين » لم يُعْنَ بالمنهج الدقيق . قال أبو هلال : « وهو لعمري كثير الفوائد جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة والخطب الرائعة والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوتـه المستحسنة ، إلا أن الابانـة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائـه فهي ضالـة بين الأمثلة ولا توجد إلا بالتأمـل الطويل والتصفح الكثير »[١٣٠] . ودفعه هذا النقد الى أن يرتب موضوعات البلاغة ترتيبا دقيقا ويقسـم فنونها تقسيما طريفا ، وكانت الفصاحة من الموضوعات التي نالت اهتمامـه وبعد أبو

---

(١٢٨) مقدمة ابن خلدون ص٥٥٣ .

(١٢٩) النكت في اعجاز القرآن ص٨٧ ــ ٨٩ .

(١٣٠) كتاب الصناعتين ص٥ .

هلال من أوائل الذين ميزوا بينها وبين البلاغة ، قال : « وقـال بعض علمائنا : الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى- فصيحا إذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة ، ولا يجوز على الله ـــ تعالـى ـــ الوصف بالآلة ، ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمن من تمـام البيان • والدليـل على ذلك أن الألثغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف • وقيل : « زياد الاعجم » لنقصان آلة نطقـه عن إقامة الحروف وكـان يعبر عن الحمار بالهمار ، فهو أعجم وشعره فصيح لتمام بيانـه • فعلى هذا تكـون الفصاحة والبلاغة مختلفتين ، وذلك أن الفصاحة تمـام آلـة البيان فهـي مقصورة على اللفظ ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة انما هي انهاء المعنـى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى • ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ والبلاغة تتناول المعنى ان الببغاء يسمى فصيحا ولا يسمى بليغا ، إذ هـو مقيم الحروف وليس له قصد الى المعنى الذي يؤديه • وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحا بليغا إذا كان واضح المعنى سهل اللفظ جيد السبك غير مستكره فج ولا متكلف وخـم ولا يمنعه من أحد الا سمين شيء لما فيـه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف »[١٣١] • وكان ذلك إبانة عن موضوع الفصاحة والبلاغة ، أما الفصل الثاني من الباب الأول فقد كان في الابانة عن حد" البلاغة ولا يتضح أثر الجاحظ في هذين الفصلـين ، ولكن الفصـل الثالث من الباب نفسه كان عرضا لكثير من الأقوال والآراء التي ذكرهـا الجاحظ في « البيان والتبيين » وهذا يدل على انه فتح طريق البحث للنقاد والبلاغيين ووضع أمامهم المادة الأصيلة لابواب البلاغة وفصولها •

وعقد ابن سنان الخفاجي (ــ ٤٦٦هـ) في كتابه «سر الفصاحة» فصولاً ضافية تحدث فيها عـن صفات الحروف ومخارجهـا وفصاحة اللفظـة المفردة والالفاظ المؤلفة • والفصاحة عنده « الظهور والبيان »[١٣٢] والفرق بينها وبين

(١٣١) كتاب الصناعتين ص٧ ــ ٨ •
(١٣٢) سر الفصاحة ص٦٠ •

البلاغة « ان الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ والبلاغة لاتكون إلا وصفاً للالفاظ مع المعاني ، لا يقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وان قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً » . وذكر شروط اللفظة الفصيحة والالفاظ المؤلفة وكانت هذه الدراسة من أعمق الدراسات وأكثرها تفصيلا ، وكانت منطلق الآخرين كضياء الدين بن الاثير (ـ ٦٣٧هـ) الذي أطال الكلام على الفصاحة ونافش ابن سنان وأخذ بعض كلامه ورد بعضه[١٣٣] ، ودعا الى العناية بالالفاظ واختيار الجميل منها واطراح الوحشي العكر ، وكان يطرب للفظة الحسنة وتلذ له ، قال : « ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للالفاظ في الاذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار وصوتا منكراً كصوت حمار ، وان لها في الفم ايضا حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم »[١٣٤] .

ولكن هؤلاء لم يقفوا على فصاحة المتكلم كما وقف عليها الجاحظ ، لان الفصاحة والبلاغة لاتكون للمتكلم إلا على سبيل التوسع ، قال أبو هلال : « وتسميتنا المتكلم بانه بليغ توسع ، وحقيقته ان كلامه بليغ كما تقول : فلان رَجُل مُحكَم ، وتعني أن أفعاله محكمة ، قال الله تعالى : « حكمة بالغة »[١٣٥] فجعل البلاغة من صفة الحكمة ولم يجعلها من صفة الحكيم ، إلا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بانه بليغ كالحقيقة »[١٣٦] .

ولكن الخطيب القزويني (ـ ٧٣٩هـ) قال : إن الفصاحة والبلاغة تقع كل واحدة منهما صفة لمعنيين :

---

(١٣٣) ينظر المثل السائر ج١ ص١٤٢ وما بعدها .

(١٣٤) المثل السائر ج١ ص١٥٠ .

(١٣٥) سورة القمر ، الآية ٥ وهي : « حكمة بالغة فما تغني النذر » .

(١٣٦) كتاب الصناعتين ص٦ .

الأول : الكلام كما في « قصيدة فصيحة أو بليغـة » و « رسالة فصيحة أو بليغـة » .

الآخر : المتكلم كما في « شاعر فصيح أو بليـغ » و « كاتـب فصيح أو بليغ »[137] ، ولم يفصّل القول في المعنى الثاني ووقف عند تعريفـه فقال : « وأما فصاحة المتكلم فهـي ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصـود بلفظ فصيح »[138] ، ويفهم من شرحه لهذا التعريف ان الفصاحةهيئة راسخةفي المتكلم وأنها تشمل النطق وغيره ، وهو ما أراده الجاحظ حينما تحـدث عن الخطيب وهيئته وصفاته وأطال الكلام على الاسنان واللسان والعيـوب التي تعوق عن الفصاحة والنطق السليم .

ويبقى الجاحظ بعد ذلك منفرداً في دراسة هذه المسائل وإن بدأت تبتعد عن كتب البلاغة ، وكان مـا اهتم به وجعلـه من « البيـان » أخذه اللغويون وأداروه في كتبهم عند حديثهم عن الاصوات ومخارج الحروف ومـا يعتري اللسان من عيوب ، ولعـل انصراف الناس عن الخطابة واهتمامهـم بالكتابة والتأليف جعل البلاغيين والنقـاد يهتمون بما يُثَّر ويُعنون بالفكرة لا بمظهر المتحدث أو الخطيب وجهارة صوتهما وسلامة نطقهما للحروف . ولا يقلل هذا الانصراف من جهود الجاحظ ، فقد كـان رائداً في الدرس البلاغـي وكانت ملاحظاته وآراؤه معالم في الطريق وصوى اهتدى بها المؤلفون مع أنها توزعت في كتبه وانتشرت في رسائله ، ولم ينكر القدماء فضله كما لم يهمله المعاصرون بل كان من اكثر الذين نالـوا عناية كبيرة واهتمامـا عظيما فـي عالم البحث والتأليف .

تلك وقفة عند الفصاحة كما صوّرتها كتب الجاحظ ، وتلـك جهوده في مباحثها ، فما قيمة هذه الدراسة وما نفعها في هذا العصر ؟ هـل نكتفي بعرض التراث وتبيان جهود السابقين أو ننتفع بذلك الجهد ونضيف اليه ما يخدم اللغة

(137) الايضاح ص2 . (138) الايضاح ص9 .

العربية وبطورها لتكون اكثر قدرة على استيعاب العصر ورسم المستقبل ؟ إن الاهتمام بالتــراث يعني كشفه وتقويمه والأخــذ بما يفيد ، وقــد كانت هذه الدراسة كشفا عن جهود الجاحظ في الفصاحة وتبيانا لموقفه في كثير من المسائل التي تخص المتكلم والكلام ، وقبل وضع هذه الجهود في صورتهــا المعاصرة لابدّ من تلخيص مــا سبق لتتضح الأبعاد وتتكشف الأهداف ، لقــد تحدث الجاحظ عن :

١ ـ الأصوات وتأثيرهــا في النفوس وقدرة الانســان على تقليد الاصوات المختلفة ؛ لان جهاز نطقه قادر على اخراج الأصوات الكثيرة .

٢ ـ بعض أعضاء النطق كالاسنان واللسان والشفتين وما يعتريها مــن عيوب كالهتم وسقوط الاسنان كلها واللثغــة والتمتمة والفأفأة واللفف والرتة والحبْسة والعقلة واللكنة .

٣ ـ العي والحصر وما يصيب المتحدث أو الخطيب أو المجــادل حينما يعيا أو يحصر فتذهب روعة كلامه إن كان بليغا وتسقط هيبته بين الناس .

٤ ـ الخصائص الصوتية للغة العربية والحروف الكثيرة الدوران فيها وأنساتها .

٥ ـ اللحن وما يترك في نفس السامع من أثر سيء .

٦ ـ تنافر الالفاظ .

٧ ـ الغرابة والتعقيد .

٨ ـ دلالة الالفاظ على المعاني وتطورها وأثر الاسلام في تغير المعاني أو وضع ألفاظ ومصطلحات تطلبتها النهضة العلمية والحضارة العربية الاسلامية .

ويتضح ان الجاحظ جال في رحاب واسعة وهذه الرحاب يُفضي بعضها الى علم اللغة ويوصل بعضها الى علــم البلاغة ، وكــلا السبيلين مهمــان في الدراسات الحديثة . إن معظــم ما تحــدث عنه يدخل اليــوم في علم اللغة ، فالاصوات ومخارج الحروف وعيوب النطق مما تعرض له الدراسات الحديثة

وتعنى به ، بل ان هذه الدراسات طغت على ما عرف من فقه اللغة والصرف والنحو وغيرها من علوم اللغة عند القدماء . وفيما ذكر الجاحظ زاد للباحثين؛ لان معظم آرائه وما نقله عن الآخرين يثبت أمام البحث العلمي الجديد ، وبذلك يظل الجاحظ حياً وإن بَعُدَ به الزمان . وليس هذا وحده ماينفع الدارسين وانما للدراسات التربوية نصيب من تراث الجاحظ فلا تزال المدارس وستبقى تعنى بنطق الأطفال وكلامهم وتعالج عيوب ألسنتهم وتصلح منها وتدفع الفصحاء الى التحدث بطلاقة وتشجعهم على الخطابة باقتدار . وكم في النطق الصحيح والكلام الفصيح من أثر في النفوس . ودراسة الجاحظ للكنة تكشف عن الحروف التي يقع فيها هذا العيب وتبيّن لحن الرومي والفارسي والنبطي والزنجي وهي نافعة في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها لانها تضع أمام المعنيين الحقائق الواضحة وتنبههم الى العناية بكل جنس من هذه الاجناس وتعويد المتعلمين النطق السليم والابتعاد عن اللكنة التي قد تأتي من طبيعة اللغة التي نشأوا عليها . ودلالة الالفاظ من الدراسات المهمة التي عني بها الجاحظ؛ لانها تبين نشأة الالفاظ وتطور معانيها وترصد العوامل التي تؤثر فيها . وكتب « البيان والتبيين » و « الحيوان » و البخلاء » معجم غير مصنف ولو هُيِّيء لهذه الكتب أن تجرد ألفاظها وتصنف لكان للعربية معجم تأريخي يصور واقع الفكر العربي والحضارة الاسلامية حتى القرن الثالث للهجرة ويكشف عن النقلة الكبيرة التي شهدها العصر العباسي الأول ، وقد كان الجاحظ أحد أقطاب هذا العصر الذين تفاعلوا معه .

وتأتي دراسة الجاحظ للحروف واتساقها شاهداً على أصالة اللغة العربية فقد أدرك بحسه اللغوي وثقافته الواسعة ارتباط الحروف في الكلمة الواحدة وما يوحي من فصاحة أو عجمة . وبعدّ ماذكره أساساً للغويين الذين جاءوا من بعده كابن جني (ــ ٣٩٢هـ) الذي قال : « أما إهمال ما أهمل مما تحتمله قسمة التركيب وبعض الاصول المتصورة أو المستعملة فأكثره متروك للاستثقال ، وبقيته ملحقة به ومقفاة على أثره . فمن ذلك مارفض استعماله

لتقارب حروفه نحو سص وطس ، وظث وثظ ، وضش وشض . وهذا حديث واضح لنفور الحس عنه والمشقة على النفس لتكلفه . وكذلك نحو قج وجق، وكق وقك، وكج وجك . وكذلك حروف الحلق هي من الائتلاف أبعد لتقارب مخارجها عن معظم الحروف اعني حروف الفم »[139] . وكأبي ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفارابي[140] الذي قال : « الجبت صنم ويقال ان الجبت هو حيي بن أخطب . وهذا ليس من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء في كلمة من غير حرف ذولقي »[141] . وكانوا يعرفون أصالة الكلمة من حروفها[142] ، وقد أفادهم ذلك في ارجاع الالفاظ الى أصولها ، ونعمهم في التعريب الذي كان من أهم معالم الحضارة العربية بعد ظهور الاسلام . والقاعدة التي وضعها الجاحظ وغيره من اللغويين تنفع في عملية التعريب التي تخوضها الأمة العربية في هذه الأيام لانها تحدد طبيعة اللغة العربية وتضبط حروفها ، وان الأخذ بها يجنب العاملين في حقل التعريب كثيراً من المزالق ويصون اللغة من العجمة والاصوات الغريبة ويقيها من التنافر الذي لاتقبله الأذن ولا يستسيغه الذوق العربي .

أما ما يدخل في الدراسات البلاغية فشيء كثير ، منه فصاحة اللفظة المفردة والالفاظ المؤلفة وما يتصل بها من وضوح أو غرابة ، ورقة او خشونة ، وما يرتبط بها من ايحاء جميل أو قبيح ، ومن استحسان او استهجان . وكل ذلك مهم في الدراسات البلاغية والنقدية الحديثة لانها تمثل اللغة العربية وخصائصها وتصور حياتها المتطورة . وليس هذا وحده ماقدمه الجاحظ فهناك مصطلحات علم اللغة والفصاحة وما يتصل بهما ، وقد كانت هذه

(139) الخصائص ج1 ص54 .

(140) اختلف في وفاته فمن قائل انه مات سنة 398هـ ، ومن قائل انه مات قبل ذلك بكثير . (تنظر مقدمة ديوان الادب ج1 ص3) .

(141) ديوان الادب ج1 ص177 — 178 .

(142) ينظر المزهر ج1 ص268 ومابعدها .

المصطلحات الأساس الذي بنى عليه القدماء دراساتهم ، وهـي كذلك في هذا العصر ، فلا تزال كتب اللغة والبلاغة والنقد تستعمل ماتقله الجاحظ او ابتدعه، وستظل كذلك مادامت اللغة العربية ومادامت أمة العرب .

إن دراسة جهود الجاحظ في الفصاحة لم تكن تأريخا يعرض ماضي الأمة وتراثها ، وانما هي حاضر ينبض بالحياة ومستقبل يزهـر بالأمل ، وهكذا كان التراث ماضيا مشرقا وحاضرا زاهرا ومستقبلا باهرا ، ومن غير هذه النظرة لن نفهم الماضي ، ولن نـدرك الحاضـر ، ونستشرف المستقبل ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين .

المصـــادر :

١ ـ الايضاح ـ الخطيب القزويني . تحقيق لجنة مـن اساتذة اللغـة العربية بالجامع الازهر . القاهرة .

٢ ـ البخلاء ـ ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق الدكتور طه الحاجري. القاهرة ١٩٦٣م .

٣ ـ البيان والتبيين ـ ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق عبـدالسلام محمد هارون . القاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م .

٤ ـ الحيوان ـ ابو عثمان عمـرو بن بحـر الجاحظ .تحقيق عبدالسلام محمد هارون القاهرة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٨م .

٥ ـ الخصائص ـ أبو الفتح عثمان بن جني . تحقيق محمد علي النجار . القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .

٦ ـ ديوان الادب ـ ابو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفارابي . تحقيـق الدكتور احمد مختار عمر . القاهرة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

٧ ـ سر الفصاحـة ـ ابن سنان الخفاجـي . تحقيـق عبدالمتعال الصعيدي . القاهرة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م .

٨ ـ كتاب الصناعتين ـ ابو هلال العسكري . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .

٩ ـ لسان العرب ـ ابن منظور .

١٠ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الاثير . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م .

١١ ـ المزهر في علوم اللغة ـ عبدالرحمن جلال الدين السيوطي . تحقيق محمد احمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي . الطبعة الثالثة ـ القاهرة .

١٢ ـ مقدمة ابن خلدون ـ عبدالرحمن بن خلدون . دار الكشاف ـ بيروت .

١٣ ـ النكت في اعجاز القرآن . أبو الحسن علي بن عيسى الرماني . تحقيق محمد خلف الله احمد ومحمد زغلول سلام . (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) دار المعارف ـ القاهرة .

١٤ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد الجزري . تحقيق طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي القاهرة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م .

* * *

(٣)

الأســـاليب البلاغيـــة

المنهـــج :

الأساليب البلاغيــة هي الخبــر والانشاء ، وأحـــوال الجملة كالتعريف والتنكير ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر ، والفصل والوصل، والايجاز والاطناب والمساواة ، والخـــروج على مقتضى الظاهر كوضع المضمر موضع المظهر ، ووضع المظهر موضع المضمـــر ، والقلب ، والاسلوب الحكيم ، والالتفات .

وقد درس النحاة اكثرهـا في أبواب كتبهم ، وبحثهـا البلاغيون في علم المعاني وهو « تتبـــع خواص تراكيب الكلام في الافـــادة وما يتصـــل بها من الاستحســان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكـــلام على ما يقتضي الحال ذكره »[1] . وشرح السكاكي هذا التعريف بقولـــه : « وأعني بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفـــة وهي تراكيب البلغاء لا الصـــادرة عمن سواهم لنزولها في صناعـــة البلاغة منزلـــة أصوات حيوانات تصدر عن محالها بحسب ما يتفق . وأعني بخاصية التركيب ما يسبق منه الى الفهم عند سماع ذلك التركيب جاريا مجرى اللازم له لكونه صادراً عن البليـــغ لا لنفس ذلك التركيب مـــن حيث هو هو أو لازماً لـــه لما هو حينا . وأعني بالفهم فهم ذوي الفطرة السليمة مثل ما يسبق الى فهمك من تركيب « إن

---

* القي علـى المشرفين التربويين فـــي معهد تطوير اللغة العربيـــة في ايلول سنة ١٩٨١ .

(١) مفتاح العلوم ص٧٧

زيداً منطلق » إذا سمعته عن العارف بصياغة الكلام من أن يكـون مقصوداً به نفي الشك أورد ّ الانكار ، أو من تركيب « زيد منطلق » من أنـه يلزم مجرد القصد الى الاخبار ، أو من نحو « منطلق » بترك المسند اليه من انـه يلزم ان يكون المطلوب به وجه الاختصار مع إفادة لطيفه مما يلوح بها مقامهـا ، وكذا إذا لفظ بالمسند اليه . وهكذا إذا عـر ّف أو نكر أو قيّد أو اطلـق أو قدّم أو أخّر » . وتتضح في هذا النص عدة حقائق تتصل بعلم المعاني كمـا حدده السكاكي .

الاولى : أن الاصل في هذا العلم كلام البلغاء لا كلام عامة الناس .

الثانية : أن الاصل بالتركيب مـا يسبق منه الى الفهم عند سماعـه وأن يكون مرتبط بالمعنى ، أي أن المراد به المعنى الأول لا المعنى الثاني الذي هو من سمات علم البيان .

الثالثة : أن الأصل في الفهم ما عليه ذوو الفطـرة السليمة لامن في مداركهم نقص لا يؤهلهم لادراك الكلام البليغ .

الرابعة : إن السكاكي حدّد أهم موضوعات علم المعاني وهي الخبـر وأنواعه من ابتدائي وطلبي وإنكـاري ، وحذف المسند أو المسند اليه والتعريف والتنكير ، والتقييـد والاطلاق ، والتقديم والتأخـير ، وغـير ذلك من موضوعات أشار اليها بقوله : « على مـا يطلعك على جميـع ذلك شيئاً فشيئاً مساق الكلام في العلمين باذن الله تعالى » .

وقرر السكاكي ان كلام العرب شيئان : الخبر والطلب ، ولذلك قسم علم المعاني الى قانونين : الاول يتعلق بالخبر والثاني بالطلب . وقسم القانون الاول الى أربعة أقسام :

الاول : في تفصيل اعتبارات الاسناد الخبري ، وقد تكلم فيه على أنواع الخبر وأغراضه ومؤكداته وخروجه على مقتضى الظاهر .

الثاني : في تفصيل اعتبارات المسند اليه وقد تكلم فيه على حـذف المسند اليه وذكره وتعريفه واضماره وكونه علما وتأكيد المسند اليه وبيانه وتقييده

وتأخيره وقصره وخروجه على مقتضى الظاهر والالتفات .

الثالث : في تفصيل اعتبارات المسند ، وقد تكلم فيه على حذف المسند وذكره وتقييده وتأخيره وتقديمه والحالات المقتضية لتقييد الفعل .

الرابع : في تفصيل اعتبارات الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب . وبعد أن انتهى من هذا الفن عقد للقصْر فصلا خاصا ، لأنه أرجأ بحثه الى هذا المكان من كتابه « مفتاح العلوم » . وقسم القانون الثاني الى خمسة ابواب هي : التمني ، والاستفهام ، والإمر والنهي ، والنداء . وتكلم بعد ذلك على وضع الخبر موضع الطلب ، ووضع الطلب موضع الخبر ، وأسلوب الحكيم .

لقد بحث السكاكي علم المعاني بهذا المنهج ورتب موضوعاته هذا الترتيب ، ويلاحظ انه قدّم الخبر مع أن كثيراً من الموضوعات التي بحثها فيه لا تخص الخبر وحده وانما هي مشتركة بينه وبين الطلب . وعلل التفتازاني ذلك بقوله : « وانما ابتدأ بابحاث الخبر لكونه أعظم شأنا وأعم فائدة ، لانه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة وفيه تقع الصياغات العجيبة ، وبه تقع غالبا المزايا التي بها التفاضل ولكونه أصلاً في الكلام؛ لان الانشاء انما يحصل منه باشتقاق كالأمر والنهي أو نقل كـ « بئس » و « نعم » و « بعت » و « اشتريت » أو زيادة أداة كالاستفهام والتمني وما أشبه ذلك . ثم قدّم بحث أحوال الاسناد على أحوال المسند اليه والمسند مع أن النسبة متأخرة عن الطرفين ؛ لان علم المعاني انما يبحث عن أحوال اللفظ الموصوف بكونه مسندا اليه ومسندا . وهذا الوصف إنما يتحقق بعد تحقق الاسناد لانه مالم يسند أحد الطرفين الى الآخر لم يصر أحدهما مسندا اليه والآخر مسنداً ، والمتقدم على النسبة إنما هو ذات الطرفين ولا بحث لنا عنها »[٢] .

ومهما حاول انصار هذا المنهج أن يدعموه بالبراهين العقلية فان البلاغة التي يقاس بها الكلام ويحكم على حسنه وروعته لا يمكن أن يعلل منهج بحثها

(٢) المطول ص٤٣ .

هذا التعليل وان يصطنع لها هـــذا المنهج اصطناعا يبعدها عـــن روحها الفنية .
ولكن هل نجح السكاكي في هذا المنهج ؟ هـل حصر موضوعات علم المعاني حصراً دقيقا ؟ الواقع انه لم ينجح في هذا التقسيم الذي بناه على المنطق فحصر به موضوعات علم المعاني حصراً مزّق به أوصالها تمزيقاً أفقدها كل روح وباعد بينها وبين مايتطلبه الفن الأدبي الذي ينبغي أن يعتمـــد ـــ أول مايعتمد ـــ على الذوق . ولتوضيح ذلك نقول انـــه قســم مباحث هذا العلــم بحسب ركني الجملة ـــ المسند اليه والمسند ـــ وعلى هذا الأساس ذكر التقديم ـــ مثلا ـــ في المسند اليه تارة وفي المسند تارة أخرى ، وفعل مثل ذلك بالتأخير ، والحذف ، والذكر ، والتعريف والتنكير . وكان من الدقة أن يبحث كل موضوع في فصل ليجمع اجــزاءه ويستوفي أصوله وأركانــه وبذلك يتســق المنهـــج وتتضح الاهداف . ومقارنة عامة بين ماكتبه السكاكي في هذه الموضوعـــات وما كتبه عبد القاهر الجرجاني وضياء الدين بن الاثير توضح مـــدى جور السكاكي على هذه المباحث ، فبعد أن كـــان الدارس يقرأ في « دلائل الاعجـــاز » أو « المثل السائر » موضوعات فيها متعة وتحليل ، وجَمْعٌ لاجزاء الموضـــوع الواحد ، صار يقرأ في « مفتاح العلوم » موضوعـــات تفرقت اجزاؤها وتناثرت في عدة أبواب لايخرج منها القاريء إلا بصور حائلة وقواعد جامدة وقد يلجأ ليكوّن فكرة واضحة الى أن يلم شتات الموضوع الواحد ويضم بعضها الى بعض وفي ذلك اضاعة للجهد وإفساد للبلاغة .

وبَحْثُ خروج الكلام عن مقتضى الظاهر كوضع المضمر موضع المظهر ووضع المظهر موضع المضمر والالتفات في المسند والمسند اليه ليس دقيقاً لانّ هذه الموضوعات ليســت خاصـــة بواحد منهما وانمـــا تدخلهما . وقـــد أشار السكاكي الى ذلك فقال : « واعلم أنّ هذا النـــوع ـــ أعني نقل الكـــلام عن الحكاية الى الغيبة ـــ لا يختص المسند اليه »[٣] . وكان عليـــه أن يبحث كل

(٣) مفتاح العلوم ص٩٥ .

موضوع من هـذه الموضوعـات في فصل واحـد لا في مبحثين هما المسند والمسند اليه .

وتكلم على استعمال المضارع مكان الماضي في الحالات المقتضية لتقييد الفعل بالشرط مع ان الاخبار عن الفعل الماضي بالمضارع أو المستقبل نوع من الالتفات كما صرّح به بعض البلاغيين كابن الاثير الـذي قسم الالتفات الى ثلاثة أقسام : قسم في الرجوع عن الغيبة الى الخطاب وعن الخطاب الى الغيبة ، وقسم في الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمـر وعن الفعـل الماضي الى الأمر ، وقسم في الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي[4] .
وعقد السكاكي فصلا للفعل وما يتعلق به من ترك واثبات ، واظهار واضمار ، وتقديم وتأخير ، مع ان الفعل مسند وكان عليه أن يبحثه في باب المسند ويذكر انه يأتي فعلا كما يأتي اسما وجملة . ولكننا في هذا الصدد لابدّ من أن نحمد له تنبهه الى اشتراك كثير من المباحث التي ذكرها في المسند اليه ، فقد قرر وهو يتكلم على الحالة المقتضية لقصر المسند اليه على المسند أن القصـر لا يختص بالمسند اليـه وانما يدخـل المسند ايضا ويجري بـين الفاعل والمفعـول وبين المفعولين ، وبين الحال وذي الحال وبين كل طرفين ، قال : « واعلـم ان القصر كمـا يكـون للمسنـد اليـه على المسنـد يكـون أيضـا للمسنـد على المسنـد اليـه ، ثـم هـو ليـس مختصا بهـذا البيـن بـل لـه شيوع وله تفريعـات فالأولى أن نفرد لذلك الكـلام في ذلك فصـلا ونؤخره الـى تمام التعرض لما سواه في قانوننا هذا ليكون الى الوقوف عليه أقرب »[5] . وصنع مثـل ذلـك في بحـث الايجـاز والاطنـاب ، والفصـل والوصـل ، والتعريف والتنكير ، والقصر ، فـي القانون الأول أي باب الخبر ، وليس في ذلك دقة لان هذه الموضوعات تدخل الطلب أيضا . وقـد أشار المتقدمون الى تلك فقال عبدالقاهر : « انه لايجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه في

---

(٤) المثل السائر ج ٢ص ٤ – ١٩ .
(٥) مفتاح العلوم ص٩٤ .

الاستفهام معنى لايكون له ذلك المعنى في الخبر ، وذلك ان الاستفهام استخبار، والاستخبار هو طلب مـن المخاطب أن يخبرك فاذا كان كذلك كان محالاً أن يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام فيكون المعنـى إذا قلت : « أزيد قائم ؟ » غيره إذا قلت : « أقـام زيد ؟ » ثم لايكون هـذا الافتراق في الخبر ، ويكون قولك : « أزيـد قال ؟ » و « قام زيـد » سـواء ذلك ، لانه يؤدي الى أن تستعلمه أمـراً لاسبيل فيه الى جواب أو أن تستثبته المعنى على وجه ليس عنده عبارة يثبته لك بها على ذلك الوجه »[٦] . وقـال : « وإذ قد عرفت الحكم في الابتداء بالنكرة في الاستفهام فابْنِ الخبر عليه »[٧] .

وكان تقسيم السكاكي لعلم المعاني أساساً في دراسة هذا العلم ، وقد قال الخطيب القزوينـي في تعريفـه : « هو علم يُعرف به أحـوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال »[٨] ، وقال : وقيـل : « يعرف » دون « يعلم » رعاية لما اعتبره بعض الفضلاء من تخصيص العلم بالكليات والمعرفة بالجزئيات كما قال صاحب القانون[٩] في تعريف الطب : « الطب علـم يعرف به أحوال بدن الانسان » ، وكما قـال الشيخ أبو عمر[١٠] ـ رحمه الله ـ : « التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم » ، وذكر تعـريف السكاكي وقال : « وفيه نظر إذ التتبع ليس بعلم ولا صادق عليه فلا يصح تعريف شيء من العلوم به » ، ثم قال : « وأعني بالتراكيب تراكيب البلغاء » ، ولا شك ان معرفة البليغ من حيث هو بليغ متوقفة على معرفـة البلاغة وقـد عرفها في كتابـه بقوله : « البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حداً له اختصاص بتوفيـة خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » ، فان أراد

---

(٦) دلائل الاعجاز ص١٠٨ .

(٧) دلائل الاعجاز ص١٠٩ .

(٨) الايضاح ص١٢ ، التلخيص ص٣٧ .

(٩) هو ابن سينا .

(١٠) هو ابن الحاجب صاحب الكافية في النحو والشافية في الصرف .

بالتراكيب في حد البلاغة تراكيب البلغاء ، وهو الظاهر ـ فقد جاء الدور ، وان أراد غيرها فلم يبينها ، على أن قولــه « وغيره » مبهــم لم يبين مراده به » • وتعريف السكاكي اكثر دقة وشمولا ، لانــه عرض كل ما يتصل بعلــم المعاني وحدد أبعاده تحديداً واضحا وان كان فيه شيء من صرامة وثبوت •

وحصر القزويني هذا العلم في ثمانية أبواب :

الأول : أحوال الاسناد الخبري •

الثاني : أحوال المسند اليه •

الثالث : أحوال المسند •

الرابع : أحوال متعلقات الفعل •

الخامس : القصر •

السادس : الانشاء •

السابع : الفصل والوصل •

الثامن : الايجاز والاطناب والمساواة •

ووجه الحصــر ان الكلام إما خبر أو إنشاء ، لانــه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لاتطابقــه ، أو لا يكون لها خــارج • الأول الخبــر والثاني الانشاء • ثم الخبر لابدّ لــه من اسناد ومسند اليــه ومسند ، وأحوال هذه الثلاثة هي الأبواب الثلاثة الاولى • ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو متصلا به أو في معناه كاســم الفاعل ونحــوه ، وهذا هــو الباب الرابع ثم الاسناد والتعلق كل واحــد منهمــا يكون إمــا بقصر أو بغــير قصر وهذا هو الباب الخامس • والانشاء هو الباب السادس • ثم الجملة إذا قرنت باخرى فتكون الثانية إما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة وهذا هو الباب السابع • ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد عليه وهذا هو الباب الثامن •

وهذا المنهج يختلف قليلاً عن منهج السكاكي وهو أقرب الى الدقة ، لان القزويني ضمّ الموضوعات المتشابهة في فصول مستقلة وكان في بحثه ألصق بالبلاغة وروحها من صاحب « مفتاح العلوم » الذي مزّقها كل ممزق . ولكن هذا المنهج لا يجمع الأجزاء ويوحّد الابواب كل التوحيد ، أي انه ظل قريبا من منهج السكاكي الذي سيطر على البلاغيين وظلت كتبهم تقسم علم المعاني هذا التقسيم ولم يخرج عنه معظم المتأخرين والمحدثين . وحاول المرحوم أمين الخولي أن يضع منهجا جديداً للبلاغة في كتابه « فن القول »[11] وكانت مباحث علم المعاني من الموضوعات التي مسّها ذلك المنهج ، وقد أدخل النكرة والمعرفة في باب الكلمة من حيث هي جزء الجملة ، واتبع ذلك الالتفات وأنواع المعارف والقصر والتوسع والتغليب والتعبير عن المثنى بالواحد وما الى ذلك مما ذكره البلاغيون في الخروج على مقتضى الظاهر . وأدخل في الباب نفسه الاستفهام والنداء والنهي وما تؤديه أدواتها من المعاني وراء الطلب ، وألحق بها صيغ الأمر والاخبار والانشاء ودلالة إحداهما على الأخرى وأثر تبادلها في الاستعمال . وتحدث في النظم أو تأليف الجمل عن التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، وتكلم في الجملة عن ربط جزأي الجملة بالاسناد ، والتوكيد ، والقصر بالادوات « انما » و « ما » و « إلا » وادخال أدوات الشرط على الجملة وأثره ، والايجاز والاطناب . وذكر في باب الفقرة الفصل والوصل وايجاز الفقرة واطنابها . وهذا التوزيع لمباحث علم المعاني أغرب من توزيع السكاكي والقزويني ، فقد فرقها الخولي وباعد بينها ، فكان بعضها في الوضع اللغوي للكلمة من حيث هي جزء الجملة ، أو من حيث الاستعمال . وكان بعضها في النظم أو تأليف الجمل وبعضها في الجملة والفقرة . ولولا توزع هذه المباحث في الكتب القديمة لكان منهج السكاكي والقزويني أقرب من المنهج الذي رسمه الخولي .

(11) ينظر فن القول ص٢١٦ وما بعدها .

إن وضع منهج جديد لعلم المعاني لايزال بعيداً عن المنال ولكن النظر في كتب المتأخرين يوحي بمنهج أقرب الى البلاغة من المنهــج القديم الذي مزّق أوصال البحث الواحد • ونرى أن يضم علم المعاني الأبواب الآتية :

الاول : علم المعاني وصلته بنظرية النظم التي أولاها عبد القاهر أهمية كبيرة •

الثاني : الخبر والانشاء وما يتصل بهما من أساليب وخروج على المعنى الحقيقي•

الثالث : أحوال الجملة ، ويضم تعريفها والفرق بين الجملــة الاسمية والجملة الفعلية، والتعريف والتنكير ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر •

الرابع : الفصل والوصل •

الخامس : الايجاز والاطناب والمساواة •

السادس : الخروج على مقتضى الظاهر مثل وضع المضمر موضع المظهر ووضع المظهر موضع المضمر ، وأسباب الخروج ، والقلب ، والاسلوب الحكيم ، والتغليب ، والالتفات ، وغيرها من الموضوعات الاخـرى كالانتقال من خطاب الواحد الى خطاب الاثنين ، والانتقال مــن خطاب الواحـــد الى خطاب الجمع ، والانتقال من الاثنين الى الواحـــد ، والانتقال من الاثنين الى الجمع ، والانتقــال من الجمع الى الواحـــد والانتقـــال من الجمع الى التثنية •

وقد تجلى هذا المنهج وتطبيقه في كتابنا « أساليب بلاغية » وهـــو ليس ببعيد عن منهج السكاكي والقزويني ، ولكنه يوحد الأجزاء ويبحث الموضوع الواحد في فصل أو باب ، وبذلك تكون فصول علم المعاني أو أبوابه متناسقة يرتبط بعضها ببعض • وليس في منهج الخولي مثل هذا التناسق او الارتباط ، فقد أراد أن ينسق مباحث العلمــاء ولكنه وقع فيما وقعــوا فيه حينما اعتمدوا على المسند والمسند اليه في تقسيم الموضوعات •. ولكن منهج علم المعاني يظل مع ــ محاولة الباحثين ــ مجالاً للنظر والتدقيق لان البلاغة ليست من العلوم التي

استقرت وانما هي كما قال القدماء « لم تنضج ولم تحترق » أي أن سبيل القول فيها لم تتوقف وان الطريق الى فنونها طويل • وهذه مزية فن القول الذي قال الخولي عنه : « تلكم هي خطة فن القـول وتنسيق بحوثه ، لانقـول انها في صورتها الأخيرة بل نقول انها تخطيط لمحاولة نأمل أن تظل أبـد الدهر ــ لو أمكن ذلك ــ رهن التغير والتعديل وهدف التجديد والتحسـين يضيف اليها ويحذف منها وينسقها من تهيأت له القـدرة الصادقة على ذلـك وكانت له فيه بصيرة خبيرة ليظل هذا الدرس للفن القولي صدى لحياة أهلـه وسبيلا لتحقيق غاياتهم في الحياة الوجدانية الراقية »[١٢] واذا كان علم المعاني قريبا من النحو أو توخّي معاني النحو ، فانه يختلف عنه في معالجة الموضوعات ، وقد فصّل القول في ذلك عبد القاهر الجرجاني وانتهى الى أننا لانريد المعاني الأُول وانما المعاني الثواني وهي عنده معنى المعنى • ولخص المتأخرون فائـدة علم المعاني فقال بهاء الدين السبكي : « ولعلك تقول : أي فائدة لعلم المعاني فان المفردات والمركبات علمت بالعلوم الثلاثة ــ اللغة والنحو والصرف ــ وعلم المعاني غالبه من علم النحو ؟ كلا إن غاية النحوي أن ينزل المفردات على ما وضعت له ويركبها عليها ووراء ذلك مقاصد لا تتعلق بالوضع مما يتفاوت به أغراض المتكلم على أوجه لا تتناهى ، وتلك الأسرار لاتعلم إلاّ بعلم المعاني • والنحـوي ــ وان ذكرها ــ فهو على وجه إجمالي يتصرف فيه البياني تصرفا خاصـا لايصل اليه النحوي ، وهذا كما ان معظم أصول الفقه من علم اللغة والنحو والحديث وان كان مستقلا بنفسه • واعلم أن علمي أصول الفقه والمعاني في غايـة التداخل ، فان الخبر والانشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الاصول وان كل ما يتكلم عليه الأصولي من كون الأمر للوجوب والنهي للتحريم ومسائل الاخبار والعمـوم والخصوص والاطـلاق والتقييـد والاجمـال والتفصيل والتراجيح كلها ترجع الى موضوع علم المعاني ، وليس في أصول الفقه ما ينفرد

(١٢) فن القول ص٢٢٣ .

به كلام الشارع عن غيره إلا الحكم الشرعي والقياس وأشياء يسيرة »[١٣].
وهذا ما أطال الكلام عليه عبد القاهر الذي قال ان الصحة في الكلام هي الخطوة الاولى أما الخطوة الثانية فهي فهم الكلام واستخلاص ما فيه من المعاني الثواني التي يدل عليها، ولذلك كان علم المعاني مهما في معرفة الأساليب البلاغية وادراكها بعد أن فقد النحو رونقه وأصبح قواعد لا تعنى إلا بالاعراب والبناء والعوامل والجدل المنطقي الذي لا يخدم اللغة كثيرا .

التطبيق :

لم يبحث معظم البلاغيين الاوائل موضوعات علم المعاني لان اهتمامهم كان منصبا على فنون البيان والبديع . ولعل أحمد بن فارس كان من أسبق الباحثين الى هذه المسألة، فقد عقد في كتابه « الصاحبي » باباً باسم « معاني الكلام » وقال : « هي عند أهل العلم عشرة : خبر واستخبار، وأمر ونهي، ودعاء وطلب، وعرض وتحضيض، وتمن وتعجب »[١٤]، ويدخل هذا الباب في الخبر والانشاء . وتكلم على موضوعات أخر تعدّ من أركان علم المعاني مثل التقديم والتأخير، والحذف والاختصار، والتكرار وبعض ما يدخل في الخروج على مقتضى الظاهر وهي : الواحد ويراد به الجمع، والجمع ويراد به الواحد، والاثنان ومخاطبة الواحد بلفظ الجميع، والالتفات .

وكان عبدالقاهر الجرجاني من أشهر الذين تحدثوا عن علم المعاني في كتب « دلائل الاعجاز » وسماه نظما وقال في تعريفه : « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض »[١٥]، وقال :

وقد علمنا بان النظم ليس سوى ... حكم من النحو نمضي في توخيه

وقال : « واعلم ان ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه

---

(١٣) عروس الافراح ج١ ص٥١ .
(١٤) الصاحبي ص١٧٩ .
(١٥) دلائل الاعجاز ص (ص)

علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجــه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها • وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك : « زيد منطلق » و « زيد ينطلق » و « ينطلق زيــد » و « منطلق زيــد » و « زيد المنطلق » و « المنطلق زيــد » و « زيد هو المنطلق » و « زيد هو منطلق » • وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك : « إن تخرجْ أخرج » « وإنْ خرجتَ خرجتُ » و « إن تخرج فانا خارج » و « أنا خارج إن خرجتَ » و « أنا إن خرجتَ خارج » • وفي الحال الى الوجوه التي تراها في قولك : « جاءني زيد مسرعا » و « جاءني يسرع » و « جاءني وهو مسرع » أو « هو يسرع » و جاءني قــد أسرع » و « جاءني وقد أسرع » ، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له • وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو أن يجيء بـ « ما » في نفي الحال و بـ « لا » إذا أراد نفي الاستقبال و بـ « إن » فيما يترجــح بين أن يكون وأن لا يكون و بـ « إذا » فيما علم أنه كائن • وينظر في الجمــل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء ، وموضع الفاء من موضع «ثم» وموضع «أو» من موضع «أم» وموضع « لكن » من موضع « بل » ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله ، وفي الحذف والتكرار والاضمار والاظهار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمل على الصحــة وعلى ما ينبغي لــه • هذا هو السبيل. فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ الى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلاّ وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخــلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له • فلا ترى كلامــا قد وصف بصحة نظم أو فســاده ، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفســاد وتلك المزية

وذلك التفضل الى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه »[١٦] .

فمعاني النحو أو النظم تشمل الخبر ، وأركان الجملة ، وما يتعلق بالمسند والمسند اليه من شرط وحال ، وتشمل الفصل والوصل ومعرفة مواقعهما ، ومعاني الواو والفاء وثم وبل ولكن ، والتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والاضمار والاظهار . والفرق بين هذه الأساليب ليس فرقا في الحركات وما يطرأ على الكلمات وانما في معاني العبارات التي يحدثها ذلك الوضع والنظم الدقيق . ولذلك فليست العمدة في معرفة قواعد النحو وحدها ولكن فيما تؤدي اليه هذه القواعد والاصول من معانٍ ، وليست المزية باللغة ومعرفتها لان ذلك لا يؤدي الى التفاوت بين الكلام ، ولا من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فتستند الى اللغة ولكن للعلم بمواضعها وما ينبغي أن يصنع فيها ، وليست بسلامة الحروف وانما بالنظم الذي يعطي الكلمات والاعراب معنى دقيقا . فالحسن والفضل والروعة ترجع الى النظم ودقته ، وقد أقام عبدالقاهر نظريته في اعجاز القرآن الكريم والسرقات الأدبية على هذه الفكرة وربط صور البيان كالتمثيل والاستعارة والكناية بها . ومن بديع تحليله وربطه الصور بالنظم قوله : « وإذ قد عرفت ذلك فاعمد الى ماتواصفوه بالحسن وتشاهدوا له بالفضل ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصا دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم ، وتأمله ، فاذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت فانظر الى حركات الأريحية مم كانت وعند ماذا ظهرت ؟ فانك ترى عيانا أنَّ الذي قلت لك كما قلت . اعمد الى قول البحتري :

بلونا ضرائبَ من قد نرى فما إنْ رأينا لفتح ضريبا
هو المرءُ أبدتْ له الحادثا تُ عزماً وشيكا ورأياً صليبا

---

(١٦) دلائل الاعجاز ص٦٤ — ٦٥ .

نقسّل في خَلْقَي سؤدد   سماحاً مرجّى وبأساً مهيبا
فكالسيف إنْ جئته صارخاً   وكالبحر إنْ جئته مُسْتَثيبا

فاذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك ووجدت لها اهتزازاً في نفسك فعد فانظر في السبب واستقص في النظر ، فانك تعلم ضرورة أن ليس إلاّ أنه قدّم وأخر ، وعرّف ونكر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وكرر ، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله ، ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة . أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله : « هو المرء أبدت له الحادثات » ثم قوله : « تنقّل في خلقي سؤدد » بتنكير « السؤدد » واضافة الخلقين اليه ، ثم قوله : « فكالسيف » وعطفه بالفاء مع حذف المبتدأ ؛ لان المعنى لا محالة فهو كالسيف ، ثم تكريره الكاف في قوله : « وكالبحر » ثم أن قرن الى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه ، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر وذلك قوله : « صارخا » هناك و « مستثيبا » ههنا . لا ترى حسنا تنسبه الى النظم ليس سببه ماعددت أو ما هو في حكم ما عددت فاعرف ذلك .
واذا أردت أظهر أمراً في هذا المعنى فانظر الى قول ابراهيم بن العباس :

فلو إذنبا دَهْرٌ وأنكر صاحبٌ   وسلّط أعداءٌ وغاب نصيرٌ
تكون عن الأحواز داري بنجوة   ولكنْ مقاديرٌ جرّت وأمورٌ
وإني لأرجو بعد هذا محمداً   لأفضل ما يرجى أخٌ ووزيرٌ

فانك ترى ماترى من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحلاوة ، ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده انما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو « إذ نبا » على عامله الذي هو « تكون » وان لم يقل : « فلو تكون عن الاحواز داري بنجوة إذ نبا دهر » ثم أن قال : « تكون » ولم يقل : « كان » ثم أن نكّر « الدهر » ولم يقل : « فلو إذ نبا الدهر » ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما

أتى به من بعد ، ثم أن قال : « وأنكر صاحب » ولم يقل : «وأنكرت صاحبا»• لاترى في البيتين الأولين شيئاً غير الذي عددته لك تجعله حسنا في النظم ، وكله من معاني النحو ــ كما ترى ــ وهذا السبيل أبداً في كل حسن ومزية رأيتهما قد نسبا الى النظم وفضل وشرف حيل فيهما عليه »[١٧] •

وهذا تحليل يقوم على العلاقات بين الكلم ، وهو تحليل يعطي النص قيمة لانه يظهر مزيته ويوضح ما بين كلماته من صلة وما توحيه من صور تجسّد المعنى وتبرزه • ولم يستفد البلاغيون من هذا المنهج ومضى السكاكي والقزويني وشرّاح التلخيص يلخصون كلام عبد القاهر ويلتقطون بعض أمثلته ويتركون تحليله للنصوص وملامح منهجه النقدي • وقد حاول ضياء الدين بن الاثير أن يقترب من عبد القاهر ولكنّ إزراءه النحو وتشنيعه على النحاة أبعده عن المنهج اللغوي التحليلي الذي أبدع فيه المتقدم ، فهو يقول عن ابن جني : « لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والاعراب »[١٨] • ولولا هذا الموقف لجارى عبدالقاهر لانه كان يشعر بما للنظم من قيمة وقد قال عنه : « هو سبك الالفاظ بعضها مع بعض »[١٩] • ثم قال : « فاما النظم فان له أوصافا أربعة :

الاول منها : أنْ تكون الالفاظ واضحةً بيّنةً ليست بغريبة الاستعمال •

الثاني : أن تكون الالفاظ حلوةً في الفم ، سهلةً في النطق ، غير مستثقلة ولا مستكرهة •

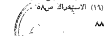
الثالث : أن تكون كل لفظة من الألفاظ ملائمةً لأختها التي تليها ، غير نافرة عنها ولا مباينة لها •

---

(١٧) دلائل الاعجاز ص٦٧ ــ ٦٩ •

(١٨) المثل السائر ج١ ص٣٨٣ ، وينظر الاستدراك ص١٢ وما بعدها •

(١٩) الاستدراك ص٥٨ •



الرابع : أن لا يكون في الالفاظ تقديم وتأخير يستغلق به المعنى فيجيء نظم الكلام مضطربا •

فهذه أوصاف أربعة تتعلق بالألفاظ ومتى عري الكلام المنظوم والمنثور منها لم يكن فصيحا ، وإن عري عن شيء منها نقص منه جزء من الفصاحة • وفي ضوء ذلك نظر ابن الأثير الى الأساليب البلاغية ، وأوضح مثال على ذلك كلامه على التقديم والتأخير ، وهو من الموضوعات التي أدخلها المتأخرون في علم المعاني • قال : « وهذا باب طويل عريض ، يشتمل على أسرار دقيقة منها ما استخرجته أنا ، ومنها ما وجدته في أقوال علماء البيان »[٣٠] وقسمه الى ضربين :

الأول : يختص بدلالة الالفاظ على المعاني ، ولو أخّر المقدم أو قدّم المؤخر لتغير المعنى •

الثاني : يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخّر لما تغير المعنى •

والضرب الأول قسمان : أحدهما يكون التقديم فيه هو الأبلغ ، والآخر يكون التأخير فيه هو الأبلغ • ومن الاول تقديم المفعول على الفعل وتقديم الخبر على المبتدأ وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل • والثاني هو المماثلة المعنوية كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف وتقديم الصلة على الموصول •

والضرب الثاني : لا يحصره حدّ ولا ينتهي الى شرح ، ومن ذلك تقديم السبب على المسبب وتقديم الاكثر على الأقل •

ومنهج ابن الاثير في التحليل يعتمد على أساسين :

الاول : المعنى وهو الذي يحدد موضع الكلمات ويظهر قصد الأديب •

---

(٣٠) المثل السائر ج٢ ص٣٨ •

الثاني : نسق العبارة وانسجام الالفاظ ومراعاة ما توحيه الصياغة من صور .

قال : « وقال علماء البيان ــ ومنهم الزمخشري رحمه الله ــ : إن تقديم هذه الصورة المذكورة انما هو للاختصاص ، وليس كذلك . والذي عندي فيه أن يستعمل على وجهين : أحدهما الاختصاص ، والآخر مراعاة نظم الكلام ؛ وذالك أن يكون نظمه لا يحسن إلاّ بالتقديم ، وإذا أخّر المقدم ذهب ذلك الحسن ، وهذا الوجه أبلغ وأوكد من الاختصاص . فأما الأول الذي هو الاختصاص فنحو قوله تعالى : « أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . ولقد أُوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين »[21] . فانه انما قيل : « بل الله فاعبد » ولم يقل « بل اعبدالله » لانه إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره . ولو قال : « بل اعبد » لجاز ايقاع الفعل على أي مفعول شاء .

وأما الوجه الثاني الذي يختص بنظم الكلام فنحو قوله تعالى : « إيّاكَ نعبدُ وإياك نستعين »[22] . وقد ذكر الزمخشري في تفسيره أن التقديم في هذا الموضع قصد به الاختصاص وليس كذلك فانه لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص وانما قدم لمكان نظم الكلام ؛ لانه لو قال : « نعبدك ونستعينك » لم يكن له من الحسن ما لقوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » . ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين »[23] فجاء بعد ذلك قوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون ، ولو قال : « نعبدك ونستعينك » لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن ، وهذا غير خاف على

(٢١) سورة الزمر ، الآيات ٦٤ ــ ٦٦ .
(٢٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .
(٢٣) سورة الفاتحة ، الآيات ٢ ــ ٤ .

أحد من النّاس فضلاً عن أرباب علم البيان • وعلى نحو منه ورد قوله تعالى : « فأوْجَسَ في نفسه خيفةً موسى • قلنا لا تخَفْ إنّك أنت الأعلى »[٢٤]، وتقدير الكلام : «فأوجس موسى في نفسه خيفة » وانما قـدّم المفعول على الفاعل وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصداً لتحسين النظم • وعلى هذا فليس كل تقديم لما مكانه التأخير من باب الاختصاص فبطـل إذن ماذهب اليه الزمخشري وغيره »[٢٥] •

ويختلف تحليل ابن الاثير عن تحليل معاصره السكاكي الذي ذكر قواعد تقديم المسند اليه وتأخيره من غير أن يقف عليها ويحلل النصوص ، فهـو يقول عن المسند اليه : « وأما الحالة التي تقتضي تقديمـه على المسند فهي متى كان ذكره أهم ، ثم ان كونـه أهم يقع باعتبارات مختلفـة »[٢٦] • ثم يعـدد تلك الاعتبارات منها : لان أصله التقديم • أو لانه متضمن للاستفهام ، وامـا لانه ضمير الشأن والقصة ، واما لان في تقديمه تشويقاً للسامع الى الخبـر ليتمكن في ذهنه ، واما لان اسم المسند اليه أصلح للتفـاؤل فيقدم ، واما لان تقديمه ينبىء عن التعظيم والمقام يقتضي ذلك ، واما لانه يفيد زيادة تخصيص • وليس في هذه القواعد ما يوضح التقديم والتأخير ويبرز أهميته ويبسط معناه مع أن عبد القاهر قد تحدث عن هذا الموضوع وأوضـح المعاني المختلفة التي تقدمها صياغة العبارة حينما يقع فيها تقديم أو تأخير • قال : « هو باب كثير الفوائد ، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية،لايزال يَفْتَرّ لك عن بديعة ويفضي بك الى لطيفة ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديـك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك أنْ قدّم فيه شيء وحوّل اللفظ عن مكان الى مكان »[٢٧] • وبعد تحليله للتقديم والتأخير كلامه على الاستفهام ، قال : « وهذه مسائل لا يستطيع أحد أن يمتنع من التفرقة بـين تقديم ما قدّم

(٢٤) سورة طه ، الآيتان ٦٧ ــ ٦٨ •
(٢٥) المثل السائر ج٢ ص٣٩ ــ ٤٠ •
(٢٦) مفتاح العلوم ص٩٣ • (٢٧) دلائل الاعجاز ص٨٣ •

فيها وتـرك تقديمه • ومن أبـين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة فان موضع الكلام على أنك إذا قلت : « أفعلت ؟ » فبدأت بالفعل كـان الشك في الفعل نفسه وكان غرضـك من استفهامك أن تعـلم وجـوده • وإذا قلت : « أأنت فعلت ؟ » فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل مَنْ هو ؟ وكان التـردد فيه • ومثال ذلك أنك تقول : « أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ » ـــ « أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقولـه ؟ » ـــ « أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه ؟ » ، تبدأ في هذا ونحوه بالفعل لان السؤال عن الفعـل نفسه والشك فيه ، لانك في جميع ذلك متردد في وجـود الفعل وانتفائه مجوّز أن يكون قد كان وأن يكون لم يكن • وتقول : « أأنت بنيت هذه الدار ؟ » ـــ « أأنت قلت هذا الشعر ؟» ـــ «أأنت كتبت هذا الكتاب ؟» فتبدأ في ذلك كله بالاسم ، ذلك لانه لم تشكّ في الفعل انه كان ، كيف وقد أشرت الى الدار مبنية والشعر مقولا والكتاب مكتوبا ؟ وانما شككت في الفاعـل من هو ؟ فهـذا من الفرق لايدفعه دافع ولا يشك فيه شاك ، ولا يخفى فساد أحدهما في موضع الآخر • فلو قلت : « أأنت بنيت الدار التي كنت علـى أن تبنيهـا ؟ » ـــ « أأنت قلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله ؟ » ـــ « أأنت فـرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه ؟ » خرجت من كـلام الناس • وكذلـك لو قلت : « أبنيت هذه الـدار ؟ » ـــ « أقلت هذا الشعر ؟ » ـــ « أكتبت هذا الكتاب ؟ » قلت مالبس يقول ، ذلك لفساد أن تقول في الشيء المشاهد الذي هو نصب عينيك أموجود أم لا ؟ ومما يعلم به ضـرورة أنه لا تكون البدايـة بالفعل كالبداية بالاسم ، انك تقول : « أقلت شعراً قط ؟ » ـــ « أرأيت اليوم انسانا ؟ » فيكون كلامك مستقيما • ولو قلت : « أأنت قلت شعراً قـط ؟ » ـــ « أأنت رأيت انسانا ؟ » أخطأت ، وذلك انه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا ؛ لان ذلك انما يتصور إذا كانت الاشارة الى فعل مخصوص نحو أن تقـول : « من قال هذا الشعر ؟ » و « مَنْ بنى هذه الـدار ؟ » و « من أتاك اليوم ؟ » و « من أذن لك في الذي فعلت ؟ » وما أشبه ذلك مما يمكن أن ينص فيه على معيّن ،

فاما قيل شعر على الجملة ورؤية انسان على الاطلاق فمحال ذلك فيه لانه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى يسأل عن عين فاعله ، ولو كـان تقديم الاسم لا يوجب ما ذكرنا من أن يكون السؤال عن الفاعل من هو ؟ وكـان يصح أن يكون سؤالاً عن الفعل أكان أم لـم يكن ، لكان ينبغي أن يستقيم لك »[٢٨] .

فالتقديم والتأخير يخضع للمعنى وللهدف الذي يسعى اليه المتكلم ، ولم يكن عبثاً أن يُعنى العرب في كلامهم بذلك وأن يرصده البلاغيـون والنقاد ، وأوضح ما في كلام عبد القاهر ثلاث مسائل :

الأولى : ان الابتداء بالفعل في الاستفهام معنـاه ان الشـك في الفعـل نفسه وان الغرض من الاستفهام أن يعلم المستفهم وجوده .

الثانية : ان الابتداء بالاسم في الاستفهام معناه ان الشك في الفاعل من هو ؟ وان التردد كان فيه .

الثالثة : ان الاستفهام لا يكـون عبثاً وانما يأتـي حينما يتطلبه الموقف ولذلك لا يصح الاستفهام إذا كان المعنى معروفاً أو ان المسؤول عنه نصب العينين .

وهذا التحليل فريد في البلاغة العربية لانه يقوم على العلاقات بين الكلم وموقع الكلمة في العبارة ، وتقديم كلمة أو تأخيرها يغير المعنى وينقله من حال الى حال . ولا يقف الأمر عند المعنى الحقيقي وانما يتعداه الى خروج الاستفهام الى أغراض أخرى كالتقرير والتوبيخ وهو ما تحدث عنه البلاغيون المتأخرون ، ولكنهم لم يتعمقوا في دراسته ولم يحللوا هذا النوع من الاستفهام كما حلله عبدالقاهر الـذي قال : « واعلـم أنّ هذا الذي ذكرت لـك في الهمزة وهي للاستفهام قائم فيها إذا هي كانت للتقريـر ، فاذا قلت : « أأنت فعلت ذاك ؟ » كان غرضك أن تقره بانه الفاعل ، يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمرود : « أأنت فَعَلْتَ هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ »[٢٩] . لاشبهة في أنهـم لم يقولوا

---

(٢٨) دلائل الاعجاز ص٨٧ ــ ٨٨ . (٢٩) سورة الانبياء ، الآية ٦٢ .

ذلك له ـ عليه السلام ـ وهم يريدون أن يقر لهم بان كسر الاصنام قد كان ، ولكن أن يقرّ بان منه كان ، وقد أشاروا له الى الفعل في قولهم : « أأنت فعلت هذا؟ » وقال هو ـ عليه السلام ـ في الجواب : « بل فعله كبيرهم هذا » • ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب : « فعلت » او « لم أفعل » •

فان قلت : أو ليس إذا قال : « أفعلت ؟ » فهو يريد أيضا أن يقرره بان الفعل كان منه ، لا بانه كان على الجملة • فأي فرق بين الحالين ؟ فانه اذا قال : « أفعلت ؟ » فهو يقرره بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره وكان كلامه كلامَ من يوهم انه لايدري أن ذلك الفعل كان على الحقيقة • واذا قال : « أأنت فعلت ؟ » كان قد ردد الفعل بينه وبين غيره ولم يكن منه في نفس الفعل تردد ، ولم يكن كلامه كلامَ من يوهم أنه لا يدري أكان الفعل أم لم يكن ، بدلالة انك تقول ذلك والفعل ظاهر موجود مشار اليه كما رأيت في الآية »[٣٠] •

واكتفى السكاكي والقزويني بنقل الآية الكريمة حينما ذكرا خروج الاستفهام الى معنى التقرير[٣١] من غير أن يقفا عليها ويحللاها ويظهرا ما فيها من معنى التقرير • وبذلك تحولت الموهبة الأدبية والذوق الفني الى قواعد ثابتة تقرر ليحفظها الدارس بلا تمثل لها أو تأثر بالنصوص وجمالها •

وللفعل المضارع في الاستفهام موقع غير موقع الماضي ، وقد تحدث عنه عبد القاهر وأوضح الهدف منه فقال : « وإذ قد بيّنا الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم والفعل ماض ، فينبغي أن ينظر فيه والفعل مضارع • والقول في ذلك انك إذا قلت : « أتفعل ؟ » و « أأنت تفعل ؟ » لم يخل من أن تريد الحال أو الاستقبال ، فان أردت الحال كان المعنى شبيها بما مضى في الماضي فاذا قلت : « أتفعل ؟ » كان المعنى على أنك أردت أن تقرره بفعل هو يفعله وكنت كمن يوهم انه لا يعلم بالحقيقة أن الفعل كائن • واذا قلت : « أأنت تفعل ؟ » كان المعنى على أنك تريد أن تقرره بانه الفاعل ، وكان أمر الفعل في وجوده

(٣٠) دلائل الاعجاز ص٨٨ ـ ٨٩ •
(٣١) مفتاح العلوم ص١٥١ ، الايضاح ص١٣٨ •

ظاهراً وبحيث لا يحتاج الى الاقرار بانه كائن . وإن أردت بـ « تفعل » المستقبل كان المعنى اذا بدأت بالفعل على انك تعمد بالانكار الى الفعل نفسه وتزعم أنه لا يكون أو أنه لا ينبغي أن يكون . فمثال الأول :

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنياب أغْوالِ؟

فهذا تكذيب منه لانسان تهدده بالقتل وانكار أن يقدر على ذلك ويستطيعه . ومثله أن يطمع طامع في أمر لايكون مثله فتجهله فتقول :

« أيرضى عنك فلان وأنت مقيم على ما يكره ؟ » – « أتجد عنده ما تحب وقد فعلت وصنعت ؟ » . وعلى ذلك قوله تعالى : « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ »[٣٢] .

ومثال الثاني قولك للرجل يركب الخطر : « أتخرج في هذا الوقت ؟ » – « أتذهب في غير هذا الطريق ؟ » – « أتغرر بنفسك ؟ » ، وقولك للرجل يضيع الحق : « أتنسى قديم إحسان فلان ؟ » – « أتترك صحبته وتتغير عن حالك معه لأن تغير الزمان ؟ » كما قال :

أأترك أن قلّتْ دراهم خالد زيارته إنّي إذَنْ للئيمُ

وجملة الأمر انك تنحو بالانكار نحو الفعل فان بدأت بالاسم فقلت : « أأنت تفعل ؟ » أو قلت : « أهو يفعل ؟ » كنت وجهت الانكار الى نفس المذكور وأبيت أن تكون بموضع أن يجيء منه الفعل وممن يجيء منه وأن يكون بتلك المثابة [٣٣] .

ومثال آخر هو الالتفات الذي كان الفن الأول من محاسن الكلام التي ذكرها ابن المعتز ، وقد قال في تعريفه : « هو انصراف المتكلم عن المخاطبة الى الاخبار وعن الاخبار الى المخاطبة وما يشبه ذلك . ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه الى معنى آخر »[٣٤] . وتبعه كثير من البلاغيين في

(٣٢) سور هود ، الآية ٢٨ . (٣٣) دلائل الاعجاز ص٩١ – ٩٢ .
(٣٤) البديع ص٥٨ .

مصطلحه وتعريفه غير ابن وهب سماه « الصَّرْف »[٣٥] وسماه اسامة بن منقذ «الانصراف»[٣٦] واهتم الدارسون بهذا الاسلوب وتحدث عنه بالتفصيل الزمخشري في كشافه والسكاكي في مفتاحه والقزويني في ايضاحه وابن الاثير في مثله السائر والزركشي في برهانه . وقال الزمخشري وهو يفسر قوله تعالى : « إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نستعين»[٣٧] : « فان قلت : لم عدل عن لفظ الغيبة الى لفظ الخطاب ؟ قلت : هذا يسمى الالتفات في البيان وقد يكون من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة . ومن الغيبة الى التكلم كقوله تعالى : « حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجرين بهم »[٣٨] وقوله تعالى : « والله الذي أَرْسَلَ الرياحَ فتثير سحاباً فسُقْناهُ »[٣٩] . وقد التفت أمرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات :

تطاولَ ليلُكَ بالاثمدِ ونامَ الخليُّ ولم ترقُدِ
وباتت وباتت لهُ ليلةٌ كليلةِ ذي العائرِ الأرمدِ
وذلكَ من نبأٍ جاءني وخبِّرتُهُ عن أبي الأسودِ

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ، ولان الكلام إذا نقل من اسلوب الى اسلوب كان ذلك أحسن تطريةً لنشاط السامع وايقاظاً للاصغاء اليه من اجرائه على اسلوب واحد . وقد تختص مواقعه بفوائد ، ومما اختص به هذاالموضع انه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : « إياكَ من هذه

---

(٣٥) البرهان في وجوه البيان ص١٥٢ .
(٣٦) البديع في نقد الشعر ص٢٠٠ .
(٣٧) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .
(٣٨) سورة يونس ، الآية ٢٢ .
(٣٩) سورة فاطر ، الآية ٩ .

صفاته تخص بالعبادة والاستعانة ، لانعبد غيرك ولا نستعينه » ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لاتحق العبادة إلا به »[٤٠] .

ولا يخرج كلام السكاكي عن ذلك إلا ما أضاف من أمثلة قليلة قال بعدها : «وأمثال ماذكر أكثر من أن يضبطها القلم.وهذا النوع يختص مواقعه بلطائف قلما تتضح إلا لافراد بلغائهم أو للحذاق المهرة في هذا الفن والعلماء النحارير ، ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق وأورث السامع زيادة هزة ونشاط ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ومحل إن كان ممن يسمع ويعقل »[٤١] . ونظر اليه ابن الاثير نظرة أعمق وقال : « وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن واليها تستند البلاغة وعنها يعنعن ، وحقيقته مأخوذة من التفات الانسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا ، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لانه ينتقل فيه من صيغة الى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر الى غائب أو من خطاب غائب الى حاضر أو من فعل ماض الى مستقبل أو من مستقبل الى ماض أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلا ، ويسمى أيضاً « شجاعة العربية » وانما سمي بذلك لان الشجاعة هي الاقدام ، وذلك ان الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ويتورد مالا يتورده سواه ، وكذا هذا الالتفات في الكلام فان اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات »[٤٢] .

وقسمه الى ثلاثة أقسام :

الاول : الرجوع من الغيبة الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الغيبة .

الثاني : الرجوع من الفعل المستقبل الى فعل الأمر ، ومن الفعل الماضي الى فعل الأمر .

الثالث : الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي .

---

(٤٠) الكشاف ج١ ص١١ — ١٢ .
(٤١) مفتاح العلوم ص٩٦ .
(٤٢) المثل السائر ج٢ ص٤ ، الجامع الكبير ص٩٨ .

وأحسن ما في بحثه الأمثلة الكثيرة التي وشح بها كلامه ، وردّه رأي الزمخشري ومن تابعه في فائدة أسلوب الالتفات . وقد وضح ابن الاثير رأيه بقوله :

« وقال الزمخشري – رحمه الله – ان الرجوع من الغيبة الى الخطاب انما يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب الى أسلوب تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه . وليس الأمر كما ذكره ، لأن الانتقال في الكلام من اسلوب الى أسلوب إن لم يكن إلا تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه فان ذلك دليل على أن السامع يملّ من أسلوب واحد فينتقل الى غيره ليجد نشاطا للاستماع . وهذا قدحٌ في الكلام لا وصف له ، لانه لو كان حسنا لما ملّ ، ولو سلمنا الى الزمخشري ما ذهب اليه لكان انما يوجد ذلك في الكلام المطول ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ، لانه قد ورد الانتقال من الغيبة الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ويكون مجموع الجانبين معا يبلغ عشرة ألفاظ أو أقل من ذلك ومفهوم قول الزمخشري في الانتقال من اسلوب الى أسلوب انما يستعمل قصداً للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل اليه لا قصداً لاستعمال الأحسن . وعلى هذا فاذا وجدنا كلاما قد استعمل في جميعه الايجاز ولم ينتقل عنه أو استعمل في جميعه الاطناب ولم ينتقل عنه ، وكان كلا الطرفين واقعاً في موقعه قلنا : هذا ليس بحسن إذ لم ينتقل فيه من أسلوب الى اسلوب ، وهذا قول فيه ما فيه ، وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشري مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة . والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب الى الغيبة أو من الغيبة الى الخطاب لا يكون الا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من اسلوب الى أسلوب غير أنها لاتحدّ بحد ولا تضبط بضابط ، لكن يشار الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها . فانا قد رأينا الانتقال من الغيبة الى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد

الأول قد استعمل في الانتقال من الخطاب الى الغيبة فعلمنا حينئــذ ان الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لايجري على وتيرة واحدة وانما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لاتنحصر ، وانما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه »[43] .

وطريقة ابن الاثير في اظهار روعة الالتفات ضَرْبُ الأمثلة والتعليق عليها والاشارة الى ما فيها من روعة وجمال ، وهذه الطريقــة أنفــع فــي معالجة البلاغة وتحليل النصوص . ومن ذلك قوله : « فأما الرجــوع من الغيبة الى الخطاب فكقوله تعالى من سورة الفاتحة : « الحمـــد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم[44] » هذا رجوع من الغيبة الى الخطاب ، ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله : « اياك نعبد واياك نستعين » بعد قوله : « الحمد لله رب العالمين » فانه انما عدل فيه من الغيبة الى الخطاب لان الحمد دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ؟ فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمـــد لتوسطه مـــع الغيبة في الخبر فقال : « الحمد لله » ولم يقل : « الحمد لك » . ولمـــا صار الى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال : « إياك نعبد » فخـــاطب بالعبـــادة اصراحا بها وتقربا منه ــ عز اسمه ــ بالانتهاء الى محــــدود منها . وعلى نحو من ذلك جـــاء آخر السورة فقال : « صراط الذين أنعمت عليهـــم » فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ثم قال : « غير المغضوب عليهم » عطفاً على الاول ، لان الاول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار الى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب فأسند النعمـــة اليه لفظا وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفا . فانظر الى هذا الموضع وتناسب هذه المعاني الشريفـــة التي الاقدام لاتكاد تطؤها والأفهام مع قربها صافحة عنها ، وهذه

(٤٣) المثل السائر ج٢ ص٤ ــ ٥ . (٤٤) سورة الفاتحة ، الآيات ٢ ــ ٧ .

السورة قد انتقل في أولها من الغيبة الى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب ثم انتقل في آخرها من الخطاب الى الغيبة لتلك العلة بعينها وهي تعظيم شأن المخاطب ايضا ، لان مخاطبة الرب – تبارك وتعالى – باسناد النعمة اليه تعظيم لخطابه ، وكذلك ترك مخاطبته باسناد الغضب اليه تعظيم لخطابه ، فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالما بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها »[٤٥] .

ومن ذلك تعليقه على بيتي تأبط شرا :

باني قد لقيت الغول تهوي ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران[٤٦]

قال : « فانه قصد أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها مشاهدة للتعجب من جراءته على ذلك الهول ، ولو قال : « فضربتها » عطفا على الأول لزالت هذه الفائدة المذكورة . فان قيل : إن الفعل الماضي أيضا يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل ، قلت في الجواب : إن التخيل يقع في الفعلين معا ، لكنه في أحدهما – وهو المستقبل – أوكد وأشد تخيلا ، لانه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر الى فاعلها في وجود الفعل منه . ألا ترى أنه لما قال تأبط شرا : « فأضربها » تخيل السامع أنه مباشر للفعل ، وانه قائم بازاء الغول وقد رفع سيفه ليضربها ، وهذا لايوجد في الفعل الماضي ، لانه لايتخيل السامع منه إلا فعلا قد مضى من غير احضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه ، وهذا لاخلاف فيه »[٤٧] .

---

(٤٥) المثل السائر ج٢ ص٥ – ٦ .

(٤٦) السهب : الارض المستوية . الصحصحان : الارض الواسعة . الجران : مقدم عنق البعير .

(٤٧) المثل السائر ج٢ ص١٦ – ١٧ .

إن هذا التحليل لاسلوب الالتفاته يعطي صورة جلية لما كان عليه المنهج النقدي عند ابن الاثير ، وهو منهج يقوم على العلاقة اللغوية ومـا توحي من معنى أولاً وعلى الذوق الرفيع • أما مذهب السكاكي والقزويني وشراح التلخيص فيقوم على القاعدة وكثيراً ما تخفق القاعدة في إثارة المعنى وتقديم ما فيه من تأثير • ومن هنا كان الأخذ بمنهج عبدالقاهر وابن الاثـيـر في التحليل ضرورة تتطلبها النزعة الفنية في البلاغة والنقد ، وهـي نزعة تظل مرتبطة بالأدب مادام فيه عرق ينبض وما دام فيه ابداع وتجديد • وممـا يسوّغ ذلك الأخذ ان الرجلين انطلقا من علاقات الكلم فيما بينها أي مـن التركيب اللغوي المرتبط بالاسلوب والذوق الأدبي الرفيع ، وهما ركـنـا تحليل النصوص ، ومن الوقوف على معناها والتأثر بما فيها من صور • أو الايحـاء بالتأثـيـر •

المصـــادر :

١ ـ أساليب بلاغية ـ الدكتور احمد مطلوب . القاهرة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

٢ ـ الاستدراك ـ ضياءالدين بن الاثير ـ تحقيق الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ١٩٥٨م .

٣ ـ الايضاح ـ الخطيب القزويني . القاهرة .

٤ ـ البديع ـ ابن المعتز . تحقيق كراتشكوفسكي . لندن ١٩٣٥م .

٥ ـ البديع في نقد الشعـر ـ اسامـة بن منقذ . تحقيـق الدكتور احمد احمد بدوي والدكتور حامد عبد المجيد . القاهرة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م .

٦ ـ البرهان في وجوه البيـان ـ ابن وهب الكاتـب . تحقيق الدكتـور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي . بغداد ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .

٧ ـ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ـ ضياءالدين بن الاثير . تحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد . بغداد ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م .

٨ ـ دلائل الاعجـاز ـ عبد القاهـر الجرجانـي . تحقيق محمـد رشيد رضا . القاهرة ١٣٧٢هـ .

٩ ـ الصاحبي ـ احمد بن فارس . تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي . بيروت ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م .

١٠ـ عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ـ بهاءالدين السبكي . (مطبوع في كتاب شروح التلخيص) القاهرة ١٩٣٧م .

١١ ـ فن القول ـ أمين الخولي . القاهرة ١٩٤٧م .

١٢ ـ الكشاف ـ جار الله الزمخشري . القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م .

١٣ ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الاثير . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م .

١٤ ـ المطول ـ سعد الدين التفتازاني . تركية ١٣٣٠هـ .

١٥ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكي . القاهرة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٦م .

* * *

(٤)

الفنـون البلاغيـــة

المنهـج :

الفنون البلاغية هي : التشبيـه والمجـاز والكناية ـ أو ما سـماه المتأخرون علم البيان ـ والمحسنات اللفظية والمعنوية ـ أو ماسموه البديع • وعلم البيان هو « معرفة ايراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه »[١]• وتتضح في هذا التعريف عدة حقائق :

الاولى : ان هناك معنى واحداً يراد التعبير عنه في طرق مختلفة •

الثانية : ان التعبير عن ذلك المعنى الواحد قد يكون بالزيادة وقـد يكون بالنقصـان •

الثالثة : ان ذلك التعبير بالزيادة أو بالنقصان يكون لهدف هو الاحتراز عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه •

وشرح السكاكي هذا التعريف وأوضحه في الفصل الثانـي من قسم البلاغة وقال : « والخوض فيه يستدعي تمهيد قاعدة ، وهي ان محاولة ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليـه وبالنقصـان بالدلالات الوضعية غير ممكن ، فـانك إذا أردت تشبيه الخـد بالورد في الحمرة مثلاً وقلت : « خد يشبه الورد » امتنع أن يكون كـلام مؤدٍ لهذا

(*) القي على المشرفين التربويين في معهد تطوير اللغة العربية فـي ايلـول سنة ١٩٨١م •

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧ •

المعنى بالدلالات الوضعيــة أكمل منــه في الوضــوح أو أنقص • فانك إذا أقمت مقام كل كلمة منها ما يراد منها ، فالسامع إن كان عالما بكونها موضوعة لتلك المفهومات كان فهمه منها كفهمه من تلك من غير تفاوت فــي الوضـــوح وإلا لم يفهم شيئاً أصلا ، وانما يمكن ذلك في الدلالات العقليــة مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر وثان وثالث • فاذا أريد التوصل بواحد منها الى المتعلق به ، فمتــى تفاوتت تلك الثلاثة في وضوح التعلق وخفائه صحّ في طريق افادته الوضوح والخفاء • واذا عرفت هــذا عرفت ان صاحــب علم البيان له فضل احتياج الى التعرض لأنــواع دلالات الكلم »(٢) • وتكلم على الدلالات وبنى تقسيم علم البيان عليها فأخرج التشبيه منه لان دلالته وضعية لايمكن بها ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، وحصر الموضوعات الاخرى بقوله : « وإذا عرفت أن ايراد المعنى الواحد على صور مختلفة لايتأتــى إلا في الدلالات العقلية وهي الانتقال من معنى الى معنى بسبب علاقــة بينهما كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه ، ظهر لك أنّ علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني • ثم اذا عرفت أن اللزوم إذا تصوّر بين الشيئــين فاما أن يكون من الجانبين كالذي بين الأمام والخلف بحكم العقــل أو بين طــول القامة وبين طول النجاد بحكم الاعتقاد ، أو من جانب واحد كالذي بين العلم والحياة بحكم العقل ، أو بين الأسد والجرأة بحكم الاعتقاد ـ ظهر لك أنّ مرجع علم البيان اعتبار هاتين الجهتين : جهة الانتقال من ملــزوم الى لازم ، وجهة الانتقال من لازم الى ملزوم • ولا يريبك بظاهرة الانتقال من أحد لازمي الشيء الى الآخر ما اذا انتقل من بياض الثلج الى البرودة فمرجعه مآ ذكــر ينتقــل مــن البيــاض الى الثلــج ، ثــم مــن الثلــج الــى البــرودة فتــأمل • وإذا ظهــر لــك أن مرجــع البيــان هــاتان الجهتــان علمت انصباب علم البيان الى التعرض للمجاز والكناية فان المجاز ينتقل فيه من الملزوم الى اللازم كما تقول : « رعينا الغيث » والمراد لازمه وهو النبت •

---

(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٦ •

وقد سبق أن اللزوم لايجب أن يكون عقليا بل إن كان اعتقاديا إما لعرف أو لغير عرف ، صحّ ابناء عليه ، وأما نحو قولك : « أمطرت السماء نباتاً » أي غيث من المجازات المنتقل فيها عن اللازم الى الملزوم ضمخرط في سلك « رعينا الغيث » . وان الكناية ينتقل فيها من اللازم الى الملزوم كما تقول : « فلان طويل النجاد » فلا يصار الى جعل النجاد طويلا أو قصيرا إلا لكون القامة طويلة أو قصيرة ، فلا علينا أن نتخذهما أصلين»[3] .

لقد حصر السكاكي علم البيان في بحثين هما : المجاز والكناية لان دلالتهما عقلية ، أما التشبيه فقد أخرجه من البيان لان دلالته وضعية . ويفهم من ذلك ان هذا الفن من الحقيقة لا المجاز ، ولكنه ــ مع ذلك ــ لم يستطع أن يبعده عن علم البيان وهو الكثير الاستعمال في اللغة ، وله مزايا تورث الكلام حسنا وجمالا . واضطر الى أن يصطنع طريقة فيها تكلف فقال : « ثم إن المجاز ــ أعني الاستعارة ــ من حيث انها من فروع التشبيه لاتتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم الى اللازم ، بل لابدّ فيها من تقدمة تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له ، تستدعي تقديم التعرض للتشبيه فلا بدّ من أن نأخذه أصلا ثالثا ونقدمه ، فهو الذي إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني»[4] . وليس التشبيه فنا طارئاً وانما هو كثير الدوران في كلام العرب ، وقد قال المبرد : « والتشبيه جارٍ كثير في الكلام ــ أعني كلام العرب ــ حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يبعد»[5] . فعلم البيان هو التشبيه والمجاز بأنواعه والكناية على الرغم مما حاول السكاكي اصطناعه لاخراج التشبيه من البيان .

ولم يقف السكاكي عند هذه المسألة في دراسة علم البيان وانما أسرف في تقسيمه وتفريع مباحثه ، واستخدم مصطلحات بعيدة عن فن القول في

(٣) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .
(٤) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .
(٥) الكامل ج ٣ ص ٨١٨ .

ذلك التقسيم ، ومن أمثلة ذلك الاسراف تقسيمه طرفي التشبيه الى أنواع كثيرة ترتبط بالحسي والعقلي والتمثيلي والوهمي ، وتقسيمه الاستعارة الى ثمانية أنواع هي : الاستعارة المصرح بها التحقيقية مع القطع ، والاستعارة المصرح بها التخييلية مع القطع ، والاستعارة المصرح بها المحتملة للتحقيق والتخيل ، والاستعارة بالكناية ، والاستعارة الأصلية ، والاستعارة التبعية ، والاستعارة المجردة ، والاستعارة الترشيحية ، الى جانب تنوع الاستعارة الى خمسة أنواع كتنوع التشبيه اليها وهي : استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي أو بوجه عقلي ، واستعارة معقول لمعقول ، واستعارة محسوس لمعقول ، واستعارة معقول لمحسوس . ومن ذلك تقسيمه المجاز الى خمسة انواع منها الاستعارة التي قسمها الى ثمانية أقسام وأضاف اليها خمسة أنواع ، وتقسيمه الكناية الى الكناية المطلوب بها نفس الموصوف ، والكناية المطلوب بها نفس الصفة ، والكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف .

وكان هذا التقسيم أساساً في دراسة علم البيان ، وقد قال الخطيب القزويني في تعريفه : «هو علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه »[6]، وكان قوله : « بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه » مدعاة للكلام على الدلالات ، وذكر ــ كما ذكر السكاكي ــ أن ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة لايتأتى بالدلالة الوضعية ، لان السامع إن كان عالماً بوضع الالفاظ لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض وإلاّ لم يكن كل واحد منها دالاً ، وانما يتأتى بالدلالات العقلية لجواز أن يكون للشيء لوازم بعضها أوضح لزوماً من بعض . قال : « ثم اللفظ المراد به لازم ما وضع له إن قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له فهو مجاز وإلاّ فهو كناية ، ثم المجاز منه الاستعارة وهي ما تبتنى على التشبيه ، فتعين التعرض له ، فانحصر المقصود في التشبيه والمجاز والكناية ، وقدّم التشبيه على المجاز لما ذكره من ابتناء الاستعارة التي هي مجاز على

(٦) الايضاح ص ٢١٢ ، التلخيص ص ٢٣٥ .

التشبيه . وقدم المجاز على الكناية لنزول معناها منزلة الجزء من الكل[٧] . وبذلك استقرت مباحث علم البيان فكانت التشبيه والمجاز والكناية ، ودراستها بهذا الترتيب دقيق وإن حول السكاكي والقزويني وشراح التلخيص إخراج التشبيه لأن دلالته وضعية — ولكنهم على الرغم من ذلك — قدموه على المجاز لأن أحد أنواعه وهو الاستعارة مبني عليه .

وحاول أبو محمد القاسم السجلماسي أن يدرس موضوعات علم البيان دراسة أخرى فعقد الجنس الثاني من كتابه لتخييل وأدخل فيه التشبيه والاستعارة والمماثلة والمجاز ، وعقد الجنس الثالث للاشارة وأدخل فيه الكناية والتعريض والتلويح والابهام والتعمية والرمز والتورية[٨] . وقد يكون هذا المنهج أكثر دقة ، لأن التشبيه والاستعارة وأنواع المجاز الاخرى تتصل بالتخييل ، ولان الكناية والتعريض والتورية ترتبط بالاشارة واللمحة الدالة . ولكن هذا المنهج لم يَسُد وظل منهج السكاكي ومن نحا نحوه عمدة الباحثين حتى هذا العصر الذي تعالت فيه دعوات التجديد ، وكان المرحوم أمين الخولي من أكثر الباحثين اقتداراً على وضع منهج جديد لفن القول ، وقد أدخل التشبيه والاستعارة والكناية في صور الايضاح المعلن[٩] . وليس ذلك دقيقا ، لأن هذه الفنون يقصد بها الخفاء أحياناً ، وتسميتها « التخييل » كما فعل السجلماسي أقرب ، قال : « هذا الجنس من علم البيان يشتمل على أربعة أنواع تشترك فيه ويحمل عليها من طريق ما يُحمل المتواطئ على ما تحته ، وهي نوع التشبيه ، ونوع الاستعارة ، ونوع المماثلة — وقوم يدعونه التمثيل — ونوع المجاز . وهذا الجنس هو موضوع الصناعة الشعرية[١٠] » .

وألحق السكاكي علم البديع بالبلاغة وقال بعد أن انتهى من بحث علمي المعاني والبيان : « وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها ، وان الفصاحة بنوعيها ،

---

(٧) الايضاح ص ٢١٣ ، التلخيص ص ٢٣٧ .
(٨) المنزع البديع ص ٢١٨ ، ٢٦٢ .
(٩) فن القول ص ٢٢١ . (١٠) المنزع البديع ص ٢١٨ .

مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فهمنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام ، فلا ضير أن نشير الى الأعرف منها ، وهي قسمان : قسم يرجع الى المعنى وقسم يرجع الى اللفظ[١١] » ولم يسمها بديعا ، وكان بدرالدين بن مالك أول من اطلق عليها ذلك وقال في تعريف علم البديع : « هو معرفة توابع الفصاحة[١٢] » وقسمه الى محسنات لفظية ومحسنات معنوية ، والمعنوية اما مختصة بالافهام والتبيين واما مختصة بالتزيين والتحسين ، أي ان البديع عنده ثلاثة أقسام وهو مالم يأخذ به البلاغيون ، وحينما ألف الخطيب القزويني « التلخيص » و « الايضاح » فصل علم البديع فصلا تاما عن البلاغة التي جعلها محصورة في المعاني والبيان . وقال : « إن البلاغة في الكلام مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد والى تمييز الكلام الفصيح من غيره . والثاني ــ أعني التمييز ــ منه مايثبت في علم متن اللغة أو التصريف أو النحو ، أو يدرك بالحس ، وهو ما عدا التعقيد المعنوي . وما يحترز به عن الأول ــ أعني الخطأ ــ وهو علم المعاني ــ وما يحترز به عن الثاني ــ أعني التعقيد المعنوي ــ هو علم البيان . وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع[١٣] » . وقال عن البديع : « هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[١٤] » .

والبديع عنه ضربان : ضرب يرجع الى المعنى ، وضرب يرجع الى اللفظ ، ومن الأول : المطابقة ، والمقابلة ، ومراعاة النظير ، والارصاد ، والاستطراد ، والمزاوجة ، والتورية . ومن الثاني : الجناس ، ورد العجز على الصدر ، والسجع ، والموازنة ، والقلب ، والتشريع ، ولزوم ما لايلزم .

---

(١١) مفتاح العلوم ص ٢٠٠ .
(١٢) المصباح ص ٧٥ .
(١٣) الايضاح ص ١١ ، التلخيص ص٣٦ .
(١٤) الايضاح ص ٣٣٤ ، التلخيص ص ٣٤٧ .

والبديع — عند القزويني — يعود على الكلام بالتحسين العرضي لا الذاتي مع أن كثيراً من ألوانه يقتضيها الحال ويحتاج اليها الأديب كصحة التقسيم ، والمقابلة ، والمطابقة ، والمبالغة ، وسار أكثر البلاغيين على خطاه وخالفه بعضهم . قال بهاءالدين السبكي : « يحتمل أن يراد بعد معرفة رعاية تطبيقه ووضوح الدلالة ، ويكون المراد هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين ووجوه التطبيق والوضوح ، ومعرفة التطبيق والوضوح سابقان على معرفة التحسين فيكون المعاني والبيان جزأين للبديع ، ويحتمل أن يراد قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح وجوه التحسين فلا يكون المعاني والبيان جزأين للبديع بل مقدمتين له ، وقد صرحوا بأن المراد هو الأول .... والحق الذي لايتازع فيه منصف أن البديع لايشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الايراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين ، وأدل برهان على ذلك أنك لاتجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون الى بيان اشتمال شيء منها على التطبيق ولاتجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والايراد ، بل تجد كثيراً منها خاليـاً عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان ، هذا هو الانصاف وإن كان مخالفا لكلام الأكثرين[١٥] » .

واضطربوا في توزيع فنون البديع فوضعوا قسما منه في علم المعاني وأعادوا بحثها في علم البديع ، وعلة ذلك انهم كانوا ينظرون اليه من زاويتين:

الاولى : أن تحسينه عرضي .

الأخرى : أن تحسينه ذاتي .

ومن ذلك الالتفات ، فقد تحدث عنه السكاكي في علم المعاني وقال : « ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني ، والعرب يستكثرون منه ويرون

(١٥) عروس الافراح ج٤ ص ٢٨٣ .

الكلام إذا انتقل من أسلوب الى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ باستدرار أصغائه »[١٦]. وأدخله ثانيه في علم البديع وعدّه من المحسنات المعنوية ، ولكنه لم يتكلم عليه واكتفى بقوله : « وقد سبق ذكره في علم المعاني »[١٧] . وكان الزمخشري قد عدّه من البيان[١٨] وان لم يقصد به علم البيان الذي ضبطه السكاكي بتعريفه وانما يريد بهالبيان بمعناهالواسع.فالسكاكي تردد فيوضع الالتفاتوعلل ابن يعقوب المغربي ذلك بقوله : « ان قلت : لأي وجه خصص تسميته بعلماء المعاني مع أن عدّ الالتفات من البديع أقرب ، لأن حاصل ما فيه أنه يفيد ظرافة وحسن تطرية فيصغي اليه لطرافته وابتداعه ولايكون الكلام به مطابقا لمقتضى الحال فلايكون من علم المعاني . فضلاً عن كونه يختص بهم فيسمونه به دون أهل البديع ؟ قت : أما كونه من الأحوال التي تذكر في علم المعاني فصحيح كما إذا اقتضى المقام فائدته من طلب مزيد الاصغاء لكون الكلام سؤالاً أو مدحاً أو اقامة حجة أو غير ذلك ، فهو من هذا الوجه من علم المعاني . ومن جهة كونه شيئا ظريفا مستبدعا يكون من علم البديع .وكثيرا ما يوجد في المعاني مثل هذا فليفهم ، وأما تخصيص علماء المعاني بالتسمية فلا حجر عليه ، والله أعلم »[١٩] .

ولولا تقسيم السكاكي للبلاغة الى علومها الثلاثة ما احتاج المغربي وغيره الى هذا التمحل والاغراق في التأويل ، لأن الالتفات لايستعمل من غير أن يؤدي معنى فيكون مطابقا لمقتضى الحال وتكون فيه ظرافة وطلاوة . إن الانتقال من أسلوب الى آخر لايكون ، إلا اذا اقتضى الحال ذلك وأريد

(١٦) مفتاح العلوم ص ٩٥ .
(١٧) مفتاح العلوم ص ٢٠٢ .
(١٨) الكشاف ج١ ص ١١ .
(١٩) مواهب الفتاح ج١ ص ٤٦٤.

به نوع من الابداع والمتعة الفنية ، ولذلك ينطبق عليه تعريفا علم المعاني وعلم البديع ، أي أنه من مقاصد الكلام وأساليب التعبير ، لقد نظر المتأخرون الى الالتفات هذه النظرة الجامدة ، فهو من البديع إن كان تحسينه عرضيا ، ومن المعاني إن كان تحسينه ذاتيا ، وأشار الدسوقي الى هذه المسألة فقال : « واعلم أن المحسنات البديعية انما يكون تحسينها عرضيا إذا اعتبرت من حيث انها محسنة وهي من هذه الجهة يبحث عنها في علم البديع ، وأما إذا اعتبرت من حيث أنها مطابقة لمقتضى الحال لكون الحال اقتضاها كانت موجبة للحسن الذاتي ومن هذه الجهة يبحث عنها في علم المعاني ، ولهذا ذكر المصنف فيه الالتفات الذي هو من المحسنات البديعية »[20] ، وقال المغربي : «إن البديعيات إذا قصد بها مناسبة الأحوال التي أوردت لأجلها عادت معاني ، والمعاني إذا ذهل عن تلك المناسبات فيها وأتي بها لأجل طرافتها فقط كانت بديعيات»[21] ، وليس وراء هذا النزاع كبير فائدة لأن كل فن بديعي إذا استعمل بدقة وعناية ووضع الوضع الذي يقتضيه المعنى كان جميلا سواء عدّ تحسينه عرضيا أم ذاتيا .

وجاء بعد القزويني أصحاب البديعيات ولكنهم لم يريدوا بالبديع المحسنات المعنوية واللفظية وحدها وانما فنون البلاغة كلها أي أن نظرتهم كانت قريبة من نظرة ابن المعتز وأبي هلال العسكري وابن رشيق وأسامة ابن منقذ ، ولم تؤثر البديعيات كثيراً في البحث البلاغي ، وساد منهج السكاكي والقزويني وشراح التلخيص ، وأصبح البديع خاصا بالمحسنات التي يؤتى بها لتحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة ، وحاول المحدثون أن يجددوا في منهج البديع وصنفوا فنونه تصنيفا جديداً يقوم على جمع الأشباه والنظائر ومنهم أدور مرقص الذي ردّها الى الموافقة ، والمخالفة ، والترتيب والمبالغة ، والاستدراج ، والتلميح ، وحسن التعليل ،

(٢٠) حاشية الدسوقي ج١ ص ١٣١ .

(٢١) مواهب الفتاح ج٣ ص ٢٢٤ .

والايهام ، والتدقيق ، والتوليد ، والكلام الجامع[٢٢] • وأدخل في المخالفة ـ مثلا ـ الطباق ، والمقابلة ، وايهام المتضاد ، والمناقضة والعكس والتفريق والسلب والايجاب والرجوع والاستدراك • ومنهم أنيس المقدسي الذي ردّها الى ستة أبواب هي : التعادل ، والتواطؤ اللفظي ، والتواطؤ المعنوي ، والمغايرة ، والخروج عن المعتاد ، والايماء الى الغرض[٢٣] • وأدخل في التعادل ـ مثلاً ـ التوازن والمماثلة والسجع والتسميط والترصيع والتزاوج • وهذا أقرب الى ما ذكره السجلماسي الذي حصر البلاغة في عشرة أبواب هي : الايجاز ، والتخييل ، والاشارة ، والمبالغة ، والرصف ، والمظاهرة ، والتوضيح ، والاتساع ، والانثناء ، والتكرير • وذكر في الرصف ـ مثلا ـ الارصاد والمقابلة والالتفات والتقسيم والتسهيل •

ووزّع المرحوم أمين الخولي بعض فنون البديع على عدة أبواب فذكر في الكلمة من حيث هي عنصر لغوي : الجناس ، والسجع ، والترصيع، والتصريع ، ورد العجز على الصدر ، ولزوم ما لا يلزم • ووضع في الكلمة ـ من حيث هي جزء الجملة ـ الالتفات•ووضع في صور الايضاح المعلن القلب وأسلوب الحكيم والمبالغة وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتدبيج والتهييج والالهاب والتهكم والتجاهل ، ووضع في صور التعبير المضللة الرمز والايماء ، والالغاز ، والتورية والاستخدام والاتساع[٢٤] • وهذا توزيع طريف وان كان اسلوب الحكيم ـ مثلا ـ ليس من صور الايضاح المعلن وانما هو من صور التعبير المضللة•ويبقى رأي الخولي ـ بعد ذلك ـ أقرب الآراء في توزيع فنون البديع وإن لم يكن الأخير •

التطبيق :

ليس في كتب البلاغة المتأخرة ما ينفع كثيرا في دراسة فنون البيان

(٢٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد التاسع عشر ص ٤٨١ .
(٢٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد الثلاثون) ص ٣٥ .
(٢٤) فن القول ص ٢١٧ ـ ٢٢٢ .

والبديع لأن أصحابهـا كالسكاكـي والخطيـب والقزوينـي وسعدالدين التفتازاني وبهاءالدين السبكي وابن يعقوب المغربي والدسوقي أسرفـوا في التقسيم وضبط القواعد والاقلال من الأمثلة وتحليلها • ولعل العـودة إلى الكتب التي تقدمتها كالمثل السائر لابن الأثير ودلائل الاعجـاز وأسـرار البلاغـة لعبدالقاهر تغني عن هذه الكتب المتأخرة ، وترجـع الى البلاغـة العربية أصالتها ، لأن ابن الاثـير وعبدالقاهـر اعتمـدا على التحليل العلمي أولاً وعلى الذوق السليم ثانيا ، أي ان القاعدة والذوق كانا أساس الابداع في كتبهما • والوقوف على هذه الكتب يرفد البحث البلاغي بالجدة والطرافة، ويقود الى عمل نقدي خلاق يبدع فيه الناقد أيما ابداع •

لقد تحدث السكاكي عن التشبيه وقال إنه « مستدعٍ طرفـين مشبهاً ومشبهاً به واشتراكاً بينهمـا من وجه وافتراقاً من آخر • مثل أن يشتركـا في الحقيقة ويختلفا في الصفة أو بالعكس • فالأول كالانسانين إذا اختلفـا صفة طولاً وقصرا ، والثاني كالطولين إذا اختلفا حقيقـة انسانا وفرسا • وإلا فأنت خبير بأن ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعين يأبى التعدد فيبطل التشبيه ، لأن تشبيه الشيء لايكون إلا وصفاً بمشـاركته المشبه في أمر ، والشيء لايتصف بنفسه كما أن عدم الاشتراك بين الشيئين في وجه من الوجوه يمنعك محاولة التشبيه بينهما لرجوعه الى طلب الوصف حيث لا وصف ، وان التشبيه لابصار اليه إلا لغرض وان حاله تتفـاوت بين القرب والبعد ، وبين القبول والرد»[٢٥] • وهذا هو معنى التشبيه عند البلاغيين غير أن السكاكي أسرف في التقسيمـات والنظر الى هذا الفـن نظرة عقلية ، وتحدث عن طرفيه ووجه الشبه والغرض منه وأحواله • وليس الغريب مثل هذا التفصيل ولكن الغريب أنه لم يظهر روعة التشبيه والتمثيل مثلما أظهرها عبدالقاهر الذي قسم التشبيه الى ضربين[٢٦] :

(٢٥) مفتاح العلـوم ص ١٥٧ •
(٢٦) أسرار البلاغـة ص ٨٠ •

الأول : أن يكون من جهة أمر بيّن لايحتاج فيه الى تأويل مثــــل أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة ، أو أن تجمــع الصورة واللــون معـــا كقول الشــاعر :

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقــود مُلاحيــة حين نــوَّرا

الآخر : أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول مثل : « هــذه حجة كالشمس في الظهور » وقد شبهت الحجة من جهة ظهورها ، ولكـــن هذا التشبيه لايتم إلاّ بتأول . قال « حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الاجسام أن لايكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبــين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشيء لك ولايظهر لك إذا كنت من وراء حجاب أو لم يكــن بينــك وبينه ذلك الحجاب . ثم تقول ان الشبهة نظير الحجاب فيمــا يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ماهي شبهة فيه كمــا يمنع الحجاب العــين أن ترى ما هو من ورائه ، ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يــروم القلب ادراكه ويصرف فكره للوصول اليه من صحة حكم أو فساده . فاذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحــة ما ادعى من الحكم قيل : « هذا ظاهر كالشمس » أي ليس ههنا مانع عــن العلم به ولا للتوقف والشك فيه مساغ ، وان المنكر له إما مدخول في عقله أو جاحد مباهت ومسرف في العناد ، كمــا ان الشمـس الطالعــة لايشــك فيها ذو بصر ولاينكرها إلاّ من لاعذر له في انكاره . فقد احتجت فــي تحصيل الشبه الذي أثبته بين الحجة والشمس الــى مثل هذا التأول كمــا ترى » [٢٧] .

وما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً ، فمنــه مايقــرب مأخــذه ويسهل الوصول اليه ويعطي المقادة طوعا حتى انه يكاد يداخل الضــرب الأول الذي ليس من التأول في شيء ، ومنه مايحتاج فيــه الى قــدر من

(٢٧) أسرار البلاغــة ص ٨٢ــ٨٣ .

التأمل ، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه الى فضل روية ولطف فكرة ، وفي ذلك مجال واسع للتفنن في القول ووصول الى أرفع فنون التشبيه وهو التمثيل الذي يكون وجه الشبه فيه عقلياً مفرداً أو مركباً غير حقيقي ومحتاجاً في تحصيله الى تأوّل كقول ابن المعتز :

اصْبِرْ على مَضَضِ الحَسُو دِ ، فإنْ صَبْرَكَ قاتِلُه

فالنارُ تأكلُ بعضَها إنْ لم تَجِدْ ما تأكلُه

وقول صالح بن عبدالقدوس :

وإنَّ مَن أدَّبتَه في الصِّبا كالعُودِ يُسْقى الماءَ في غَرْسِهِ

حتى تراه مُورِقاً ناضِراً بعدَ الذي أبْصَرْتَ مِن يُبْسِهِ

وهذه الأبيات تحتاج الى تأول ولاتفهم الصلة بين الاطراف إلاّ بضرب من التأمل وإطالة النظر .

والتمثيل الذي هو أولى أن يسمى كذلك ما لايحصل إلاّ من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى أنّ التشبيه كلما أوغلَ في كونه عقليا محضا كانت الحاجة الى الجملة أكثر كقوله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى إذا أخَذَتِ الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظنَّ أهلُها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس »[28] . فقد كثرت الجمل حتى اننا نرى في هذه الآية الكريمة عشر جمل إذا فصلت ، والشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها من بعض ولا حذف شيء منها ، فلو حذفت جملة واحدة من أي موضع كان أخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه وفرّق الصورة المركبة . ولاينبغي أن تعدّ الجمل في هذا النحو بعدّ التشبيهات

(28) سورة يونس ، الآية ٢٤ .

التي يضم بعضها الى بعض والأعراض الكثيرة التي كل واحد منهـا متفرد بنفسه بل بعدُّ جملة تشتمل ثانية منها على أولة وثالثة على ثانيــة وهكذا، فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن يكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدها ، ففي قولنا : « زيـد كالأسد بأساً ، والبحر جوداً ، والسيف مضاء ، والبدر بهاءً » لاينبغـي أن نرتبه هذا الترتيب دائما بل نستطيع أن نتقدم ونؤخر فيــه مــن غير أن تختل الصورة ، وكذلك قــول الشاعر :

النَّشْرُ مِسْكٌ والوجوه دنــا نيرٌ وأطراف الاكفِّ عَنَمٌ

نستطيع أن نرتبه ترتيبا آخر لولا الوزن ولانستطيع ذلك في الآيــة ، لأن كل جزء فيها يقود الى الجزء الذي يليه .

ومن أروع صور التحليل عند عبدالقاهر كلامه على التمثيــل ، وهو على وجهيـن[٢٩] :

الأول : أن يجيء في أعقاب المعاني .

الآخر : أن يبرز المعنى باختصار في معرضه وينقل عن صورته الاصلية

الى صورته . قال : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جـاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورهـــا الاصلية الى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشبَّ من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب اليها واستثار لها من أقاصي الافئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا . فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم ، وان كان ذما كان مسّه أوجع ، وان كان حجاجا كان برهانه أنور ، وإنْ كان افتخاراً كان شأوه أمدّ ، وان كان اعتذاراً كان الى القبول أقــرب ، وان كان وعظاً كان أشفى للصــدر ، وهكذا الحكم

(٢٩) أسرار البلاغــة ص ١٠١ وما بعدها .

إذا استقريت فنون القول وضروبه وتتبعت أبوابه وشعوبه وإن أردت أن تعرف ذلك وان كان تقلّ الحاجه فيه الى التعريف ويستغني في الوقوف عليه عن التوقيف فانظر الى نحو قول البحتري :

دانٍ على أيدي العفاة وشاسعٌ عن كل ندٍّ في الندى وضريبِ
كالبدر أفرطَ في العلوّ وضوؤه للعصبة السارين جدُّ قريبِ

وفكّر في حالك وحال المعنى معك وأنت في البيت الأول لم تنته الى الثاني ولم تتدبر نصرته إياه وتمثيله له فيما يلي الانسان عيناه ويؤدي اليه ناظراه ثم قسهما على الحال وقد وقفت عليه وتأملت طرفيه فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك وتحبيبه اليك ونبله في نفسك وتوفيره لانسك وتحكم لي بالصدق فيما قلت والحق فيما ادعيت » • فالتمثيل ينبل ويجود بمقدار تأثيره في النفوس ولهذا التأثير أسباب وعلل ، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي الى جلي وتأتيها بصريح بعد مكني وان تردها في الشيء تعلّمها اياه الى شيء آخر هي بشأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل الى الاحساس وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لان العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا : « ليس الخبر كالمعاينة » و « لا الظن كاليقين » فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس ، أي الأنس من جهة الاستحكام والقوة •

وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه تقدم الالف كما قيل : « ما الحب إلاّ للحبيب الأول » ، ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولاً عن طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة النظر والروية فهو إذن أمسّ بها رحما وأقوى لديها ذمما وأقدم لها صحبة وآكد عندها حرمة • فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك

غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف الحجاب ويقول : هاهو ذا فأبصره تجده على ما وصفت .

والمعاني التي يجيء التمثيل في عقبها على ضربين :

الأول : غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه واستحالة وجوده وذلك نحو قول المتنبي :

فان تفق الأنامَ وأنت منهم   فان المِسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

الآخر : أن لايكون المعنى الممثل غريبا يحتاج في دعوى كونه على الجملة الى بينة وحجة واثبات كقول الشاعر :

فأصبحتُ من ليلى الغداة كقابضٍ   على الماء خانته فروجُ الأصابعِ

فقائدة التمثيل وسبب الانس في الضرب الأول بيّن لائح لأنه يفيد فيه الصحة وينفي الريب والشك ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف وتهجم المنكر وتهكم المعترض . وأما الضرب الثاني فان التمثيل وان كان لايفيده في هذا الضرب من الفائدة فهو يفيد أمراً آخر يجري مجراه وذلك أن الوصف كما يحتاج الى اقامة الحجة على صحة وجوده في نفسه وزيادة التثبت والتقرير في ذاته وأصله فقد يحتاج الى بيان المقدار فيه ووضع قياس من غيره يكشف عن حدّه ومبلغه في القوة والضعف والزيادة والنقصان .

وسبب ثالث موجب لهذا الحسن وذلك التأثير هو أن لتصوير الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله والتقاط ذلك له من غير محلته واجتلابه اليه من النيف البعيد بابا آخر من الظرف واللطف ومذهبا من مذاهب الاحسان لايخفى موضعه من العقل . وأحضر شاهد على هذا أن تنظر الى تشبيه المشاهدات بعضها ببعض فان التشبيهات سواء كانت مشتركة أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل تراها لايقع بها اعتداد ولايكون لها موقع من السامعين ولا تهز ولاتحرك حتى يكون الشبه مقرباً بين شيئين مختلفين في

الجنس • فتشبيه العين بالنرجس عامي مشترك معروف في أجيال النّاس جار في جميع العادات ، وأنت ترى بعد مابين العينين وبينه من حيث الجنس ، وتشبيه الثريا بما شبهت به من عقود الكرم المنور ، والاجسام المفضض والوشاح المفصل وأشباه ذلك خاصي ، والتباين بين المشبه والمشبه به في الجنس على ما لايخفى • وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت الى النفوس أعجب وكانت النفوس لها أطرب وكان مكانها الى أن تحدث الاريحية أقرب • وذلك أن موضع الاستحسان ومكان الاستظراف والمثير للدفين من الارتياح والمتألف للناظر من المسرّة والمؤلف لأطراف البهجة انك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ومؤتلفين مختلفين وترى الصورة الواحدة في السماء والارض وفي خلقة الانسان وخلال الروض ، وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة وتتبعت هذه اللمحة ، ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله :

ولا زوردية تزهو بزرقتها ... بين الرياض على حُمْرِ اليواقيتِ

كأنّها فوق قامات ضَعُفْنَ بها ... أوائلُ النار في أطرافِ كبريتِ

أغرب وأعجب وأحق بالولوع وأجدر من تشبيه النرجس بمداهن درّ حشوهن عقيق ، لأنه أراك شبها لنبات غض يرف وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف من لهب نار في جسم مستَوْلٍ عليه اليبس وباد فيه الكلف • ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر وكان بالشغف منه أجدر •

واذا ثبت هذا الأصل وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ويثير الكامن من الاستظراف فان التمثيل أخص شيء بهذا الشأن وأسبق جارٍ في هذا الرهان • وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق

والمغرب ويجمع مابين المشئم والمعرق ، وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة وينطق لك الأخرس ويعطيك البيان من الأعجم ويريك الحياة في الجماد ويريك التئام عين الاضـــداد فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين •

وسبب رابع لهذا الحسن والتأثير هو أن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهـو في الاكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك الى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه ، وما كان منه ألطف كـان امتناعه عليك أكثـر وإباؤه أظهـر واحتجابه أشد • ومن المركوز في الطباع ان الشيء إذا نيـل بعد الطلب له أو الاشتياق اليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالمـزية أولى فكان موقعه من النفس أجل وألطف وكانت به أضن وأشغف ، ولذلك ضرب المثل لكل مالطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال القطامي :

وهنّ يَنْبذْنَ من قول يُصِبْنَ به مواقعَ الماء من ذي الغُلّة الصادي

وأشباه ذلك مما ينال بعد مكابدة الحاجة اليه وتقدم المطالبـة مـن النفس بـه •

ومضى عبدالقاهر في تحليل التمثيل وكشف عن جماله وتأثيره فـي النفوس ، وعرض لفصاحته وبلاغته وقال إن فصاحته عقليـة أو معنوية لا لفظية ، وذلك « انه ليس من عاقل يشك إذا نظر في كتاب يزيد بن الوليد الى مروان بـن محمد حين بلغـه أنه يتلكأ في بيعته : « أما بعد فانـي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فاذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهمـا شئـت والسلام » • يعلم أن المعنى انه يقول له : « بلغني أنك في أمر البيعـة بـين رأيين مختلفين ، ترى تارة ان تبايع وأخرى أن تمتنع من البيعـة ، فـاذا أتاك كتابي هذا فاعمل على أي الرأيين شئت » • وان لم يعرف ذلك من لفظ التقديم والتأخير أو من لفظ الرجل ولكن بان علم أنه لا معنى لتقديم الرجل وتأخيرها من رجل يدعى الى البيعة ، وان المعنى على أنه أراد أن

يقول : «إن مثلك في ترددك في أن تبرح وبين أن تمتنع مثل رجل قائم ليذهب في أمر فجعلت نفسه تريه تارةً أنَّ الصواب في أن يذهب وأخرى أنه في أنْ لايذهب فجعل يقدم رجلاً تارة ويؤخر اخرى » • وهكذا كل كلام كان ضرب مثل لايخفى على من له أدنى تمييز أن الأغراض التي تكون للناس في ذلك لاتعرف من الالفاظ ولكن تكون المعاني الحاصلة من مجموع الكلام أدلة على الأغراض والمقاصد »[٣٠] •

ومثال آخر هو الاستعرة التي تعدّ أهم صور التخييل ، وقد بحثها البلاغيون بصور مختلفة ، ولكن منهج السكاكي في بحثها ساد الدراسات البلاغية وأحالها قواعد لاتغني كثيرا وأقساما يضل الدارس فيها • وكان معاصره ابن الاثير أبعد منه عن القواعد والتقسيمات فقد نظر اليها نظرة تعتمد على الذوق ولم يحكم فيها الاصول المنطقية والتعليلات العقليه ، وعلق على قوله تعالى : « الر كتابٌ أنزلناه اليك لتخرجَ الناسَ من الظلماتِ الى النـور »[٣١] بقولـه :

« فالظلمات والنور استعارة للكفر والايمان أو للضلال والهدى والمستعار له مطويّ الذكر كأنه قال : لتخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمة الى الايمان الذي هو كالنور »[٣٢] • وقال بعد أن ذكر أبيات ديك الجن :

لما نظرتِ اليَّ عن حَدَقِ المها وبَسَمْتِ عن متفتحِ النوّارِ
وعَقَدْتِ بينقضيبِبانٍ أهيفٍ وكثيبِ رملٍ عقدةَ الزنّارِ
عفّرتُ خدي في الثرى لك طائعاً وعزمْتُ فيك على دخول النارِ

وهذه الأبيات لاتجد لها في الحسن شريكا ولأن يسمى قائلها شحروراً أوْلى من أنْ يسمى ديكا »[٣٣] • وقال بعد أبيات ديك الجن الأخرى :

(٣٠) دلائل الاعجاز ص ٣٣٨ •
(٣١) سورة ابراهيم ، الآية ١ •
(٣٢) المثل السائر ج١ ص٣٧٤ • (٣٣) المثل السائر ج١ ص ٣٧٧ •

لا ومكانِ الصليبِ في النحرِ منهُ ومجرى الزنّار في الخصْرِ
والخال في الخـد إذ أشبّهـه وَرْدَةَ مِسْك على ثرى تِبْرِ
وحاجب مُذْ خطَّه قلمُ الـ حُسْن بحبر البهـاء لا الحِبْرِ
واقحـوان بفيـك منتظـم على شبيـه من رائـق الخمر

« فالبيت الرابـع هو المخصوص بالاستعارة ، والمستعـار له هـو الثغر والريـق »[٣٤] .

وليس في هذا التحليل عمق ولكنه يعتمد على الذوق ويفصح عن الهدف بأقرب عبارة . وكان تحليل عبدالقاهر للاستعارة أعمق وأقرب الى المنهج اللغوي المعتمد على العلاقات بين الكلم ، قال عن : « وسالت بأعناق المطيّ الأباطح » : « وليست الغرابة في قوله : « وسالت بأعناق المطي الاباطح » على هذه الجملة وذلك انه لم يغرب لان جعل المطي في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح فان هذا شبه معروف ظاهر ، ولكن الدقـة واللطف في خصوصية أفادها بأن جعل « سال » فعلاً للأباطح ثـم عدّاه بالباء ثم بأن أدخل الاعناق في البيت فقال : « بأعنـاق المطي » ولم يقل بالمطي ، ولو قال : « سالت المطي في الأباطح » لم يكن شيئاً . وكذلك الغرابة في البيت الآخر ليس في مطلق معنى «سال» ولكن في تعديته بـ « على » والباء ، وبأن جعل فعلاً لقوله « شعاب الحي » . ولولا هذه الأمور كلها لم يكن هذا الحسن ، وهذا موضع يدق فيه الكلام »[٣٥] . وهـذا تحليل لغوي أظهر روعة الاستعارة . وقد حلل عبدالقاهر هذه الاستعارة تحليلاً آخر وصور المعنى مجسداً في الأبيات :

ولما قضينـا من منى كلّ حاجةٍ ومسّحَ بالاركان من هـو ماسـحُ
وشُدّت على دُهْم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هـو رائحُ
أخذْنا بأطراف الاحاديث بيننـا وسالـت بأعناق المطيّ الأباطـحُ

(٣٤) المثل السائر ج١ ص ٣٧٧ . (٣٥) دلائل الاعجاز ص ٦٠ .

قال : « انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفاً إلاّ الى استعارة وقعت موقعها وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى الى القلب وصول اللفظ الى السمع واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الاذن . وإلاّ الى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد ، والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد وشيء داخلَ المعاني المقصودة مداخلة الطفيلي الـذي يستثقل مكانه والاجنبي الذي يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذي يفتقر معه السامع الى تطلب زيادة بقيت في نفس المتكلم فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها واعتمـد دليل حال غير مفصح أو نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح . وذلك ان أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر انه قال : « ولما قضينا من منى كل حاجه » فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج مـن فروضهـا وسننها من طريق أمكنه أن يقصّر معه اللفظ وهو طريقة العموم ثم نبّه بقوله : « ومسّح بالاركان من هو ماسح » على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ، ثم قال : « أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا » فوصل بذكر مسح الاركان ما وليه من زمّ الركاب وركوب الركبان . ثم دلّ بلفظة « الأطراف » على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث أو ماهو عادة المتظرفين من الاشارة والتلويح والرمز والايماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس وقوة النشاط وفضل الاغتباط كما توجبه ألفة الاصحاب وأنسة الاحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الاياب وتنسّم روائح الأحبة والاوطان واستمـاع التهاني والتحايا مـن الخـلاّن والاخوان ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه ، فصرّح أولاً بما أومأ اليه فـي الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل وفي حال التوجـه الى المنازل ، وأخبر بعد بسرعـة السير ووطاءة الظهر ، إذ جعل

سلامة سيرها بهم كالماء تسيل به الاباطح ، وكان في ذلك ما يؤكد ما قبسه لان الظهور اذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك في نشاط الركبان . ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا » ثم قال : « بأعناق المطي » ولم يقل « بالمطي » لان السرعة والبطء يظهران غالب في أعناقها ويبين أمرهما من هواديها وصدورها ، وسائر أجزائها تستند اليها في الحركة وتتبعها في الثقل والخفة ويعبر عن المرح والنشـــــاط إذا كانا في أنفسها بأفاعيل لها خاصة في العنق والرأس ويدل عليهمـا بشمائل مخصوصة في المقـاديم »[٣٦] .

هذه صورة لتحليل عبدالقاهر وان كان متأثراً فيه بابـن جني[٣٧] ، وقد أظهر فيه روعة الاستعارة والعلاقة بين الجمل التي أحـــدثت مشاعد لايحس بها إلا من شهد موسم الحج وذاق حلاوة الشـــوق الى الأهل والاوطان . وكان ابن قتيبة قد نظر الى الأبيات نظرة تختلف عـن نظـرة ابن جني وعبدالقاهر ورأى أنها مما حسن لفظه وطاب وليس وراء ذلك كبير معنى ، قال : « هذه الالفاظ ـ كما ترى ـ أحسن شيء مخارج ومطـالع ومقاطع ،واذا نظرت الى ما تحتها من المعنى وجدته :ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا ابلنا الانضاء ومضى الناس لاينتظر الغادي الرائح ، ابتـدأنا في الحديث وسارت المطيّ في الأبطح »[٣٨]

وفرق كبير بين هذا التحليل وتحليل ابن جنـي وعبدالقاهـر اللذين جسّدا المعنى تجسيدا . وجعلا السامع يهتز للأبيات ويتريه الشـــوق الى موقف الحج وطواف الوداع والتأهب للعودة الى الأهل والوطن . وفي ذلك تأثير للاستعارة التي تجلت في الأبيات ، وهي استعارة جاءت من ارتبـاط الكلم وأخذ بعضه بأطراف بعضه الآخر .

(٣٦) اسرار البلاغة ص٢٢ ـ ٢٣ .
(٣٧) الخصائص ج١ ص ٢١٨ ـ ٢٢٠ .
(٣٨) الشعر والشعراء ج١ ص ٦٦ـ٦٧ .

وليست فنون البديع بأقل أهمية من فنون البيان ، فقد حفل الشعر الجاهلي وكتاب الله العزيز وحديث الرسول الكريم والشعر الاسلامي بصور كثيرة منه ، فالمطابقة والمذهب الكلامي والمبالغة وغيرها من المحسنات المعنوية يتطلبها المعنى ويقتضيها التعبير، والجناس والسجع والموازنة وغيرها من المحسنات اللفظية تثير في النفس مالا يثيره الكلام حينا يجيء خلواً من عذب الالفاظ . ولعل الذي جعل الأدباء والنقاد ينفرون من صور البديع هو ما أسرف فيه المتأخرون من الاكثار منها والتسابق في ايجاد ألوان جديدة لايقبلها الذوق الرفيع ، وكان الاوائل قد اكتفوا بما له أثر في الكلام ، ويتضح ذلك في كتاب « بديع القرآن » لابن أبي الاصبع المصري الذي جمع كثيراً من فنون البديع التي جاءت في كتاب الله وكان لها موقع حسن وبيان بليغ . وأهمل الخطيب القزويني كثيراً مما كان شائعا في عصره لانه لم يجد فيها روعة وجمالا ، قال بعد أن انتهى من بحث البديع : « وبقيت أشياء يذكرها فيه بعض المصنفين منها ما يتعين اهماله لأحد سببين لعدم دخوله في البلاغة نحو مايرجع في التحسين الى الخط دون اللفظ مع انه لايخلو من التكلف ككون الكلمتين متشابهتين في الخط وكون الحروف منقوطة او غير منقوطة ونحو ما لا أثر له في التحسين كما يسمى الترديد . أو لعدم جدواه نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين مما هو داخل فيما ذكرناه كما سماه الايضاح فانه في الحقيقة راجع الى الاطناب . أو خلط فيه ، كما سماه حسن البيان»[٣٩] .

ومثال فنون البديع الجناس أو التجنيس وهو مما اهتم به البلاغيون والنقاد ، ووضعه ابن المعتز ثاني فنون بديعه الخمسة وقال : « هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام»[٤٠] . واهتم به عبدالقاهر وأشار الى بعض أنواعه وذكر أنّه لايحسن إلا اذا اقتضاه المعنى وتطلبه . قال : « فانك لاتجد تجنيسا مقبولا ولا سجعاً حسنا حتى يكون المعنى هو الذي

(٣٩) الايضاح ص ٤٠١ . (٤٠) البديع ص٢٥ .

طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لاتبتغي به بدلاً ولا تجـد عنـه حولا • ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم الى اجتلابه وتأهب لطلبه ، أو ماهو لحسـن ملاءمته ــ وإن كان مطلوبا ــ بهذه المنزلةوفي هذهالصوة وذلك كما يمثلون به أبداً من قول الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ وقد سئل عن النبيد فقال : « أجمع أهل الحرمين على تحريمه » • ومما تجده كذلك قول البحتري :

يعشى عن المجد الغبيّ ولـــن ترى   في سؤدد أربأ لغـير أريـب

وقال : « فان ساعدك الجد كما ساعد في قوله : « أوْدعاني أمت بما أوْدَعاني » وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله :

وأنجدتمْ من بعد إتهامِ داركم   فيادمْعُ أنْجدني على ساكني نَجْدِ

فذاك ، وإلاّ أطلقت ألسنة العيب وأفضى بك طلب الاحسان من حيث لم يحسن الطلب الى أفحش الاساءة واكبر الذنب » •وعلل جـال الجناس بقوله : « أما التجنيس فانك لاتستحسن تجانس اللفظتين إلاّ اذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميداً ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا • أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله:

ذَهَبَتْ بمذهبه السماحةُ فالتوتْ فيه الظنونُ أمَذْهَبٌ أم مُذْهَبُ

واستحسنت تجنيس القائل : « حتى نجا من خوفه وما نجا » وقول المحـدث :

ناظراه فيما جنـــى ناظـــراه   أوْ دعاني أمُتْ بما أوْدعانـي

لأمر يرجع الى اللفظ ؟ أم لانك رأيت الفائدة ضعفت عن الاول وقـــويت في الثاني ؟ ورأيتك لم يزد بـ «مَذْهَب» و « مُذْهَب » على ان أسمعك حروفا مكررة تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ؟ ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم

يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ؟ فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصا المستوفي منه المتفق في الصورة من حلي الشعر ومذكورا في أقسام البديع » ، وقال « واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنيس وجعلتها العلة في استجابة الفضيلة وهي حسن الافادة مع أن الصورة صورة التكرير والاعادة وان كانت لاتظهر الظهور التام الذي لايمكن دفعه إلا في المستوفي المتفق الصورة كقوله :

ما مات من كَرَم الزمن فانه يحيا لدى يحيى بن عبدالله

أو المرفو الجاري هذا المجرى كقوله :

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعاني أمت بما أودعاني

فقد تتصور في غير ذلك من أقسامه أيضا . فمما يظهر ذلك فيه ماكان نحو قول أبي تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

وقول البحتري :

لئن صَدَفَتْ عنّا فَرُبّتَ أنفُسٍ صوادٍ الى تلك الوجوه الصوادف

وذلك انك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من « عواصم » والباء من « قواضب » انها هي التي مضت وقد أرادت أن تجيئك ثانية وتعود اليها مؤكدة حتى اذا تمكن في نفسك تمامها ووعى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول وزلت عن الذي سبق من التخيل ، وفي ذلك ماذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال»[41] . وهذا أصدق تعليل لجمال الجناس وذلك حينما يتطلبه المعنى ويستدعيه ، وقد سار القزويني على خطى عبدالقاهر في الحديث عن تأثير هذا الفن وجماله[42] . ونقل السبكي عن صاحب

(٤١) أسرار البلاغة ص ٦ــ ١٩ ، دلائل الاعجاز ص ٤٠١ــ٤٠٣ .

(٤٢) الايضاح ص ٣٨٤ .

« كنز البلاغة » أن أهمية التجنيس هي الميل الى الاصغاء اليه ، فان مناسبة الالفاظ تحدث ميلاً واصغاءً اليها . ولأن اللفظ المشترك اذا حمل على معنى ثم جاء المراد به معنى آخر كان للنفس تشوّق اليه[٤٣] . ولو نظر البلاغيون الى هذا الفن كما نظر عبدالقاهر اليه ما أصبح فناً ثقيلاً ، ولأخذ موقعه الصحيح الذي يقتضيه المعنى ويتطلبه الجرس البديع .

وحاول المحدثون أن يعللوا جمال هذا الفن فقال الدكتور ابراهيم سلامة إنه لايخرج عن نظرية تداعي المعاني وتداعي الالفاظ في علم النفس . فهناك ألفاظ متفقة كل الاتفاق أو بعضه في الجرس وأختها في المعنى كما يولد المعنى الأول معنى ثانيا وثالثا . وهذه الناحية النفسية هي التي تشرح لنا كيف يقع التجنيس للشاعر دون معناه إذا كان ملماً بلغته محساً بذوقها ، عالماً بتصاريفها واشتقاقها[٤٤] . وأرجع علي الجندي جماله الى ثلاثة أسباب :

الأول : تناسب الالفاظ في الصورة كلها أو بعضها ، وهو مما يطمئن اليه الذوق ويرتاح له .

الثاني : التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً كاملاً أو ناقصا فيطرب الأذن ويوقظ النفس ويهزّ أوتار القلوب .

الثالث : التلاعب الاخاذ الذي يلجأ اليه المجنس لاختلاب الاذهان واختداع الافكار[٤٥] .

ولا يكاد كلام هذين الباحثين يخرج عما ذهب اليه عبدالقاهر وإن استخدما المصطلحات الحديثة كتداعي الألفاظ وتداعي المعاني والتجاوب

---

(٤٣) عروس الافراح ج٤ ص ٤١٢ .
(٤٤) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ١١٧ .
(٤٥) فن الجناس ص ٢٩ .

الموسيقـي .

ومثال آخر من فنون البديع هو « حسن التعليل » وذلك « أن يُدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقـي »[٤٦] . وهـذا الفن من التخييل عند عبدالقاهر ، قال : « ونوع آخر وهـو أن يدعى فـي الصفـة الثابتة للشيء انه انما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجـع إلى تعظيـم الممدوح أو تعظيم أمر من الأمور »[٤٧] . ومن الغريب في ذلك قول الشاعـر :

لو لم تكن نيةُ الجوزاء خدمتَه   لما رأيتَ عليها عِقْدَ مُنْتَطِقِ

فقد عَلَّل اجتماع النجوم حول الجوزاء بأنها استعداد لخدمة الممدوح وإلاّ لما انتظم ذلك الانتظام . ومنه قول المتنبي :

لم تَحْكِ نائلَكَ السحابُ وانما   حُمَّتْ به فصبيبها الرُّحضاءُ

فالسحاب لم تنزل المطر لأنها حُمَّت من نائل الممدوح وكرمه فكانت كالعرق الذي يتصبب من جسم المحموم . وقد تكون للشيء علـة مشهـورة عن طريـــق العادات والطباع ، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ويضع له علة أخرى كقول المتنبي :

ما بـه قَتْلُ أعاديه ولكـن   يتقي إخلافَ ما ترجـو الذئابُ

والمعروف ان قتل الرجل لعدوه يكون للدفاع عـن النفس أو حماية الوطن ولكن المتنبي لم يذكر هذه العلة وانما قال إنّ سيف الدولة يقتل أعاديه لأجل إطعام الذئـاب التي وعدها بـأن يقدم لها لحـم الاعداء ، وهـو يفعل ذلك لكي لايخلف وعـده .

---

(٤٦) الايضاح ص ٣٦٧ .

(٤٧) أسرار البلاغة ص ٢٥٦ .

ودراسة عبدالقاهر لهذا الفن من أبدع الدراسات القديمة وأحسنها ، ولم يضف اليها أحد مايكسبها جدة أو يطورها ، وكل ما فعله المتأخرون أنهم لخصوا كلامه وأمثلته ، فالقزويني ــ مثلاً ــ قسّم حسن التعليل الى أربعة أقسام ؛ لان الوصف إما ثابت قصد بيان علته أو غير ثابت أريد اثباته ، والاول اما أن لايظهر له في العادة علة أو يظهر له علة غير المذكورة ، والثاني اما ممكن أو غير ممكن . وكلام عبدالقاهر أقرب من هذا الكلام الى دلالة حسن التعليل لانه لم يقسم هذا الفن تقسيما عقليا ولم يدخل الممكن وغير الممكن ؛ لان الامر يتعلق بالتخييل ، والتخييل ربما لايكون ممكنا .
ولذلك جاءت دراسة عبدالقاهر طريفة لهذا الفن الذي يرتبط بالخيال والى ذلك أشار المحدثون فقال حامد عبدالقادر : « أما التعليل الأدبي وهو المسمى بحسن التعليل فأساسه الخيال والعاطفة ، والغرض منه التأثير في الوجدان وإدخال السرور على السامع بمدحه أو التخفيف من وقع مصيبة أصابته أو شدة ألم ألمّ به ... أما التعليل العلمي فمردّه الى التعقل والتدبر العقلي والبحث في طبائع الأشياء » . وفرق بينهما من جانب آخر فقال : « إن التعليل العلمي تعليل واقعي موضوعي يرجع فيه العالم الى الواقع والحقيقة ، وان التعليل الأدبي تعليل ذاتي نفسي يرجع فيه الأديب الى ذوقه الفني وخياله الأدبي وعاطفته الجمالية »(٤٨) . وهذه نزعة فنية تظهر ما في فنون البديع من معان وصور وتكشف عما وراءها من دلالات غابت عن كثيرين .

(٤٨) دراسات في علم النفس الادبي ص ٤٩ــ٥١ .

المصـادر :

١ ـ اسرار البلاغة ـ عبدالقاهر الجرجاني . تحقيق ريتر . استانبول ١٩٥٤م.
٢ ـ الايضاح ـ الخطيب القزويني . القاهرة .
٣ ـ البديع ـ ابن المعتز . طبعة كراتشكوفسكي . لندن ١٩٣٥م .
٤ ـ البديع في نقد الشعر ـ اسامة بن منقذ . تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي والدكتور حامد عبدالمجيد . القاهرة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠م .
٥ ـ بديع القرآن ـ ابن أبي الاصبع المصري . تحقيق الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م .
٦ ـ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ـ الدكتور ابراهيم سلامة . القاهرة ١٩٥٢م .
٧ ـ التلخيص ـ الخطيب القزويني . تحقيق عبدالرحمن البرقوقي . القاهرة ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣٢م .
٨ ـ حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني ـ محمد بن محمد الدسوقي . (مطبوع في شروح التلخيص ـ القاهرة ١٩٣٧م) .
٩ ـ الخصائص ـ ابن جني . تحقيق محمد علي النجار . القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .
١٠ ـ دراسات في علم النفس الادبي ـ حامد عبدالقادر . القاهرة ١٩٤٩م .
١١ ـ دلائل الاعجاز ـ عبدالقاهر الجرجاني . تحقيق محمد رشيد رضا ـ القاهرة ١٣٧٢هـ .
١٢ ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة . تحقيق أحمد محمد شاكر . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٦م.
١٣ ـ عروس الافراح ـ بهاءالدين السبكي (مطبوع في شروح التلخيص) .
١٤ ـ فن الجناس ـ علي الجندي . القاهرة ١٩٥٤م .
١٥ ـ فن القول ـ أمين الخولي . القاهرة ١٩٤٧م .
١٦ ـ الكشاف ـ جارالله الزمخشري . القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م.
١٧ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياءالدين بن الاثير . تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد . القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م .
١٨ ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .
١٩ ـ المصباح ـ بدرالدين بن مالك . القاهرة ١٣٤١هـ .
٢٠ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكي . القاهرة ١٩٣٦م .
٢١ ـ المنزع البديع ـ أبو محمد القاسم السجلماسي . تحقيق علال الغازي. الرباط ـ المغرب ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م .
٢٢ ـ مواهب الفتاح ابن يعقوب المغربي . (مطبوع في شروح التلخيص) .

* * *

(٥)

البلاغة بين المنطق والتذوق

ليس ما أقوله اليوم جديداً فقد قلته امس وسأقوله غداً مادامت اللغة العربية خالدة كخلود العروبة والقرآن • وقد يكون القول أكثر نفعاً في هذه الأيام بعد أن أخذت البلاغة تنحسر في الدراسات الحديثة وخيل لبعضهم أنّ عهدها قد انتهى وأنه قد جاءت مقاييس جديدة هي أحسن مما كان العرب يحتاجون اليه، حتى اذا ظهرت البنيوية ودخلت الدراسات اللغوية والنقدية عاد الباحثون الى البلاغة العربية واتخذوا عبدالقاهر الجرجاني إماماً •

وليست البلاغة مما يُلقى حينا ويرجع اليه أحيانا ، لأنها « فن القول » الذي يقتبس الكلام العذب منه ويرجع اليه • وكان هذا الفن عمدة المفسر وزاد الأديب وارتبط منذ نشأته بالاعجاز وأصبح مَعْلماً من معالم الثقافة ، ولايكاد دارس ينأى عنه وإنْ آمن بما نقل الى العربية في عهود الازدهار • وما الصدود عنه إلا تنكر للاصالة وابتعاد عن السبيل القويم ، وليس تجديداً ما يشيع اليوم من قطيعة بينه وبين الدارسين ولا تحرراً ما يرسف في أغلاله قوم أضاعوا الماضي والحاضر فاذا هم في درب لايفضي الى مسارب النور •

---

* القيت هذه المحاضرة في مقر الاتحاد العام للادباء والكتاب العراقيين مساء يوم الاربعاء ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٤ الموافق ٢٧ صفر ١٤٠٥هـ وعرضت في تلفزيون بغداد مساء الثلاثاء ٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٤ وأثارت نقاشا في بعض المجلات والجرائد العراقية مثل مجلة الف باء وجريدة الجمهورية وجريدة بغداد الصادرة بالانكليزية ، ونشرت في مجلة آفاق عربية (آذار ١٩٨٥) — العدد الثالث •

لقد ظنوا أن البلاغة هي ماتقرؤه في كتب المتأخرين وأنها قواعد صارمة صيغت بأسلوب عقيم ، وأن لاسبيل الى التطوير والتجديد وما علموا أنها مرّت بمراحل كثيرة تطورت خلالها وتلونت بألوان مختلفة وطبعتها مؤثرات انبثق بعضها من البيئة العربية كالقرآن الكريم واللغة والنحو والأدب ، وازدهر بعضها في ظل العلوم المستحدثة كالمنطق والفلسفة وعلم الكلام .
وكان هذان المؤثران : الأصيل والمستحدث سبباً في ظهور اتجاهين مهمين في البلاغة العربية هما « المدرسة الكلامية » و « المدرسة الأدبية » . وأبو هذين الاتجاهين أو المدرستين قديم وقد نبّه أبو هلال العسكري (–٣٩٥هـ) اليهما وقال : « وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين وانما قصدت فيه قصد صنّاع الكلام من الشعراء والكتاب فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل »[1] . وقال جلال الدين السيوطي (– ٩١١هـ) وهو يترجم لنفسه « ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة »[2] . ولو لم تكن معالم هذين الاتجاهين واضحة ما صرّح أبو هلال بذلك منذ عهد مبكر ولا افتخر السيوطي بأنه درس البلاغة على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة وعلم الكلام . وذلك يؤكد وقوع البلاغة بين المنطق والتذوق ووضوح بعض السمات لكل اتجاه ، ولعل أهم ماتتصف به طريقة الفلاسفة العناية بالتحديد والتعريف والتقسيم المنطقي والاهتمام بجعل التعريف جامعا مانعا ، واستعمال أساليب الفلسفة والمنطق في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها واستعمال الالفاظ الفلسفية والمنطقية والاقلال من الأمثلة الأدبية وتذوقها واطلاق الاحكام العقلية . وأهم ما تتسم به طريقة العرب والبلغاء الابتعاد عن التحديد والتقسيم وإن جنحت الى ذلك فعلى غير تعمق وشذاذ والتزام للتصحيح التام للأصول المنطقية .

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٩ .
(٢) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج١ ص ١٥٧ .

وتجنب اقتباس المنطقيات ومسائل الفلسفة ، وإطلاق الأحكام الأدبية، ولذلك كانت تعلل مرة ولاتستطيع التعليل مرةأخرى ، لانها ترجع الروعة والجمال الى الذوق والاحساس الفني[٣] .

إن هذين الاتجاهين يمثلان واقع البلاغة العربية في عهد ازدهارها ولكن هل كانت بينهما قطيعة ؟ وهل كان كل اتجاه يسعى بعيداً عن الاتجاه الآخر ؟

لقد كان البلاغي يمزج بين المذهبين في كثير من الاحيان ، لأن الاعتماد على القاعدة وحدها أو على الذوق وحده أمر لايتحقق في الدراسات المبنية على نظرة علمية ومنهج دقيق ، والبلاغة والنقد من هذه الدراسات وليسا أحكاما تطلق من غير وعي أو برهان . فالجاحظ (ــ ٢٥٥هـ) ــ وهو رأس فرقة اعتزالية سميت الجاحظية ــ يميل الى الناحية الأدبية ويحكم الذوق ، وأبو هلال الذي حاول الابتعاد عن طريقة المتكلمين اتجه نحوهم في العرض والتقسيم . وكان عبدالقاهر الجرجاني (ــ ٤٧١هـ او ٤٧٤هـ) يميل الى المدرسة الكلامية في كتابه « دلائل الاعجاز » ويتجه الى المدرسة الأدبية في كتابه « أسرار البلاغة » ويمزج بينهما فيكثير من الاحيان . وكان يحيى بن حمزة الطوي (ــ ٧٤٩هـ) قد جمع بين الاتجاهين في كتابه « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الاعجاز » . ولكن على الرغم من هذا الامتزاج كانت سمات كل اتجاه واضحة ، ولعل الموازنة بين متعاصرين هما السكاكي (ــ٦٢٦هـ) وابن الاثير (ــ٦٣٧هـ) توضح أوجه الاختلاف بين المدرستين .

قسّم الاول البلاغة الى علمين متميزين هما : علم المعاني وعلم البيان ، وحصر موضوعات كل علم حصراً منطقيا والحق بهما البديع الذي عدّه وجوها يؤتى بها لتزيين الكلام ، وأدخل الأساليب الكلامية والفلسفية في

---

(٣) للتفصيل ينظر : البلاغة عند السكاكي ص ١٠١ ، القزويني وشروح التلخيص ص ٣٥ ، دراسات بلاغية ونقدية ص ١٤ ، البلاغة العربية ص ٢٥ ، البلاغة والتطبيق ص٣٠ .

معالجة القضايا الأدبية ، وقسّم الثاني البلاغة الى الصناعة اللفظيــة وهي الالفاظ وبعض فنون البديع كالسجع والتجنيس والترصيع ولزوم ما لا يلـزم والموازنة واختلاف صيغ الالفاظ واتفاقها والمماثلة اللفظية والمنافـرة بـين الالفاظ في السبك ، والصناعة المعنوية وهي الاستعارة والتشبيـه والتجريد والالتفات والايجاز والاطناب والتكرار والكناية والسرقات وغيرها ، ولم يحصر الموضوعات حصراً منطقيا ولم يدخل الأساليب الكلاميـة فـي بحث القضايا الأدبية لانه كان ثائراً على تلك الأساليب وكان يعدّ ابـن سينـا والفارابي وأمثالهما رجالاً أضلهم أرسطو وأفلاطون .

أما معالجة الموضوعات فتتضح في عرض الاستعارة عندهما إذ بـدأ السكاكي هذا الفن الذي أدخله في علم البيان بتعريفه قائلا : « هـي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدّعيـا دخول المشبه في جنس المشبـه بـه دالاً على ذلك باثباتك للمشبه ما يخص المشبه به »[٤] . ويدخل في هذا التعريف القسمان الاساسيان للاستعارة ــ هما : الاستعـارة التصريحية والاستعارة المكنية ، وقد أوضح ذلك بالتمثيل الذي ذكره بعـد التعريف فقال : « كما تقول في الحمام أسد وأنت تريد به الشجاع مدعيـاً أنه من جنس الاسود فتثبت للشجاع ما يخص المشبـه به وهو اسم جنس مع سد طرق التشبيه بافراده في الذكر » ، وهذا مثال التصريحية ، أما المكنية فمثالها كما قال : « أو كما تقول إن المنية أنشبت أظفارها وأنت تريد بالمنيـة السبع بادعاء السبعية لها وانكار أن تكون شيئا غير سبع فتثبت لها ما يخص المشبه به وهو الأظفار » ، ثم تحدث عن أقسامها المختلفة وذكر لكل لـون أمثلة قليلة اقتطع معظمها من أمثلة عبدالقاهر .

وبدأ ابن الاثير بحث الاستعارة بالكــلام على رجوعها الى المعنى لا اللفظ وقسّم المجاز الى قسمين : توسع في الكلام وتشبيه ، والتشبيه

(٤) مفتـاح العلوم ص ١٧٤ .

ضربان : تشبيه تام وتشبيه محذوف ، فالتشبيه التام أن يذكر المشبه والمشبه به ، والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه دون المشبه به ، وفــرّق بــين الاستعارة والتشبيه المحذوف الأداة ، وعرّف الاستعارة بقوله : « والذي عندي من ذلك أن يقال : حدّ الاستعارة نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طيِّ ذكر المنقول اليه ، لانه إذا احترز فيه هــذا الاحتراز اختص بالاستعارة وكان حدّاً لها دون التشبيه ، وطريقه انك تريد تشبيه الشيء بالشيء مظهراً ومضمراً وتجيء الى المشبه فتعيره اسم المشبه بــه وتجريه عليه »[٥] . ولم يقسم الاستعارة الى أقسامها المعروفة وانمــا تحدث عــن أقسام المجاز التي ذكرها الامام الغزالي وقال إنها ترجع الى ثلاثة أنواع : التوسع والتشبيه والاستعارة . ثم بدأ بالأمثلة التــي يستفيد منهــا المتعلم ما لا يستفيده من ذكر الحدّ والحقيقة ، وهي أمثلة كثيرة بدأها بقوله تعالى: « الر كتاب أنزلناه اليك لتخرجَ الناسَ مــن الظلمات الى النور[٦] ثم قال: « فالظلمات والنور استعارة للكفر والايمان أو للضلال والهدى ، والمستعار له مطويّ الذكر كأنه قال : لتخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمــة الى الايمان الذي هو كالنور »[٧] . وهــذا تحليل واضــح لقوله تعــالى يبيّن الاستعارة فيــه بلا استخــدام للأساليب العقليــة أو الكــلامية في العرض والتأويل . وقال معلقاً على ابيات ديك الجن :

لما نظرتِ اليَّ عــن حَدَقِ المهــا وبَسَمْتِ عن متفتّح النــوّار
وعَقَدْتِ بين قضيبِ بانٍ أهيــفٍ وكثيبِ رَمْلٍ عقدةَ الــزنّارِ
عفّرتُ خدي في الثرى لــك طائعاً وعزمْتُ فيك على دخولِ النــارِ

---

(٥) المثل السائر ج١ ص ٣٦٥ .
(٦) ســورة ابراهيــم ، الآية ١ .
(٧) المثل السائر ج١ ص ٣٧٤ .

« وهذه الأبيات لاتجد لها في الحسن شريكا ، ولأن يسمى قائلها شحرورا أو'لى من أن يسمى ديكا»[٨] • وقال عن أبيات ديك الجن أيضا :

لا ومكانِ الصليب في النَّحْرِ مِنْكِ ومجرى الزنّار فـي الخَصْـرِ
والخال في الخـد إذ أشبهـه وردةَ مِسْكٍ على ثرى تِبْـرِ
واقحـوانٍ بفيكِ منتظـمٍ على شبيهٍ مـن رائـق الخمـر

« فالبيت الرابـع هو المخصوص بالاستعارة ، والمستعار له هو الثغـر والريـق »[٩] •

وقال عن بيت البحتري :

وصاعقةٍ في كفه تنكفـي بهـا على أرؤُسِ الأعداء خمْسُ سحائبِ

« وهذا من النمط العالي الذي شغلت براعة معناه وحسن سبكه عن النظـر الى استعارته ، والمراد بالسحـائب الخمس الاصابع »[١٠] • وقال السكاكي : « أظفر حين أراد استعارة السحائب لأنامل يمين الممدوح تفريعا على ما جـرت به العادة من تشبيه الجواد بالبحر الفياض تارة وبالسحب الهطال أخرى مذا صنع ؟ ذكر أن هناك صاعقة ثم قال : من « نصله »[١١] فبيّن أن تلك الصاعقة من نصل سيفه • ثم قال : « على أرؤس الأقران » ثم قال : « خمس » فذكر العدد الذي هو عدد جميع أنامل اليد فجعل ذلك كله قرينة لمـا أراد من استعارة السحائب للأنامل »[١٢] • وهذا الشرح أكثر توضيحا من كلام ابن الاثير وأقرب الى مدارك المتعلمين وان كان الاول يمسّ الجانب الفني مسّا

(٨) المثل السائر ج١ ص ٣٧٧ •
(٩) المثل السائر ج١ ص ٣٧٧ •
(١٠) المثل السائر ج١ ص٣٨٠ •
(١١) رواية السكاكي للبيت :
وصاعقة من نصلـه تنكفي بهـا على أرؤس الاقران خمس سحائب
(١٢) مفتاح العلوم ص ١٧٧ •

رقيقا ويترك السامع يسبح في دنيا الخيال . وتظهر الموازنة أنّ السكاكي يميل الى الحدّ الجامع المانع وهو مهم في الدراسات العلمية ، وأنّ ابن الاثير يومىء الى معنى الاستعارة من غير ضبط لأركانها وتحديد لأقسامها. وتبدو استفادة الاول من المصطلحات العلمية في تقسيم الاستعارة ، فهو يذكر التحقيق والتخييل والاصلي والتبعي والتصريح والكناية والقطع والحمل والحسي والعقلي ، وليس في كلام الثاني شيء من ذلك لأنه ينفر من هذه التقسيمات والمصطلحات . ويبدو الجور على الناحية الأدبية في أمثلة السكاكي فهو لايذكر إلا أبياتاً قليلة تمثل الاستعارة بأنواعها الثمانية التي حصرها ، وذكر ابن الاثير عشرات الأبيات والقطع الشعرية وعلّق عليها تعليقاً ذوقيا واكتفى بالعبارة الموحية واللمحة الدالة ولم يسرف في التأويل كما فعل السكاكي الذي أحال مباحث البلاغة ميداناً للجدل وعَرْض أساليب علم الكلام .

إنّ هذه الموازنة المجلى توضح اختلاف المدرسة الكلامية عن المدرسة الأدبية في التعريف والتقسيم والتحليل ، وهو اختلاف ينبع من طبيعة المنهج الذي اتبعته كل مدرسة ومن ثقافة المؤلف وذوقه ، وهو اختلاف تقتضيه الدراسات الأدبية لولا انه يسرف في التمحل ويمعن في التحكم العقلي عند أصحاب المدرسة الكلامية ويوغل في الايجاز .أو اللمحة عند أصحاب المدرسة الأدبية . وهذا الاختلاف لايؤدي الى القطيعة بين المدرستين أو يلغي دور البلاغة في تقويم الأدب ، فهي « فن القول » أو طرائق التعبير التي يعرض بها الأديب أفكاره ويصوغها في اسلوب متميز يسم صاحبه ويدل عليه دون غيره ، وهذا من أهم صفات الأديب ، أي انه صاحب اسلوب ، وليس غريبا أن يقال بعد ذلك : « إن الاسلوب من الرجل نفسه » أي هو طابع الكاتب وإمضاؤه على الفكرة . فالبلاغة مهمة للاديب ولن يَغني عنها النقد لانه يفقد جزءً من وسائله إذا ما أهملها أو أشاح عنها ، وكان العرب قدجمعوا بين البلاغة والنقد وعدّوهما فناً واحداً

ولا يكاد كتاب قديم ينفرد بالبلاغة أو النقد إلاّ ما كان من الكتب المتأخرة التي اتخذت السكاكي إماماً .

وفرّق المعاصرون بين البلاغة والنقد وقالوا : « إن البلاغة ترشدنا بقواعدها الى الطرق والوسائل التي تجعل كلامنا نافعاً ومؤثراً ، والنقد يضع لنا المقاييس العامة التي تقدّر بها ما في الكلام من فائدة أو قوة أو جمال »[١٣] . أي أن البلاغة أقرب الى الناحية الفنية ما دامت قواعدها تقود الى الابداع ، وأنها اكثر ما تُعنى بالاسلوب . أما النقد فيأتي دوره بعد أن تتم عملية الابداع ويُعْرَضُ الأدبُ على مقاييسه ليحكم عليه . وأنه يتناول المعاني والأساليب ، ولذلك كانت دائرته أوسع ميداناً . وليس هذا التفريق دقيقاً ، لان البلاغة وإن كانت ترشد الأديب غير أنها تشمل المعاني والأساليب أي أنها وسيلة مهمة من وسائل النقد . وقد حملت قديماً هذا المعنى وتحمله اليوم الدراسات المبنية على تحليل الكلام كما فعل عبدالقاهر قبل سبعة قرون وأولى التحليل اللغوي أهمية عظيمة وبنى عليه أروع نظرية تمثلت في « النظم » . قال وهو يتحدث عن الاسلوب الرفيع والتركيب البديع : « وإذ عرفت ذلك فاعمد الى ما تواصفوه بالحسن وتشاهدوا له بالفضل . ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصاً دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس او غير ذلك مما لايدخل في النظم وتأمله . فاذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت ، فانظر الى حركات الاريحية مم كانت وعندماذا ظهرت ؟ فانك ترى عياناً أن الذي قلت لك كما قلت . اعمد الى قول البحتري :

بلونا ضرائبَ من قد نرى فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرءُ أبْدَتْ له الحادثا تُ عَزْماً وشيكاً ورأياً صليبا

(١٣) الاسلوب ص٧ .

تنقّــل فــي خلقــي ســؤدد   سماحاً مرجّــى وبأساً مهيبــا

فكالسيف إنْ جئتـه صارخـاً   وكالبحـر إنْ جئتـه مستثيـبـا

فاذا رأيتك قد راقتك وكثرت عندك ووجدت لها اهتزازاً في نفسك فعـد فانظر في السبب واستقص في النظر فانك تعلـم ضرورة أن ليس إلاّ أن قدّم وأخّر ، وعرّف ونكّر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وكـرر ، وتوخـى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة • أفلا ترى أنّ أول شيء يروقك منها قوله «هو المرء أَبْدَتْ له الحادثات» ثم قوله: «تَنَقّل في خلقي سؤدد » بتنكير السؤدد واضافة الخلقين اليه ، ثــم قوله « فكالسيف » وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ لأن المعنى لا محالة « فهـو كالسيف » • ثم تكريـره الكـاف فـي قـولـه : « وكالبحر » ثــم أن قـرن الـى كـل واحـد مـن التشبيهيـن شـرطاً جـوابه فيـه ، ثـم أن أخـرج مـن كـل واحـد من الشرطيـن حـالاً على مثال ما أخرج مـن الآخـر وذلك قوله « صارخا » هناك و « مستثيبا » ههنا • لاترى حُسْناً تنسبه الى النظم ليس سببه ماعددت أو ما هو في حكم ما عددت فاعرف ذلك • وإن أردت أظهر أمراً في هذا المعنى فانظر الى قول ابراهيم بن العباس :

فلو إذ نبا دَهْرٌ وأنكر صاحـبٌ   وسُلّط أعـداءٌ وغـاب نصيـرُ

تكون عن الأحواز داري بنجـوة   ولكــن مقادير جـرتْ وأمـورُ

وإنـي لأرجو بعد هذا محمـداً   لأفضـل ما يُرجـى أخٌ ووزيـرُ

فانك ترى ماترى من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحـلاوة ثـم تتفقد السبب في ذلك فتجده إنما من أجل تقديمه الظرف الذي هو « إذ نبا » على عامله الذي هو « تكون » وأن لم يقل « فلو تكون عن الأحواز داري بنجوة إذ نبا دهر » ثم قال : « تكون » ولم يقـل « كان » ثـم أن نَكّـر

« الدهر » ولم يقل « إذ نبا الدهر » ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد ، ثم أن قال « وأنكر صاحب » ولم يقل « وأنكرت صاحبا » • لاترى في البيتين الأولين شيئا غير الذي عددته لك تجعله حسنا في النظم وكله من معاني النحو كما ترى • وهكذا السبيل أبداً في كل حسن ومزية رأيتهما قد نسبا الى النظم وفضل وشرف حيل فيهما عليه »[١٤] •

وهذا تحليل يقوم على العلاقات بين الكلم • وهـو تحليل يعطي النص قيمة لأنه يظهر مزيته ويوضح مابين ألفاظه من صلة وما تـوحيه من صور تجسّد المعنى وتبرزه • وقد عمد عبدالقاهر فيه الى ايضاح أثر الذوق وسعى الى تبيان قيمة القاعدة ، فهو في النصف الأول من تحليله يدعـو الى تأمل النص وتذوقه ويشير الى حكم أطلقه • ولكنه لايرضى بالذوق وحده ولايقتنع بالحكم إن لم يتبعه تحليل وتعليل ، وهذا ما فعلـه فـي النصـف الثـاني من كـلامه فكـان بذلـك ناقـداً يجمع بـين القاعدة والذوق لا شارحا ولـم يقف فـي تحليله عند مباحث علـم المعاني وانما أمعـن فـي تحليل فنـون البيان بالاسلوب نفسه وطبّق نظرية « النظم » على المجـاز فقـال عن أبيـات الشاعـر :

ولما قضينا من منىً كلَّ حاجـة ومَسَّحَ بالأركان مَنْ هو ماسـحُ
وشُدَّتْ على دُهْمِ المهارى رحالُنا ولم ينظر الغـادي الذي هو رائحُ
أخـذنا بأطراف الأحاديث بيننـا وسالـت بأعـناق المطي الأباطـحُ

« وليست الغرابة في قوله : «وسالت بأعناق المطي الأباطح » على هذه الجملة ، وذلك أنه لم يُغْرِب لأن جعل المطيّ في سرعـة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح ، فان هذا شبه معروف ظاهر ، ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها بأن جعل « سال » فعلاً للأباطح ثم عدّاه بالباء بـأن

(١٤) دلائل الاعجاز ص ٦٧–٦٩ •

أدخل « الاعناق » في البيت فقال « بأعناق المطي » ولم يقل « بالمطي » ولو قال : « سالت المطي في الأباطح » لم يكن شيئاً . وكذلك الغرابة في البيت الآخر ليس في مطلق معنى « سال » ولكن بتعديته بـ « على » والباء ، وبأن جعل فعلاً لقوله « شعاب الحي » ، ولولا هذه الأمور كلها لم يكن هذا الحسن ، وهذا موضع يدق الكلام فيه »[١٥] .

وهذا تحليل لغوي أظهر روعة الاستعارة ، وقد حلل عبدالقاهر الابيات نفسها تحليلاً آخر لايبعد كثيراً عن السابق وصوّر المعنى مجسداً فيهـا ، قال : « انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفا إلاّ الى استعارة وقعت موقعها وأصابت غرضها أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى الى القلب مع وصول اللفظ الى السمع واستقر فـي الفهم مـع وقوع العبارة في الأذن . وإلاّ الى سلامة الكلام من الحشـو غير المفيـد والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد ، وشيء داخل المعاني المقصودة مداخلة الطفيلي الذي يستثقل مكانه والاجنبي الذي يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذي يفتقر معه السامع الى تطلب زيادة بقيت في نفس المتكلم فلم يدل عليه بلفظها الخاص واعتمـد دليل حال غـير مفصـح أو نيابة مذكور ليس لتلك النيابة بمستصلح »[١٦] . ومضى يحلـل الأبيـات متأثرا بابن جني (ــ ٣٩٢هـ)[١٧] ومستفيداً من نظرته في النظ مالتي أطال الكلام عليها في كتابه « دلائل الاعجاز » . وقد فاق ابن جني في اظهـار روعة الاستعارة وتبيان العلاقة بين الجمل التي أحدثت مشاهد لايحسّ بهـا إلاّ من شهد موسم الحج وذاق حلاوة الشوق الى الأهل والوطـن . وكان ابن قتيبة (ــ ٢٧٦هـ) قد نظر الى الأبيات نظرة أخرى ورأى أنها مما حسن لفظه وطاب وليس وراء ذلك كبير معنى . قال : « هذه الالفاظ ــ كما نرى ــ

(١٥) دلائل الاعجاز ص ٦٠ . يريد به قول الشاعر :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصـاره بوجـوه كالدنانــير

(١٦) اسرار البلاغة ص ٢٢ .

(١٧) الخصائص ج١ ص ٢١٨ .

أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، واذا نظرت الى ماتحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الانضاء ومضى الناس لاينتظر الغادي الرائحَ ، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح »[١٨] • وفرّق كبير بين هذا القول وتحليل عبدالقاهر الذي جسّد المعنى تجسيدا ، وجعل السامع يهتز للأبيات ويعتريه الشوق الى موقف الحج وطواف الوداع ، والتأهب للعودةالى الأوطان ، وفي ذلك تأثير للاستعارة التي تجلت في الأبيات ، وهي استعارة جاءت من ارتباط الكلم وأخْذ بعضه برقاب بعض لا من الكلم وحده أو جرس الالفاظ • وكلام ابن قتيبة ليس مقنعا ، لانه حُكْم يعتمد على الذوق وحده • وكلام عبدالقاهر ينزع منزعاً علميا قوامه الشرح والتعليل،والوقوف على مواطن الصحة والروعة، والجودة والاستحسان ، ولاينسى الذوق واثارة المشاعر بما يقدم من عبارات ويوحي من جو يظهر المعنى واضحا • وليس كذلك ابن قتيبة أو غيره ممن اعتمدوا على الذوق وحده واتخذوه مقياسا في نقدهم فلم يوفقوا لانهم لم يقنعوا الدارسين ، وظلت عباراتهم حلوة تتردد من غير تأثير أو اقناع •

وليست فنون البديع بأقل أهمية من علمي المعاني والبيان ، وقد حفل بها الشعر القديم والقرآن الكريم وجاءت معبرة عن المعنى خير تعبير ، ولكن المتأخرين من القدماء أفسدوها بما أضفوا من زخارف أثقلت الكلام وأفسدته فنيا عنه الذوق • قال عبدالقاهر : « فانك لاتجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ولاتجد عنه حولا • ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ماوقع من غير قصد من المتكلم الى اجتلابه وتأهب لطلبه ، أو ماهو لحسن ملاءمته ـ وإن كان مطلوبا ـ بهذه المنزلة وفي هذه الصورة ، وذلك كما يمثلون به أبداً من قول الشافعي ـ رحمه الله

(١٨) الشعر والشعراء ج١ ص ٦٦ـ٦٧ • يجد القارىء بعض النصوص قد تكررت في هذا الكتاب ، لانه مجموعة بحوث •

تعالى ــ وقد سئل عن النبيذ فقال : « أجمع أهل الحرمين على تحريمه »[١٩]. وهذا هو الصواب لان البديع ليس حلية تقتسر ولا زينة ينبو عنها الذوق ، وانما هو وسيلة من وسائل التعبير كما يلاحظ في القرآن الكريم وكلام العرب البليغ .

لقد جمع عبدالقاهر في بلاغته ونقده بين القاعدة والذوق فكان ناقداً ذا منهج وبلاغياً صاحب رأي سديد . ولم يستفد البلاغيون من هذا المنهج الواضح ومضى السكاكي (ــ ٦٢٦هـ) والقزويني (ــ ٧٣٩ هـ) وشراح التلخيص يلخصون كلام عبدالقاهر ويلتقطون بعض أمثلته مضيفين اليها الكثير من مسائل الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، تاركين تحليله وملامح منهجه النقدي . وقد حاول ابن الاثير أن يقترب من عبدالقاهر ولكن إزراءه النحو وتشنيعه على النحاة[٢٠] أبعده عن منهج عبدالقاهر التحليلي . ولولا هذا الموقف واهماله النحو لجارى المتقدم لانه كان مهتماً بالنظم ولكن كما فهمه أو أراد أن يفهمه فهو عنده « سَبْكُ الألفاظ بعضها مع بعض »[٢١] وكان عند عبدالقاهر توخي معاني النحو ، وهذا مدلول أوسع مدى وأرحب أفقا ، وقد ظهر في « دلائل الاعجاز » ظهوراً جليا يدلّ على أصالة وابداع .

لقد حدد ابن الاثير أوصاف النظم بأربعة هي : أن تكون الالفاظ واضحة بيّنة ليست بغريبة الاستعمال . وأن تكون حلوة في الفم سهلة في النطق غير مستثقلة ولا مستكرهة ، وأن تكون كل لفظة من الالفاظ ملائمة لاختها التي تليها غير نافرة عنها ولا مباينة لها . وأن لايكون في الالفاظ تقديم وتأخير يستغلق به المعنى فيجيء نظم الكلام مضطربا . وهذه الاوصاف تتعلق بالالفاظ حينما تأتلف ، وقد حدّدها ابن الاثير بهذه الصورة

(١٩) أسرار البلاغة ص١٠ .
(٢٠) ينظر المثل السائر ج١ ص ٣٨٣ ، الاستدراك ص ١٣ .
(٢١) الاستدراك ص٥٨ .

لأنه كان يعطي اللفظة المفردة قيمـة ويفـرق بـين واحدة وأخرى ، أمـا عبدالقاهر فقد أعطاها المزية من خلال النظم ، وهذا فرق واضح بين الرجلين جاء من اختلافهما في المنهج وإن حاول الثاني أن يسير على خطى الاول في دراسة التقديم والتأخير وأن ينتفع من منهجه في دراسة الالتفات ، فقد ذهب البلاغيون الى أن الكلام إذا نقل من اسلوب الى اسلوب كان ذلك أحسـن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للاصغاء اليه من اجرائه على أسلوب واحد[٢٢].

ونظر اليه ابن الاثير نظرة أعمق وقال : « إن الانتقال من الخطاب الى الغيبة أو من الغيبة الى الخطاب لايكون إلاّ لفائدة اقتضته ، وتلك الفائـدة أمر وراء الانتقال من أسلوب الى أسلوب غير انها لاتحدّ بحـدّ ولا تضبـط بضابط ، ولكـن يشار الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها ، فانا قـد رأينا الانتقال من الغيبة الى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأول قد استعمل في الانتقال من الخطاب الى الغيبـة ، فعلمنا أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لايجري علـى وتيرة واحدة وانما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعباً كثيرة لاتنحصر وانما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه »[٢٣].

وطريقتـه في اظهار روعة الالتفـات هـي ضَرْبٌ الأمثلة والتعليق عليها والاشارة الى مافيها من روعة وجمال ، ولكنه لايترك التعليل والتوضيح ، فهو عند كلامه على سورة الفاتحة وما فيها من التفات يقول : «ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله : « اياك نعبد واياك نستعين » بعد قـوله : « الحمد لله رب العالمين » فانه انما عدل فيه من الغيبة الى الخطاب لان الحمد دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ؟ فلما كانت الحال كذلـك استعمل لفظَ « الحمد » لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال : « الحمد لله » ولم يقل « الحمد لك » ، ولما صار الى العبادة التي هي أقصـى الطاعـات

(٢٢) ينظر الكشاف ج١ ص ٩١ ، مفتاح العلوم ص ٩٦ .
(٢٣) المثـل السـائر ج٢ ص٥ .

قال « إياك نعبد » فخاطب بالعبادة إصراحاً بها وتقرباً منه ــ عزّ اسمه ــ بالانتهاء الى محدود منها ، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال : « صراط الذين أنعمت عليهم » فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ثم قال : « غير المغضوب عليهم » عطفاً على الأول ، لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه فلما صار الى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب فأسند النعمة اليه لفظاً وزوى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً » . فانظر الى هذا الموضع وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لاتكاد تطؤها والأفهام مع قربها صافحة عنها » . وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة الى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب ثم انتقل في آخرها الى الغيبة لتلك العلة بعينها ، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضاً ، لأن مخاطبة الرب ــ تبارك وتعالى ــ باسناد النعمة اليه تعظيم لخطابه وكذلك ترك مخاطبته باسناد الغضب اليه تعظيم لخطابه . فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالماً بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها »(٢٤) .

أما مذهب السكاكي والقزويني وشراح التلخيص فيقوم على القاعدة وحدها وكثيراً ما تخفق القاعدة في إثارة المعنى واظهار روعة الكلام ، ومن هنا كان الأخذ بمنهج عبدالقاهر وابن الأثير ــ على الرغم مما بينهما من تفاوت ــ ضرورة تتطلبها النزعة الفنية في البلاغة والنقد ، ولن يذهب همّ البلاغة وقوعها بين المنطق والتذوق ، لأن القواعد والتبويب والتعليل مهمة للوصول الى الحكم السليم وتقديم التفسير المقنع مثلما كان الذوق مهماً في النقد لأنّ الناقد إن لم يكن ذا موهبة فنية واحساس مرهف ، كان عالماً يعنيه ، الخطأ والصواب أكثر من التأثير وكشف مواطن الجمال .

وليس النقد علماً بالمعنى الدقيق وإن ذهب الى ذلك بعض الدارسين وربطوه بمناهج البحث العلمي فأحالوه قواعد صارمة كما فعل البلاغيون

(٢٤) المثل السائر ج٢ ص ٦ .

في عهد الجمود ، وليس تذوقاً فحسب ، وانما هو الاثنان معاً • وقد دلّ تأريخ البلاغة والنقد على أنّ أروع الكتب في هذا الحقل ما امتزج المنطق والذوق فيها كما ظهر في « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » و « المثل السائر » • وهذه الكتب الثلاثة تعدّ زبدة التراث البلاغي والنقدي عند العرب لأنها جمعت بين القاعدة والذوق ، والعرض والتحليل ، والحكم والتفسير • ولن يكون النقد تقدماً إن ابتعد عن هذه الاصول مهما تعددت المناهج واختلفت الأزمنة وتفاوتت البيئآت ، وبذلك يبقى تراث العرب ثراً يفتح آفاق الأصالة والتجديد •

إن الأدب ثقافة عميقة ومعاناة عظيمة وجهد كبير ، وإنه ببلاغته وروعة أسلوبه وسموّ معانيه ، وان النقد بأصوله وأحكامه ، وعلوم البلاغة أصل لا يهمل ما دام الأدب مرتبطاً باللغة العربية وأساليبها ، وقد أسفّ الأدب كثيراً حينما انفصل عن البلاغة ومقاييسها وانحرف النقد حينما ابتعد عن النزعة العلمية والتذوق وأصبح شرحاً أو تأريخاً أو شيئاً لا يحمل من سمات النقد إلاّ اسمه ، ولاتغني الاسماء ولو كانت من نور •

المصـــادر :

١ ـ الاستدراك ـ ضياءالدين بن الاثير . تحقيق حفني محمد شرف . القـــاهرة ١٩٥٨م .

٢ ـ أسرار البلاغة ـ عبدالقاهر الجرجاني . تحقيق ريتر . استانبول ١٩٥٤م .

٣ ـ الاسلوب ـ أحمد الشايب . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٥٢م.

٤ ـ البلاغة العربية ـ الدكتور احمد مطلوب . الموصل ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

٥ ـ البلاغة عند السكاكي ـ الدكتور احمد مطلوب . بغداد ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٦ ـ البلاغة والتطبيق ـ الدكتور احمد مطلوب والدكتور كامل البصير ـ الموصـــل ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

٧ ـ حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ـ جلال الدين السيوطي . القاهـــرة ١٩٢٩م .

٨ ـ الخصائص ـ ابن جني . تحقيق محمد علي النجار . القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .
٩ ـ دراسات بلاغية ونقدية ـ الدكتور احمد مطلوب ـ بغداد ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .
١٠ ـ دلائل الاعجاز ـ عبدالقاهر الجرجاني ـ تحقيق محمد رشيد رضا . القاهرة ١٣٧٢هـ .
١١ ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة . تحقيق احمد محمد شاكر . القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .
١٢ ـ القزويني وشروح التلخيص ـ الدكتور احمد مطلوب . بغداد ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .
١٣ ـ كتاب الصناعتين ـ أبو هلال العسكري . القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.
١٤ ـ الكشاف ـ الزمخشري . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م.
١٥ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الاثير . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.
١٦ ـ مفتاح العلوم ـ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي . القاهرة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م .

• • •



(٦)

أثر القرآن في البلاغة

كلمة :

كان للقرآن الكريم معجزة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكتاب العربية الخالد أعظم الأثر في علوم اللغة العربية ، فقد صدرت عنه واستقت من معينه ووقفت تكشف أسراره وتعنى بأساليبه وتفسر اعجازه وتشرح ألفاظه ، وتظهر معانيه . وكانت البلاغة من تلك العلوم التي نشأت في كنف كتاب الله وتفيأت بظلاله منذ أن بدأت تدرج في ميدان الحياة . وكان القرآن معجزة تحدت العالمين ، ووقف العرب عند نزوله مبهورين وهم أصحاب لسن وبلاغة ولم يجدوا مايدفعون به عن أنفسهم إلا أن يقولوا كما روى الكتاب عنهم « ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين »[١] . وأخذوا يفرون من سماعه خوفا من أن يؤثر في نفوسهم ويهديهم الى سواء السبيل كما هدى من قبل طليعة المسلمين،وصاروا يحولون دون الاستماع اليه لئلا تلين القلوب . وفي سيرة ابن هشام أن الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها فمشى اليه رجال قريش وكان الطفيل رجلاً شريفا وشاعراً لبيبا فقالوا له : « يا طفيل انك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق

* نشر في كتاب (رحلة في الفكر والتراث) الذي اصدرته جامعة بغداد سنة ١٩٨٠م ـ ١٤٠٠هـ بمناسبة الاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري وكنت أحد المشرفين على الاحتفالات التي اقامتها الجامعة وعلى اخراج الكتاب .

(١) سورة القصص ، الآية ٣٦ .

جماعتنا وشتت أمرنا ، وانما قوله كالسحر يفرّق بين الرجل وبين زوجه وأنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه ولا تسمع منه شيئاً » .
قال : « فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت الى المسجد كرسفاً[2] فرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم يصلي عند الكعبة فقمت منه قريباً فأبى الله إلاّ أن يسمعني بعض قوله فسمعت كلاما حسنا فقلت في نفسي : وآثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل مايقول ، فان كان الذي يأتي به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته » ، ومكث الطفيل حتى انصرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى بيته فأتبعه حتى اذا دخل بيته دخل عليه وقال : « يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم ابى الله إلاّ أن يسمعني قولك فسمعته قولاً حسنا ، فاعرض عليّ أمرك » ، وعرض الرسول الكريم الاسلامَ عليه وتلا القرآن فأسلم ، قال : « فلا والله ، ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق »[3] .

وقال الوليد بن المغيرة وقد سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلو آيات الكتاب : « والله ، إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وان فرعه لجناة[4] » . وشاء الله أن يهتدي العرب برسالة السماء الكبرى ويرفعوا القرآن دستورا في الآفاق ويتخذوه نبراساً يضيء لهم الطريق في دنياهم وآخرتهم ، وأن يكون القرآن الكريم مرجع المسلمين ومدار دراساتهم اللغوية والنحوية والفقهية والعلمية والأدبية وغير ذلك من شؤون الحياة ، وكان تأثيره واضحاً في البلاغة العربية ويتجلى ذلك في أمور كثيرة غير أنّ من أهمها أمرين

(2) الكرسف : القطن .
(3) سيرة ابن هشام ج١ ص ٣٨٢ .
(4) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧٠ .

يدخل فيهما كثير من المسائل والقضايا ، وذلك الامران هما : الدافع والشاهد •

الدافـــع :

كان القرآن الكريم دافعا الى التأليف في البلاغة والكلام على فنونها المختلفة ، وكانت احدى آياته مدعاة الى أن يؤلف أبو عبيدة (ـ ٢٠٨ هـ) كتابه « مجاز القرآن » ، قال : « أرسل اليّ الفضل بن الربيع الى البصرة في الخروج اليه سنة ثمان وثمانين ومائة فقدمت الى بغداد واستأذنت عليه فأذن لي فدخلت عليه وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه وفي صدره فرش عالية لا يرتقى اليها إلاّ على كرسي وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة ، فردّ وضحك اليّ واستدناني حتى جلست اليه على فرشه ثم سألني وألطفني وباسطني وقال : أنشدني ، فأنشدته فطرب وضحك وزاد نشاطه • ثم دخل رجل في زي الكتاب له هيئة ، فأجلسه الى جانبي وقال له : أتعرف هذا ؟ قال :لا • قال : هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه • فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا وقال لي : إني كنت اليك مشتاقا وقد سألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها ؟ فقلت : هات• قال : قال الله ـ عز وجل ـ : « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ »[٥] وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف • فقلت : انما كلم الله تعالى العربَ على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرقٌ كأنياب أغوالِ

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به• فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج اليه من علمه • فلما رجعت الى

---

(٥) سورة الصافات ، الآية ٦٥ •

البصرة عملت كتابي الذي سميته « المجاز »[٦] ، ومهما يكن من أمر هذه الرواية فان أبا عبيدة وغيره اتجهوا الى خدمة القرآن الكريم وظهرت دراسات كثيرة من أهمها الدراسات البلاغية التي اتجهت الى اعجاز القرآن وتفسير آياته وايضاح أساليبه وكشف فنونه البلاغية ، وقد كان الهدف الأول من التأليف في البلاغة غرضا دينيا أوضحه أبو هلال العسكري بقوله : « اعلم ـ علمك الله الخير ودلك عليه وقيضه لك وجعلك من أهله ـ أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله ـ جل ثناؤه ـ علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق ، الهادي الى سبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها ، وقد علمنا أن الانسان إذا أغفل علم العربية وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التراكيب وما شحنه من الايجاز البديع والاختصار اللطيف وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها الى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها ، وانما يعرف اعجازه من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته وسلاسته ونصاعته وكمال معانيه وصفاء ألفاظه ، وقبيح لعمري بالفقيه المؤتم به والقارىء المهتدى بهديه والمتكلم المشار اليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه ، وبالعربي الصليب والقرشي الصريح أن لايعرف اعجاز كتاب الله ـ تعالى ـ ألا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي أو أن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي ـ فينبغي من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر

(٦) معجم الادباء ج٧ ص ١٦٦ ، وينظر نزهة الالباء ص ٧٠ .

العلوم بعد توحيد الله ـ تعالى ـ ومعرفة عدله والتصديق بوعـده ووعيده إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جلّ اسمه »[٧].

أن مسألة اعجاز كتاب الله كانت من القضايا الاولى التـي شغلـت بال المسلمين ، وقد دفعهم ذلك الى الخوض في دراسة البلاغة ليستطيعوا الوصول الى فهم أسرار الاعجاز ، وظهرت آراء كثيرة [٨] ، غير ان ما يتصل بأسلوبه وروعته كان الدافع الأول الى التأليف في الاعجاز ، ومن أهم ما ألف فـي هذه المسألة كتاب « اعجاز القرآن في نظمـه وتأليفـه » لأبي عبدالله محمد ابن يزيد الواسطي (ـ ٣٠٦ هـ) ورسالة « النكت في اعجـاز القـرآن » لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ـ ٣٨٦ هـ) ورسـالة « بيان إعجـاز القرآن » لأبي سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (ـ ٣٨٨هـ) وكتاب « اعجاز القرآن » لأبي بكـر محمد بن الطيب الباقلاني (ـ ٤٠٣هـ) والجزء السادس عشر من كتاب « المغني في أبواب التوحيـد والعدل » لأبي الحسن عبدالجبار الأسد آبادي (٤١٥ هـ) و « ومعترك الاقران فـي اعجاز القرآن » لجلالالدين السيوطي (ـ ٩١١هـ)[٩] ، وكانت هذه الكتب والرسائل كتبا بلاغية الى جانب ما فيها من دراسات تتصل بالعقيدة والتوحيد، وقد انتهى ابن خلدون الى أن ثمرة علم البلاغة « انما هي فهم الاعجاز من القرآن ، لان اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال منطوقة ومفهومة ، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالالفاظ في انتقائها وجودة رصفها ، وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن إدراكه»[١٠] .

ولم يقف الأمر عند الاعجاز وانما خاض المفسرون غمار البحث فـي البلاغة ليصلوا الى فهم كتاب الله وادراك معانيه ، وقد بثّ محمد بن جـريـر

---

(٧) كتاب الصناعتـين ص ١ـ٢ .
(٨) التفصيل في : البلاغة عند السكاكي ص ٢٦٩ ، مناهج بلاغية ص ٣٩ .
(٩) معرفة هذه الدراسات في كتاب مناهج بلاغية ص٤٤ .
(١٠) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ .

الطبري (ــ ٣١٠هـ) كثيراً من مباحثهـا في تفسيره لتكون عونا على فهـم كلام الله الذي نزل بلسان عربي مبين وجاء فيه ما في كلام العرب من أساليب وفنون في التعبير • قال بعد أن أشار الى تلك الأساليب والفنون : « ونحـن مبينو جميع ذلك في أماكنه إن شاء الله ذلك وأمدّ منه بعونه »[١١] • وأوضح جارالله الزمخشري (ــ٥٢٨هـ) أهمية البلاغة وصلتها بالقرآن وفهمه بقوله : « إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الالباب القوارح مـن غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق سلكهـا علم التفسـير الذيلايتم لتعاطيه واجالة النظر فيهكل ذيعلم كما ذكر الجاحظفيكتابه«نظم القرآن » • فالفقيه وإن برّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن برّ أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والاخبار وإن كان من ابن القرّيّة أحفظ ، والواعظ وان كان من الحسن البصـري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ،واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى أحد منهم لسلوك تلك الطرائـق ولايغوص على شـيء من تلك الحقائق إلاّ رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن هما : علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثه على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضـاح معجـزة رسول الله »[١٢] • وقال عبدالقاهر الجرجاني (ــ ٤٧١ أو ٤٧٤هـ) « ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن يتوهموا أبداً في الالفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بمواضع البلاغة وبمكـان الشرف • وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل ، هناك ترى ماشئت من باب جهل قد فتحوه وزند ضلالة قدْ قدَحوا به»[١٣] •

(١١) جامع البيان في تفسير القرآن ج١ ص ٦ •
(١٢) الكشاف ج١ ص (ك) • (١٣) دلائل الاعجاز ص ٢٣٦ •

ورأى السكاكي (ــ ٦٢٦هـ) أن دراسة البلاغة واجبة على المفسر وقـال : « الواقف على تمام مراد الحكيم ــ تعالى وتقدس ــ من كلامه مفتقـر الى هذين العلمين ــ المعاني والبيان ــ كل الافتقار ، فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل»[١٤] ، ومتى أتقن المفسر البلاغة وتفهمها استطاع التسابق للعثـور على السبب في انزال الله ــ سبحانه وتعالى ــ قرآنه المجيد على هذه المناهج إذ « لا علم في باب التفسير بعد علم الاصول أقرأ منهمـا ــ المعاني والبيان ــ على المرء لمراد الله ــ تعالى ــ من كلامه . ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره . ولا أكشف، للقناع عن وجه اعجازه . هو الذي يُوفي كلام رب العزة في البلاغة حقه ، ويصون له في مظان التأويل ماءه ورونقه . ولكم آيـة من آيات القـرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقهـا ان وقعت الى من ليسوا من أهل هذا العلم فأخذوا بها في مآخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصودة وهم لايدركون أنهم لايدرون . فتلك الآي من مآخذهـم في عويل . ومن محاملهم في ويل طويل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »[١٥] .

وأصبحت كتب البلاغة سبيلاً تفضي الى رحاب القرآن ومعالم يهتدي بها الدارسون ويستعين بما فيها من ومضات مشرقة ولمحات بديعة المفسرون . ومن هنا كانت البلاغة مقدمة لدراسة كتـاب الله وتفسيره وادراك فصاحته وبلاغته ، وصار الشيوخ لايقدمون على تدريس كتب التفسير إلاّ بعـد أن يلمّ طلابهم بطرف من البلاغة وفنونها كما فعـل يحيى بن حمزة العلـوي (ــ ٧٤٩هـ) حينما ألف كتابه « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » ليكون عونا لمن شرع في قراءة تفسير « الكشاف » عليه ، قـال : « ثم ان الباعث على تأليف هذا الكتاب هو أن جماعة من الاخوان شرعوا عليّ في قراءة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق استاذ المفسرين محمود ابن عمر الزمخشري فانه أسسه على قواعد هذا العلم فاتضح عند ذلك وجه

---

(١٤) مفتاح العلوم ص ٧٧ . (١٥) مفتاح العلوم ص ١٩٩ .

الاعجاز من التنزيل • وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل ، وتحققوا انه لاسبيل الى الاطلاع على حقائق اعجاز القرآن إلا بادراكه والوقوف على أسراره وأغواره ومن أجل هذا الوجه كان متميزاً عن سائر التفاسير لاني لم أعلم تفسيراً مؤسسا على علمي المعاني والبيان سواء ، فسألني بعضهم أن أملي فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق »[١٦] •

وصارت كتب التفسير كلها تخدم هذه الفكرة ، ولعل أهم تفسير عُني بهذا الجانب « الكشاف » للزمخشري الذي تثر في تفسيره مسائل البلاغة واستعان بها في تفسير القرآن الكريم ، وهو حينما يفسر الآيات يطبق أصول البلاغة عليها وينبه الى ما فيها من أسرار الفصاحة والبلاغة ، وقد قال ابن خلدون عنه : « وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله »[١٧] • ومن هنا كان دارس « الكشاف » محتاجا الى ثقافة بلاغية واسعة ، وقد شعر القدماء بذلك فكانوا إذا أقدموا على دراسته تزوّدوا بتلك الثقافة ووضعوا الكتب عليها لتعلمها واتقانها كما فعل العلوي في كتابه « الطراز » •

وفي كتب أصول الفقه بحوث مستفيضة عن البلاغة ، وهي بحوث تدل على استشهاد علماء أصول الفقه بها ، قال السكاكي : « بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي ؟ ومن يتولاها »[١٨] • وأشار بهاء الدين السبكي (ــ ٧٧٣هـ) الى الصلة الوثيقة بين علمي المعاني واصول الفقه وقال : « واعلم أن علمي اصول الفقه والمعاني في غاية التداخل فان الخبر والانشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الاصول وان كل ما يتكلم عليه الاصولي من كون الأمر للوجوب والنهي والتحريم ومسائل الاخبار والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد والاجمال والتفصيل والتراجيح كلها ترجع الى موضوع علم المعاني • وليس في أصول الفقه

(١٦) الطراز ج١ ص٥ •

(١٧) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٢ • (١٨) مفتاح العلوم ص ١٩٩ •

ما ينفرد به كلام الشارع عن غيره إلا الحكم الشرعي والقياس وأشياء يسيرة »[١٩] .

ويرى ابن خلدون ان معرفة أركان علوم اللسان وهي : اللغة والنحو والبيان والأدب « ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي لغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة »[٢٠] . وكان الامام محمد بن ادريس الشافعي (ـ ٢٠٤هـ) من أوائل الذين أشاروا الى ما في القرآن من أساليب العرب وقال : « فانما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها ، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها وان فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهراً يراد به العام الظاهر ويستغنى بأول هذا منه عن آخره ، وعاما ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه ، وعاما ظاهراً يراد به الخاص وظاهراً يعرف في سياقه انه يراد به غير ظاهره ، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره . وتبتدىء الشيء من كلامها يبيّن أول لفظها فيه عن آخره ، وتبتدىء الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله . وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الايضاح باللفظ كما تعرف الاشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها . وتسمي الشيء الواحد بالاسماء الكثيرة ، وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة »[٢١] . وهذه بعض الموضوعات التي تحدث عنها البلاغيون فيما بعد وبحثوها مستقلة عن الموضوعات الأخرى ، أما الامام الشافعي فقد اتخذها مقدمة لدراسة أصول الفقه وعقد لها أبواباً تجلت فيها معرفته بأساليب العرب واطلاعه على اللغة وقدرته على فهم حقيقتها ومجازها وعامها وخاصها واستنباط الأحكام والأصول . وكانت هذه الدراسة

---

(١٩) عروس الافراح ج١ ص ٥٣ .

(٢٠) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٥ . (٢١) الرسالة ص ٥١ .

مدعاة لخوض الاصوليين والفقهاء في البلاغة وإدخالها في كتبهم ، وبنوا على ذلك طريقة الاجتهاد البياني ، وصار العلماء عندما يقفون أمام نص ليفهموه يستعينون بهذا الاسلـوب .

ومن الذين عنوا بالبلاغة في كتبهم الاصولية أبو الحسين محمد بن علي ابن الطيب البصري المعتزلي (ــ ٤٣٦هـ) صاحب كتاب « المعتمد في أصول الفقه » والامام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ــ ٥٠٥هـ) مؤلف كتاب « المستصفى من علوم الاصول » وأبو الحسن علي بن أبي علي سيف‌الدين الآمدي (ــ ٦٣١ هـ) صاحب كتاب « الأحكام في أصـول الأحكام »[٣٢] وغيرهم من الاصوليين والفقهاء الذين خدموا القرآن الكريم خدمة كبرى ، وقدموا للدراسات البلاغية خير ما يقدمه مؤمن بالقرآن ولغته الخالـدة . وكان لاهتمام علماء أصول الفقه بالمباحث البلاغية التي وشحوا بها كتبهـم وعدّوها من طرق الفقه أن وضعوا القواعد الواضحة ، والتقسيمات الدقيقة لحاجتهم اليها في استنباط الأصول والاحكام .

وكان لكتب علوم القرآن أثر في العناية بالبلاغة ودراستها ، وقد اتخذها المؤلفون وسيلة لفهم القرآن ومعرفة أساليبه وأهدافه ، وكانت البلاغة أحـد تلك العلوم التي يحتاج اليها الدارس ، ومن اشهر الذين عنوا بهذا الجـانب بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي (ــ ٧٩٤هـ) في كتابه « البرهـان في علوم القرآن » وجلال‌الدين السيوطي في كتابه « الاتقان في علوم القرآن » . ويمثل هذان الكتابان جانبا كبيراً من جوانب تلك العناية التي أثمرت مؤلفات كثيرة عالجت البلاغة من أجل الوصول الى اعجاز القرآن وادراك أسراره .

وأدّت العناية بأسلوب القرآن الكريم الى ظهور دراسات كثيرة ولعل من أقدمها « مجاز القرآن » لأبي عبيدة و « تأويل مشكل القرآن » لابـن قتيبة (ــ ٢٧٦ هـ) و « تلخيص البيان في مجازات القرآن » للشريف الرضي

(٣٢) التفصيل في كتاب مناهج بلاغية ص ٦٤ .

(ـ ٤٠٦ هـ) و « دلائل الاعجاز » لعبدالقاهر الجرجانـي (ـ ٤٧١ أو ٤٧٤هـ) و « نهاية الايجاز في دراسة الاعجاز » لفخرالدين الرازي (ـ٦٠٦هـ) و «التبيان المطلع على اعجاز القرآن» و «البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن» لكمالالدين عبدالواحد بن عبدالكريم المعروف بابن الزملكاني (ـ ٦٥١هـ) و « الاشارة الى الايجاز في أنواع المجاز » لعزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام (ـ ٦٦٠هـ) و « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجـاز » ليحيى بن حمزة العلوي (ـ ٧٤٩هـ) و « الفوائد المشوق الى علوم القرآن» لابن قيم الجوزية (ـ ٧٥١ هـ) .

وظهرت كتب خاصة ببعض موضوعات البلاغة في كتاب الله ، وقد ألّف ابن ناقيا البغدادي (ـ ٤٨٥هـ) كتاب « الجمان في تشبيهات القرآن » وذكر في مقدمته : « التشبيهات نوع مستحسن من أنواع البلاغة ، وقد ورد منـه في كتاب الله تعالى ما نحن ذاكروه في هذا الكتاب وذاهبون الى ايضاح معانيه والتنبيه على مكان الفضيلة فيه»[٢٣] . ودرس ابن أبي الاصبع المصـري (ـ ٦٥٤ هـ) فنون البلاغة التي وردت في كتاب الله ، وألّف كتابا في ذلك هو « بديع القرآن » وقد جمع فيه مائة وستة من فنون البلاغة ، وبحثهـا بأسلوب أدبي ممتع وذكر الشواهد الرفيعة وفي مقدمتها كلام الله لأن الكتاب ألف لهذا الهدف ولاظهار روعة أسلوب القرآن الكريم واعجازه . وهـذا الكتاب مفرد من كتابه « تحرير التحبير » الذي ضمّ مائة وخمسة وعشريـن فنا ، لأن المؤلف وجد في كلام العرب ما لم يجده في كتاب الله من فنون ، ينزه القرآن عنها مثل : « الهزل الذي يـراد بـه الجد » و « الاغـراق » و « العقد » و « الاتفاق » و «الهجاء في معرض المدح» و «الالغاز والتعمية» وغيرها[٢٤] .

(٢٣) الجمان في تشبيهات القرآن ص ٤٣ .

(٢٤) التفصيل في كتاب مناهج بلاغية ص ١٤٩ .

وظل القرآن الكريم يرفد البلاغة العربية ويدفع الى التأليف فيها ، وكانت مئات الكتب التي ظهرت استجابة لخدمة كتاب الله ولايكاد كتاب منها يخلـو من الاشارة الى هذا الدافع ، وهـو دافع ديني الى جوانب الدوافع الأخرى التي ذكرهـا المتقدمون[٣٥] .

الشاهــد :

كان الشاهد القرآني المثل الأعلى في كتب اللغة العربية ، وهـو رأس شواهد البلاغة التي كانت استجابة للحياة الفكرية التي استظل بهـا العرب والمسلمون بعد نزول كتاب الله بلسان عربي مبين . ولا يخلو كتاب بلاغـي من الشاهـد القرآني ؛ لأن ذلك من أول ما يسعى اليه المؤلف بل هو ما يريد تأكيده حينما خاض البحث وظم فنون البلاغة في فصول .

إن تحدي القرآن للعرب أن يأتوا بمثله دفعهم الى التفكير في اسلوبـه والوقوف على ألفاظه ومعانيه ، وكان ثمرة ذلك الـــوقوف والتأمل هـذه الدراسات المستفيضة التي أنارت قلوب المؤمنين وعمرت حياتهم بالأمل وأنطقتهم بكل عذب جميل . وقد كانت البلاغة أول ما نشأت في كنف القرآن ، وكانت فنونها تتردد في الكتب المتقدمة ككتاب «معاني القرآن» ليحيى بن زياد الفراء (ــ ٢٠٧هـ) وكتاب « مجاز القرآن » لابي عبيدة (ــ ٣٠٨هـ) ولم يكـن بطبيعة الحال أن يخرج هذان المؤلفان على الشاهد القرآني لان موضوعيهما يتصلان بكتاب الله اتصالا وثيقا بل هما موضوع واحد أريد به الكشف عن معاني القرآن وطرق التعبير فيه . ولعل عبدالله بن المعتز (ــ ٢٩٦هـ) كـان من أوائل الذين سنوا البدء بالشاهد القرآني فيدراسة البلاغة ويتضح ذلك في أول عبارة بدأ بها كتابه « البديع » قال وهو يتحدث عن فنونه : « قدّ قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله

(٣٥) معرفة ذلك في كتاب الصناعتين ص١ ، مناهج بلاغية ص ٣٢ .

ــ صلى الله عليه ــ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون « البديع »[٢٦] . ثم قال : « من الكلام البديع قول الله تعالى : «وانه في أم الكتاب لدينا لعليٌ حكيم»[٢٧] . وقال عندما بدأ بفنون البديع : « الباب الأول من البديع وهو الاستعارة ، قال الله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنّ أمّ الكتاب »[٢٨] . وقال « واخْفِضْ لهما جناحَ الذلّ من الرحمة »[٢٩] . وقال : « واشتعل الرأسُ شيباً »[٣٠] وقال : « أو يأتيهم عذابُ يوم عقيم»[٣١] . وقال : « وآيةٌ لهم الليل نسلخ منه النهار»[٣٢] .وذكر بعد ذلك من أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما فيه استعارة ، ثم أتبعه بكلام الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وبأمثلة من الشعر القديم والمحدث . وسار على هذا النهج في ضرب الأمثلة وذكر الشواهد ، ولم يلتزم البلاغيون الآخرون بمثل هذا الالتزام وان كان الشاهد البلاغي يقف على قمة الشواهد غير أن يحيى بن حمزة العلوي عاد الى هذا النهج في ترتيب الشواهد والتزم به كل الالتزام ورتب شواهده على هذه الصورة :

النوع الاول : من القرآن الكريم .

النوع الثاني : من الاخبار النبوية .

النوع الثالث : من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ .

النوع الرابع : مما ورد من الفن البلاغي في كلام البلغاء .

النوع الخامس : مما ورد من الفن البلاغي في المنظوم .

---

(٢٦) البديع ص ١ .
(٢٧) سورة الزخرف ، الآية ٤ .
(٢٨) سورة آل عمران ، الآية ٧ .
(٢٩) سورة الاسراء ، الآية ٢٤ .
(٣٠) سورة مريم ، الآية ٤ .
(٣١) سورة الحج ، الآية ٥٥ .
(٣٢) سورة يس ، الآية ٣٧ .

ولم يخرج العلوي على هذا النهج في ضرب الأمثلة وذكر الشـــواهد ويتضح أن ترتيبه يقوم على المنزلة والأهمية ، فكتاب الله في قمـة البلاغة وفي أرفع مقام ، يأتي بعده كلام النبي العظيم فكلام الامام علي ــ كرم الله وجهه ــ فكلام العرب الفصحاء البلغاء فأشعار الشعراء القدماء والمحدثين • وكـأن العلوي نظر الى ما فعله ابن المعتز ــ وإن ادّعى انه لم يطلع على كتب البلاغة كلها وانما رأى اربعة منها وطالعها ، وقال : « ولم أطالع من الدواوين المؤلفة فيه مع قلتها ونزورها إلاّ أكتبة أربعة :

اولها : كتاب « المثل السائر » للشيخ أبي الفتح نصر بن عبدالكريـم المعروف بابن الاثير •

وثانيها : كتاب « التبيان » للشيخ عبدالكريم[٣٣] •

وثالثها : كتاب « النهاية » لابن الخطيب الرازي[٣٤] •

ورابعها كتاب « المصباح » لابن السراج المالكي[٣٥] •

وأول من أسس من هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فـوائده ورتب أفانينه الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبدالقاهر الجرجاني[٣٦]• وادّعى أنه لم يطلع على كتابي « دلائل الاعجاز » و « أسـرار البلاغـة » ولم يقف على شيء منهما إلاّ ما نقله العلماء في تعاليقهم منهما • ولكن ذلك لايفسر الالتقاء الواضح في ضرب الأمثلة وتصنيف الشواهد بينـه وبـين ابن المعتز الذي كان من أوائل المهتمين بهذه المسألة حينما أراد أن يقـول إن القرآن الكريم سبق الى كثير من فنـون البديع التي ادعاها المجددون ولجّ فيها المولدون ، ولذلك ابتدأ بالشاهد القرآني ليدحض اقوالهـم ويفنـد

---

(٣٣) يريد به ابن الزملكاني المتوفى سنة ٦٥١هـ •

(٣٤) يريد به فخرالدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ •

(٣٥) يريد به بدرالدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦هـ •

(٣٦) الطراز ج١ ص ٣ ــ ٤ •

آراءهم وبوقفهم حيث ينبغي أن يقفوا غير مباهين ولا فخورين ، وهذان المثالان ــ ابن المعتز والعلوي ــ يدلان على ما كان عليه القدماء من ارتباط بالشاهد القرآني فيما يقولون وفيما يؤلفون ، وليس معنى ذلك أنَّ البلاغيين الآخرين ابتعدوا عن ذلك بل أخذوا بهذا النهج ووضعوا الشاهد القرآني فوق كل شاهد ، ووقفوا أمامه مبهورين .

وكان من أثر اهتمامهم بالشاهد البلاغي تحليلهم لكلام الله والوقوف على ما فيه من روعة وجمال واستنباط الفنون البلاغية منه ، ومن ذلك تمثله تعالى : « وقيل يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ، ويا سماءُ اقلِعي ، وغِيضَ الماءُ ، وقُضيَ الأمرُ ، واستوت على الجوديّ ، وقيل بُعْداً للقوم الظالمين[٣٧] » وقال ابن أبي الاصبع المصري وقد ذكر هذه الآية في باب « الابداع » : « ما رأيت في جميع ما استقريت من الكلام المنثور والشعر الموزون كآية كريمة من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضربا من المحاسن »[٣٨] . وبدأ بذكر تلك الضروب من المحاسن وقال : « وهي المناسبة التامة بين « اقلعي » و « ابلعي » ، والمطابقة بذكر الارض والسماء ، والمجاز في قوله : « ياسماء » فان المراد ــ والله أعلم ــ يا مطر السماء ، والاستعارة في قوله « اقلعي » ، والاشارة في قوله تعالى « وغيض الماء » فانه عبر بهاتين اللفظتين عن معانٍ كثيرة ، والتمثيل في قوله تعالى : « وقضي الأمر » فانه عبر عن هلاك الهالكين ونجا ةالناجين بلفظ فيه بُعْد" عن لفظ المعنى الموضوع له ، والإرداف في قوله تعالى :

« واستوت على الجوديّ » فانه عبَّر عن استقرارها بهذا المكان وجلوسها جلوسا متمكنا لازيغ فيه ولا ميل بلفظ قريب من لفظ المعنى ، والتعليل لان غيض الماء علة الاستواء ، وصحة التقسيم إذ استوعب ــ سبحانه أقسام

---

(٣٧) سورة هود ، الآية ٤٤ .

(٣٨) تحرير التحبير ص ٦١١ ، وينظر بديع القرآن ص ٣٤٠ .

أحوال الماء حالة نقصه إذ ليس إلاّ احتباس ماء السماء واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض وغيض الماء الحاصل على ظهرها • والاحتراس في قوله تعالى : « وقيل بُعْداً للقوم الظالمين » إذ الدعاء يشعر بأنهم مستحقو الهلاك احتراسا من ضعيف يتوهم ان الهلاك لعمومه ربما شمل من يستحق ومن لايستحق فتأكد بالدعاء على الهالكين لكونهم مستحقين ذلك والايضاح في قوله « للقوم » ليبين لهم أن القوم هم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدمة عليها حيث قال تعالى : « وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سَخِروا منه »[٣٩] ، وفي قوله قبل ذلك : « ولاتخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مُغرقون »[٤٠] • فأتى سبحانه ــ في آخر هذه الآية بلفظة « القوم » التي الألف واللام فيها للعهد ليبيّن أنهم القوم الذين سبق ذكرهم ووصفهم بالظلم كما وصفهم في أول الكلام بالظلم ، وذلك مما يوضّح المعنى ويبينه ، فعلم أن لفظة القوم ههنا ليست فضلة في الكلام وانها يحصل بسقوطها لبْس في المعنى ، وعدمُ بيانٍ الكلامُ محتاجٌ له • والمساواة لان لفظ الآية لايزيد على معناها • وحسن النسق لانه ــ سبحانه ــ عطف القضايا بعضها على بعض بحسن ترتيب حسبما وقعت • وائتلاف اللفظ مع المعنى ، لان كل لفظة لايصلح موضعها غيرها • والايجاز لانه ــ سبحانه ــ اقتصَّ القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخلّ منها بشيء في أخصر عبارة • والتسهيم لان أول الآية الى قوله تعالى : « اقلعي » يقتضي آخرها • والتهذيب لان مفردات الالفاظ موصوفة بصفات الحسن ، كل لفظة سمحة سهلة مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة مع الخلو عن البشاعة والتركيب سليمة من التعقيد وأسبابه • والتقديم والتأخير ، والحذف المخِل ، والزيادة المسهبة ، وحسن البيان من جهة ان السامع لايتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء من هذا النظام • والتمكين لان الفاصلة مستقرة في قرارها

(٣٩) سورة هود ، الآية ٣٨ •
(٤٠) سورة هود ، الآية ٣٧ •

مطمئنة في مكانها غير قلقة ولا مستدعاة • والانسجام وهو تحدّر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء وينساب انسياب العليل من الهواء • وما في مجموع الآية من الابداع وهو الذي سمّي به هذا الباب من أن كل لفظة لاتخلو عن أن يستخرج منها ضرب أو ضربان من البديع •» فهذه آية عدّة ألفاظها سبع عشرة لفظة تتضمن أحداً وعشرين ضرباً من البديع غير ما يتعدد من ضروبها فان الاستعارة وقعت منها في موضعين : وهما استعارة الابتلاع للارض والاقلاع للسماء • والمجاز في مكانين في قوله سبحانه « ويٰسماء » وفي الاشارة والتمثيل والارداف لان المجاز مجازان : مجاز بالحذف ومجاز بالتغيير وقد وقعا معا • فاظر ـ رحمك الله ـ الى عظمة هذا الكلام لتعلم ما انطوى عليه نظمه وماتضمنه لفظه» •

وكان عبدالقاهر الجرجاني قد وقف عند هذه الآية الكريمة ونظر اليها من خلال النظم حينا يدق واللفظ حين يتحد فقال وهو يتحدث عن نظم ألفاظ الآية : « وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى : « وقيل يٰأرض ابلعي ماءك ويٰسماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل : بُعْداً للقوم الظالمين» فتجلى لك منها الاعجاز وبهرك الذي ترىوتسمع انك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلاّ لأمر يرجع الى ارتباط هذا الكلم بعضها ببعض وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلاّ من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا الى أن تستقريها الى آخرها وان الفضل تناتج ما بينها ، وحصل من مجموعها • إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين اخوانها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية ؟ قل « ابلعي » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر الى ما قبلها والى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها • وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الارض ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء بـ « يا » دون « أي » نحو « يا أيتها

الارض » ثم اضافة الماء الى الكاف دون أن يقال « ابلعـي الماء » ثـم أن اتبع نداءُ الأرض وأمرها بما هو شأنها نداء السماء وأمرهـا كذلك بمـا يخصهما ، ثم قيل « وغيض الماء » فجعل الفعل على صيغة « فُعِلَ » الدالة على أنه لم يغض إلاّ بأمر آمر وقدرةقادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريـره بقوله تعالى « وقضي الأمر » ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو « استوت على الجوديّ » ثم اضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن مقابلة « قيـل » في الخاتمـة بـ « قيـل » في الفاتحـة ، أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالاعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيئة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صـوت مسموع وحروف تتوالى في الظن أم كل ذلك لما بـين معاني الالفاظ من الاتسـاق العجيـب »[٤١] .

ووقف السكاكي عند هذه الآية وقفة طويلة ونظر اليها من خلال تقسيمه البلاغة الى فنين متميزين هما : علم المعاني وعلم البيـان ، ومـن خـلال الفصاحة والبلاغة اللتين حددّهما وأرسى قواعدهما ، وحللها تحليلاً مفصلاً معتمداً على تحليل عبدالقاهر ، ولكنه لم يستطع أن يكشف السحر الحلال الذي تميز به كلام الله كما استطاع الشيخ وابن أبي الاصبع المصري[٤٢] . ومما يحمد للسكاكي انه حاول أن يتذوق القرآن الكريم وأن يشير الى مافيه من روعة وجمال ، وينبه الى مواطن ذلك ، ولكنه لم يحلق كما حلّق غيره لانه عاش في بيئة بعيدة عن مهد العرب وفي زمان اتجه الأدب فيـه نحو الجمود وأخذت علوم اللغة تنحصر في التقسيم والتحديد ، وان كان السكاكي نفسه يرى « أن شأن الاعجاز عجيب يدرك ولايمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولايمكن وصفها وكالملاحة » وان مدرك الاعجاز عنده « هو الذوق

(٤١) دلائـل الاعجـاز ص ٣٦ــ٣٧ .

(٤٢) ينظر تحليل الآيـة في مفتاح العلوم ص ١٩٧ .

ليس إلاّ وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين ـ المعـاني والبيان ـ»[٤٣] •ولكن أنّى له التحليق،وهو صاحب«مفتاح العلوم»الذي صبّ قواعد الصرف والنحو والبلاغة فيه صبّاً أفقدها رواءها وأحالها قواعد تحفظ وأمثلة مبتسرة تتردد بين المتأدبين •

ومهما يكن من أمر فقدكان القرآن سبباً في تحليل البلاغيين لآياته لكي يكشفوا عن روعته وجماله ويقارنوه بكلام العرب البليغ .• وكان من ذلك أن وقف بعضهم يقارن بين قوله تعالى : « ولكم في القِصاص حياة »[٤٤] وقول بعضهم : « القتل أنفى للقتل » • قال الخطيب القزويني (ـ ٧٣٩هـ) : « وفضله على ما كان عندهم أوجز كلام في هذا المعنى وهو قولهم « القتل أنفى للقتـل » من وجوه :

أحدها : ان عدّة حروف ما يناظره منه وهو « في القِصاص حياة » عشرة في التلفظ ، وعدّة حروفه أربعة عشر •

وثانيها : ما فيه من التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليهـا فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه أدعى الى الاقتصاص •

وثالثها : ما يفيد تنكير « حياة » من التعظيم أو النوعية •

ورابعا : اطراده بخلاف قولهم ، فان القتل الذي ينفـي القتـل هـو ما كان على وجه القصاص لا غيره •

وخامسها : سلامته من التكرار الذي هو من عيوب الكـلام بخلاف قولهـم •

وسادسها : استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم فان تقديره : القتل أنفى للقتل من تركه •

وسابعها : ان القِصاص ضد الحياة فالجمع بينهما طباق •

---

(٤٣) مفتـاح العلـوم ص ١٩٦ .   (٤٤) سـورة البقرة ، الآيـة ١٧٩ .

وثامنها : جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة بادخـال « في » عليـه »[٤٥] .

إنّ مثـل هذه المقارنة بين كلام الله وكلام البشر لاتثبت ان كـلامه ـ تعالى ـ أسمى من كلام غيره لان ذلك مستقر في النفـوس المـؤمنة ، ولكنها تكشف عن الفرق بين اللونين من التعبير وأداء الفكـرة وتعطـي صورة واضحة لروعة القرآن وهو ما يحتاج اليه المسلم أولاً والمتأدب ثانيا والمنكر ثالثا ، وفي ذلك خدمة عظيمة لكلام الله واللغة العربية وبلاغتها .

وساعد الشاهد القرآني علماءالبلاغة على الكشف عن مسائل كثيرة تتصل بالاسلوب العربي والردّ على من يذهب بعيدا في تفسير الكلام أو يشك في نظم القرآن . ومن أمثلة ذلك وقوفهم على « براعة التخلص » التي لم يحسن القدماء تطويعها وطوّعها الشعراء المحدثون في العصر العباسي .

قال ابن أبي الاصبع المصري وهو يتحدث عن هذا الفن : « وقد ذهب أصحاب الاعجاز الى أنه أحد وجه الاعجاز ، وهو دقيق في عين الغبيّ خفيّ يخفى على غير الحذاق من ذوي النقد . وهو مبثوث في الكتاب العـزيز من أوله الى آخره فانك تقف من الكتـاب العزيز على مواضـع تجدها في الظاهر فصولاً متنافرة لاتعرف كيف تجمع بينها فاذا أنعمت النظر وكنت ممن له دربة بهذه الصناعة ظهر لك الجمع بينهما كقوله سبحانه وتعـالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريَه من آياتنا انه هو السميع البصير . وآتينا موسى الكتابَ وجعلناه هُدىً لبني اسرائيل ألاّ تتخـذوا من دوني وكيلا . ذريّةَ مَنْ حَمَلْنا مع نـوح إنَّه كـان عَبْداً شكوراً »[٤٦] . فانـك إذا نظرت الى قوله تعالى : « وآتينا موسى الكتاب » وجدت هذا الفصـل

(٤٥) الايضـاح ص ١٨٢ .
(٤٦) سورة الاسـراء ، الآيات ١ ـ ٣ .

مبانيا لما قبله حتى تفكر فتمد الوصل بين الفصلين في قوله : « سبحان الذي أسرى بعبده » فانه ــ سبحانه ــ أخبر بأنه أسرى بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليريه من آياته ويرسله الى عباده كما أسرى بموسى من مصر حين خرج منها خائفاً يترقب فأتى مَدْيَنَ وتزوّج بابنـة شعيب ، وأسرى بها فرأى النـار فخاطبه ربه وأرسله الى فرعون وآتاه الكتـاب . فهذا الوصل بين هذين الفصلين ، وأما الوصل بين ما ذكرت وبين هوله تعالى : « ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبداً شكورا » فقد كان عى بنـي اسرائيل نعمـة عليهم قدْماً حيث نجاهم في السفن إذ لو لم ينج إياهم من أبنـاء نوح لمـا وُجِدوا وأخبرهم أنّ نوحا كان شكوراً وهم ذريته والولـد سـرّ أبيه فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهـم »[٤٧] .

وكان الشاهد القرآني مثالاً يحتذى في الكتابة ، وقد ظهر ذلك فيما طرقه البلاغيون في « الحل » و « العقد »[٤٨] ولايكاد البحـث يستطيع حصر ذلك خلال القرون الطويـة لأن كتاب الله ملأ النفوس إيماناً ، والعقول ازدهاراً والألسنة بياناً ، وسيظل ذلك الى ماشاء الله نبراسـاً يضيء طريق المؤمنين .

تلك بعض ملامح أثر القرآن الكريم في البلاغة العربية وقد اتضـح انه أثّر في مسألتـين :

الأولى : الدافع وهو البحث في أساليب العرب ليقف الناس على روعة كتاب الله وجماله وفهم مقاصده ومعانيه وادراك اعجازه . وقد تمثل فـي الكتب التي تحدثت عن معاني القرآن ومجازه ، وفي الدراسات التي تحدثت عن وجوه الاعجاز ، وهي دراسات بلاغية لانها عنيت بفنون البلاغة وحددتها

(٤٧) تحرير التحبير ص ٤٣٣ ، وينظر بديع القرآن ص ١٦٧ .

(٤٨) ينظر في موضوع الحل والعقد : البديع في نقـد الشعر ص ٢٥٩ ، المثل السائر ج١ ص ٧٧، حسن التوسل ص ٣٢٥ ، جوهر الكنز ص١٩٥ .

وقسمتها وشرحت وسائل التعبير بها • واتضح في كتب التفسير والاصول وهي كتب كانت تدعو في مقدماتها وفي ثنايا فصولها الى تعلم البلاغة ودراستها لانها السبيل الموصل الى فهم القرآن واستنباط الأحكام منه • وقد اتضح أن ذلك ظل مرتبطا بالدراسات البلاغية وقرن البلاغيون وغيرهم علم المعاني بالأصول •

الثانية : الشاهد ، وذلك ان كلام الله كان المثال الأعلى عند البلاغيين وغيرهم وقد اتضح ذلك في وضع الشاهد القرآني على قمة الشواهد ، وفي تحليل الآيات القرآنية واستخراج الفنون البلاغية منها ، وفي حلها في الكلام أو عقدها في الشعر •

ولايقف أثر القرآن عند هذه الجوانب بل هناك جوانب كثيرة كان له دور في ظهورها وكشفها ، وقد ظل ــ وسيبقى ــ منهل الادباء وقدوة البلاغيين ومعين المسلمين في حياتهم وزادهم في آخرتهم الى ماشاء الله ؛ لانه الكتاب الأعظم والدستور الأوحد لكل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر •

المصــادر :

١ ـ الايضاح ـ الخطيب القزويني • القاهرة (مطبعة السنة المحمدية) •
٢ ـ البديع ـ ابن المعتز • طبعة كراتشكوفسكي • لندن ١٩٣٥م •
٣ ـ البديع في نقد الشعر ـ أسامة بن منقذ • تحقيق الدكتور احمد احمد بدوي والدكتور حامد عبدالمجيد • القاهرة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م •
٤ ـ بديع القرآن ـ ابن ابي الاصبع المصري • تحقيق حفني محمد شرف ـ القاهرة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م •
٥ ـ البلاغة عند السكاكي • الدكتور احمد مطلوب ـ بغداد ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م •
٦ ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن • ابن ابي الاصبع المصري • تحقيق الدكتور حفني محمد شرف • القاهرة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م •

٧ - جامع البيان في تفسير القرآن . محمد بن جرير الطبري . القاهرة .
٨ - الجمان في تشبيهات القرآن . ابن ناقيا البغدادي . تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي . بغداد ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.
٩ - جوهر الكنز - نجم الدين احمد بن اسماعيل بن الاثير الحلبي . تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام . الاسكندرية - مصر .
١٠ - حسن التوسل - شهاب الدين الحلبي . تحقيق الدكتور اكرم عثمان يوسف . بغداد ١٩٨٠م .
١١ - دلائل الاعجاز - عبدالقاهر الجرجاني . تحقيق محمد رشيد رضا - القاهرة ١٣٧٢هـ .
١٢ - الرسالة - محمد بن ادريس الشافعي . تحقيق احمد محمد شاكر . القاهرة ١٣٥٨هـ - ١٩٤٠م .
١٣ - سيرة ابن هشام - ابن هشام . تحقيق مصطفى السقا وجماعته. القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .
١٤ - الطراز - يحيى بن حمزة العلوي . القاهرة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م .
١٥ - عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح . بهاءالدين السبكي . (شروح التلخيص) . القاهرة ١٩٣٧م .
١٦ - كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري . تحقيق علي محمد البجاوي وابو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .
١٧ - الكشاف جارالله الزمخشري . الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م .
١٨ - المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر - ضياءالدين بن الاثير الجزري . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . القاهرة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م
١٩ - معجم الادباء - ياقوت الحموي . تحقيق مرغليوث ، الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٢٣م .
٢٠ - مفتاح العلوم - يوسف بن ابي بكر السكاكي . القاهرة ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.
٢١ - مقدمة ابن خلدون - ابن خلدون . دار الكشاف - بيروت .
٢٢ - مناهج بلاغية - الدكتور احمد مطلوب . بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .
٢٣ - نزهة الالباء في طبقات الادباء - ابن الانباري . تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي . بغداد ١٩٥٩م .

* * *

(٧)

بديــع القــرآن الكريـــم

القرآن الكريم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو أبلغ كلام وأفصحه ، وقد وقف العرب أمامه مبهورين ولـم يستطيعوا أن يقولوا إلاّ انه «أساطير الأولين» وان الرسول الكريم « اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »[١] ، وعجزوا عن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة ولما بان عجزهم قال الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الانسُ والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولـو كان بعضُهم لبعض ظهيرا »[٢] ، وكان هذا التحدي لقوم عرفوا بالبلاغة والفصاحة وكان كتـاب الله من جنس كلامهم فهو « لسان عربي مبين »[٣] ، وشغلت بلاغـة القرآن وفصاحته الناس ، وعدّ العلماء ذلك وجها من وجوه الاعجاز وشرعوا يبحثون في هذا الوجه ويؤلفون الرسائل والكتب ، وكـان وصف الله ــ سبحانـه وتعالى ــ لكتابه العزيز انه « عربي مبين » منطلق البحث في فنون البلاغة والوقوف على أثرها في المعنى وفعلها في النفوس ، والبديع ــ بمعناه المتأخر ــ أحد الموضوعات التي سعوا الى اظهارها وتبيان قيمتها وأثرها في الكلام وهو ــ كمـا عرّفه القدماء ــ « علم يعرف به وجـوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقـه على مقتضى الحال

(*) نشر بعنـوان « القرآن الكريم والبديـع » في مجلـة الرسالـة الاسلامية (العـددان ١٥٥ ــ ١٥٦) رجـب ١٤٠٣هـ ــ نيسـان ١٩٨٣م . (السنة السادسة عشرة) .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٥ .

(٢) سورة الاسراء ، الآية ٨٨ .

(٣) سورة النحل ، الآية ١٠٣ .

ووضوح الدلالة »[٤] . ولكنهم لم يصيبوا في ذلك لانهم أخذوا تعريفهم مما وصلت اليه البلاغة العربية في عهودها المتأخرة ومن انصراف المنشئين الى الزخرف الذي أبعدهم عن الهدف الذي يسعى اليه البليغ الفصيح .

لقد كان العرب قبل الاسلام وبعده يلونون كلامهم بصور البديع ولم يقصدوا الى الزينة أو الحلية قصداً وانما وجدوا البديع جزءاً مهماً من الصياغة وأنه يعبر عن المعنى تعبيراً دقيقاً ويضفي على الكلمات ايحاء يثير في النفوس أجمل الصور وأروعها . ولو كان هدف البديع غير ذلك ما حفل به القرآن الكريم ولتجرد منه لانه كتاب هداية « ذلكَ الكتاب لا رَيْبَ فيه هُدًى للمتقين »[٥] وقد فصّله الله تعالى « على علم ، هُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون »[٦] . وكان كتاب الله من جنس كلامهم والى ذلك أشار المتقدمون فقال الامام محمد بن ادريس الشافعي : « إن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره ، لانه لا يعلم من ايضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها . وما علمه انتفت عنه الشُبَه التي دخلت على من جهل لسانها »[٧] . ثم تحدث عن أساليب العرب وقال : « فانما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها ، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها وان فِطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهراً يراد بهالعام الظاهر ويستغنى بأولهذا منه عن آخره ،وعاما ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه ، وعاماً ظاهراً يراد به الخاص ، وظاهراً يعرف في سياقه انه يراد به غير ظاهره ، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره . وتبتدىء الشيء من كلامها يبيّن أول لفظها فيه عن آخره وتبتدىء الشيء يبّين آخر لفظها منه عن أوله ، وتكلم

(٤) الايضاح ص٤٣٣ ، التلخيص ص٣٤٧ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢ .
(٦) سورة الأعراف ، الآية ٥٢ .
(٧) الرسالة ص٥٠ .

بالشيء تعرّفه بالمعنى دون الايضاح باللفظ كما تعرّف الاشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها . وتسمي الشيء الواحد بالاسماء الكثيرة ، وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة »(٨) . وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : « ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر ، ومجاز ما حذف ومجاز ما كف عن خبره ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين ، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد ، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا اشرك بينه وبين آخر مفرد، ومجاز ما خبر عن اثنين او عن اكثر من ذلك فجعل الخبر الواحد أو للجميع وكفّ عن خبر الآخر ، ومجاز ما خبر عن اثنين او اكثر من ذلك فجعل الخبر للأول منهما ، ومجاز ما خبر عن اثنين او عن اكثر من ذلك فجعل الخبر للآخر منهما . ومجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس ، والحيوان كل ما أكل من غير الناس وهي الدواب كلها ، ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناه مخاطبة الشاهد ، ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحوّلت مخاطبته هذه الى مخاطبة الغائب ، ومجاز ما يزاد من حروف الزوائد ويقع مجاز الكلام على القائهن، ومجاز المضمر استغناءً عن اظهاره ، ومجاز المكرر للتوكيد ، ومجاز المجمل استغناءً عن كثرة التكرير ، ومجاز المقدم والمؤخر . ومجاز ما يحوّل من خبره الى خبر غيره بعد أن يكون من سببه فيجعل خبره للذي من سببه ويترك هو . وكل هذا جائز قد تكلموا به »(٩) .

وقال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري في مقدمة تفسيره : « واذ كان لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عربيا فبيّن أن القرآن عربي وبذلك أيضا نطق بحكم تنزيل ربنا فقال جلّ ذكره : « إنّا أنزلناه قرآناً عربياً

(٨) الرسالة ص٥١ – ٥٢ .
(٩) مجاز القرآن ج١ ص١٨ – ١٩ .

لعلكم تعقلون »[١٠] وقال : « وانه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربي مبين »[١١] .

وإذ كانت واضحة صحة ما قلنا ــ بما عليه استشهدنا من الشواهد ودللنا عليه من الدلائل ــ فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لمعاني كلام العرب موافقة وظاهره لظاهر كلامها ملائماً ، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان بما قد تقدم وصفناه. فاذ كان ذلك كذلك فبيّن إذ كان موجودا في كلام العرب الايجاز والاختصار ، والاجتزاء بالاخفاء من الاظهار . وبالقلة من الاكثار في بعض الاحوال ، واستعمال الاطالة والاكثار والترداد والتكرار واظهار المعاني بالاسماء دون الكناية عنها ، والاسرار في بعض الاوقات الخاص في المراد بالعام الظاهر ، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر . وعن الكناية والمراد منه المصرح وعن الصفة والمراد الموصوف ، وعن الموصوف والمراد الصفة ، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر وتأخير ما هو في المعنى مقدم ، والاكتفاء ببعض من بعض وبما يظهر عما يحذف واظهار ما حظه الحذف أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ من ذلك في كل ذلك له نظيراً وله مثلاً وشبيها »[١٢] .

ولا يكاد كتاب بلاغي يخلو من اثبات هذه الحقيقة الخالدة التي لاينكرها إلاّ جاحد للقرآن واسلوبه العربي المبين . وهذه الحقيقة الناصعة التي لاريب فيها كانت دافعاً الى البحث في بلاغة كتابه الله ، وقد بذل الأقدمون جهوداً عظيمة في هذه السبيل مما يغني المعاصرين عن العودة الى بحثها والوقوف عليها لولا ما يثار بين حين وآخر من شبهات تجد صدى في بعض البيئات . ومن ذلك ان البلاغة العربية نشأت في ظل الأثر الاجنبي وهي دعوة أخذت تتردد

---

(١٠) سورة يوسف ، الآية ٢ .
(١١) سورة الشعراء ، الآيات ١٩٢ ــ ١٩٥ .
(١٢) جامع البيان ج١ ص٧ .

منذ اكثر من نصف قرن في الدراسات وبذيعها بعض المستشرقين وأنصارهم من العرب ، فقد آلمهم ان تكون اللغــة العربية متميزة على غيرها من اللغات وأن تظل خالدة على أصالتها التي نبعت من الأمة وروحها واستقت روعتها ورونقها وبهاءها من كتاب الله العزيز • وكان الدكتور طه حسين قد ذهب الى أن البيان العربي في أول نشأته وفي عهد الجاحظ تتبين فيه ثلاثة عناصــر هي : العنصر العربي ، والعنصر الفارسي الذي يميل الى البراعة والظرف في القول والهيئة. والعنصر اليوناني الــذي يتصل بالمعانــي من حيث دقتهـا والعلاقة بينها وبين الالفاظ • وانتهى الى أن البيان العربي « كان في جميع أطواره وثيــق الصلة بالفلسفة اليونانية أولا• وبالبيان اليوناني أخيرا •وإذن لايكــون أرسطو المعلم الاول للمسلمين في الفلسفة وحدها ولكنه الى جانب ذلك معلمهـم الاول في علم البيان »[١٣] • وليس ذلك بصحيح لان أرسطو لم يذكر سوى فنون بلاغية قليلة كالتشبيه والمجاز وهما مما اتفقت فيه الامم وعرفا في جميع اللغات ، وإلا" بعض ألوان البديع التي زخرت بكثير منها بلاغة العرب • وذهب المسيو مرسيه الى أن « الزخرف الفني وصل الى العرب من الفرس » وحجتــه « ان المولعين بالزخرف من كتاب اللغة العربية اكثرهم من الفرس المستعربين »[١٤] • والغريب ان القائلين بالأثر الفارسي لم يدرسوا المسألة دراسة علميــة وانمــا اكتفوا بما ردّده المستشرقون والمغرضون ، وقد ثبت أن البلاغة الفارسية ــ فنا وتأليفا ــ نشأت في عهد متأخر ، وكان كتابهــا متأثرين بالفن العربي ، وكان أهــم كتبها « ترجمان البلاغة » لمحمد بن عمــر الرادوياني و « حدائــق السحر في دقائق الشعر » لرشيد الدين الوطواط متأثرين بكتب البلاغة العربيــة وهما متأخران في الظهور ويرجعان الى القــرن الخامس للهجرة وما بعــده ، وكانت البلاغة العربيــة وكتبها قد أخذت طريقها الى التأليف منــذ أواخر القرن الثاني[١٥] ،

---

(١٣) مقدمة نقد النثر ص٣١ •

(١٤) النثر الفني ج١ ص ٤٤ •

(١٥) ينظر مناهج بلاغية لمعرفة ذلك بالتفصيل •

وكانت نشأتها عربية وفنونها أصيلة عرفها العرب قبل الاسلام وبعـده ولأجل ذلك ألف ابن المعتز العباسي كتابه « البديع » وقـال : « قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ــ صلى الله عليه ــ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهـم وأشعار المتقدمين من الكـلام الذي سماه المحدثون البديـع ، ليعلم ان بشـاراً ومسلماً وأبانواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هـذا الفن ولكنه كثـر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فاعرب عنه ودلّ عليه »[١٦] .

والأدلة على أن البلاغة العربية فن أصيل كثيرة[١٧] ، ولكن كتاب العربية الاكبر أعظم تلك الأدلة وأصدقها ، وكانت العنايـة ببلاغتـه وفصاحته عظيمة فوضع أبو عبيدة كتابه « مجاز القرآن » من أجل مسألة بلاغية تتصل بالتشبيه في قوله تعالى : « طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين »[١٨] ، وألف ابن المعتز كتابه لاظهار أصالة البديع في كتاب الله العزيز وكلام العرب البليغ ، وكتب يحيى بن حمزة العلوي كتابه « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » ليكون مقدمة يستعين بهـا كل من يقرأ تفسـير « الكشاف » الذي بناه مؤلفه الزمخشري على البلاغة وفن القول . وألف غيرهم كتبهم من أجـل ذلك لان « الانسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحـة لم يقع علمـه باعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعـة التركيب وما شحنه به من الايجاز البديـع والاختصار اللطيف وضمنه مـن الحلاوة ، وجلّله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها الى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها ، وانما يعرف اعجـازه من

(١٦) البديع ص١ .

(١٧) ينظـر « أثر البلاغـة العربية في البلاغـة الفارسية » المنشـور في مجلة « دراسات للاجيـال » ــ السنة الخامسـة ــ العـدد الثالث (كانون الاول ١٩٨٢) ص١١٩ ــ ١٥١ ، وسيأتي في هذا الكتاب .

(١٨) سورة الصافات ، الآية ٦٥ .

جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته وسلاسته ونصاعته وكمال معانيه وصفاء ألفاظه • وقبيح لعمري بالفقيه المؤتم به والقارىء المهتدي بهديه والمتكلم المشار اليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه ، وبالعربي الصليب والقرشي الصريح ألا يعرف اعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي أو أن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي • فينبغي من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده »[19] •

وألفت كتب خاصة في البديع ومن أشهرها « بديع القرآن » لابن أبي الاصبع المصري الذي أحصى فيه تسعة ومائة فن من بينها المساواة والايجاز والزيادة وهي من علم المعاني ، والتشبيه والتمثيل والمجاز والاستعارة والكناية وهي من علم البيان • وتبقى الفنون الأخرى خالصة لعلم البديع وهي كثيرة تدل دلالة واضحة على أن لغة العرب واسعة وانها لم تأخذ فنونها البلاغية من الفرس أو اليونان وانما ولدت في البيئة العربية يوم كان امرؤ القيس وأوس ابن حجر وزهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد والأعشى صناجة العرب وحسان ابن ثابت وغيرهم يطرفون البلاد ويرجعون على الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق ويقطعون البوادي بين الحجاز واليمامة ويصلون الى البحرين • وتألقت يوم نزل القرآن الكريم على خاتم الرسل وسيد الأنبياء ، ويوم أصبح المثل الاعلى لكل ناطق بالضاد •

إن الفنون البديعية التي ضمها كتاب الله تدل على أمرين :

الاول : ان هذه الفنون عربية غير منقولة عن الفرس واليونان ، وانها تمثل روح العرب وأصالتهم في التعبير •

---

(١٩) كتاب الصناعتين ص١ — ٢ •

الآخر : ان هذه الفنون ليست حلية تقتسر ، وانما هي ركن مهم في العبارة لايُستغنى عنها ، ولولا ذلك لم يحفل بها القرآن الكريم والحديث الشريف ولم يزدهر بها كلام العرب البليغ .

وتلك الفنون قسمان :

الأول : ضرب يرجع الى اللفظ كالجناس وردّ العجز على الصدر والسجع والموازنة والتشريع ولزوم ما لايلزم .

والآخر : ضرب يرجع الى المعنى كالمطابقة ـ الطباق ـ ومراعاة النظير والارصاد والمشاكلة والاستطراد والمزاوجة والتورية والاستخدام واللف والنشر والجمع والتفريق والتقسيم والمبالغة والمذهب الكلامي وحسن التأكيد وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح .

وقد عدّ المتأخرون هذه الألوان محسنات يُؤتى بها لتحسين الكلام ، وذلك التحسين ذاتي أو عرضي ، قال الدسوقي : « واعلم أن المحسنات البديعية انما يكون تحسينها عرضيا إذا اعتبرت من حيث أنها محسنة ، وهي من هذه الجهة يبحث عنها في علم البديع . وأما إذا اعتبرت من حيث انها مطابقة لمقتضى الحال لكون الحال اقتضاها كانت موجبة للحسن الذاتي ، وهي من هذه الجهة يبحث عنها في علم المعاني »[٢٠] . وهذا خلاف لايفضي الى ثمرة بل يؤدي الى انكار مالفنون البديع من قيمة في التعبير ، ولو اكتفى المتأخرون بما جاء في القرآن الكريم من ألوان البديع الكثيرة لأعرضوا عن البحث في التحسين الذاتي والعرضي ؛ لان ذلك لا يتفق وبلاغة القرآن وروعة اسلوبه المبين . إن التأمل في كلام الله والوقوف على معانيه السامية وتذوق ألفاظه الموحية ومعانيه المؤثرة يؤكد أنّ البديع لم يكن حلية أو محسنا عرضيا وانما هو اسلوب يهدف الى أمور منها :

---

(٢٠) حاشية الدسوقي ج١ ص١٣١ .

الأول إبراز المعنى بأجلى صورة وأوضحها .
الثاني : جمال التعبير واتساقه البديع .
الثالث : روعة التأثير وفعله في النفوس .

ولإيضاح الفكرة لابدّ من عرض بعض صور البديع من القرآن الكريم، فمن ذلك ما جاء من جناس تام في قولـه تعالى : « ألم ترَ أنَّ اللهَ يُزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله رُكاما فترى الودْقَ يخرج من خلاله ، وينزّل من السماء من جبال فيها من برَدٍ فيصيب به من يشـاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ، يُقلّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ ، إنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار »[٢١] . فقـد تحدث سبحانـه وتعالى عن قدرته حين يسوق سحاباً في السماء ثـم يؤلف بينه ويخرج المطر من خلاله ثـم ينزله من السماء فيصيب من يشاء فتخصب أرضهم وينمو زرعهم ، ويصرفه عمن يشاء فتجدب أرضهم وتسوء حالهـم . والصورة هنا مرئيـة بالعين فالسنا يذهب بالابصار ، ومحسوسة بالقلب وما يعتمل فيه حين يفرح الانسان لخير يعمه أو يحزن لشر يصيبه . وقد جاءت « الابصار » الأولى وهي جمع « بصر » معبرة بدقة عن المعنى في قوله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالابصـار » وجاءت الثانية بمعنى البصيرة والادراك في قوله تعالى : « إن في ذلك لعبـرة لأولي الابصار » . وليست هناك لفظة تغني عن إحداهما كالعيـون والقلوب ، وما أروع لفظة « البصر » التي ترددت في القرآن الكريـم كقوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنـك غطاءَكَ فبَصَرُكَ اليومَ حديد »[٢٢] وقوله : وما أمْرُ الساعـةِ إلاّ كلمح البصر أو هـو أقربُ »[٢٣]. وقوله : « ينقلبْ اليك البصرُ خاسئا وهو حسير »[٢٤] . وما أجمل « الأبصار » في

---

(٢١) سورة النور ، الآيتان ٤٣ – ٤٤ .
(٢٢) سورة ق ، الآية ٢٢ .
(٢٣) سورة النحل ، الآية ٧٧ .
(٢٤) سورة الملك ، الآية ٤ .

قوله : « فانها لاتعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور »[٢٥] وقوله : « وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ »[٢٦] .

ومن الجناس التام أيضا قوله تعالى : « ويومَ تقوم الساعةُ يُقسِمُ المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك يُؤفكون »[٢٧] » ، فالساعة الاولى يوم القيامة، والثانية الوقت، وقد جاءت للتعبير عن شعور المجرمين بالوقت القصير. ووردت لفظة « الساعة » كثيراً في كتاب الله وكانت تدل على يوم القيامة مرة وعلى الوقت مرة أخرى ، ولكـن الآية الكريمـة جمعـت الدلالتين في المعنيين ، وعبَّرتا عن المعنى أدق تعبير .

ومن الجناس الناقص قوله تعالى : « والتفت الساق بالساق . الى ربك يومئذ المساق »[٢٨] . و « المساق » هنا غير الرجوع أو الذهاب أو السير وغير ذلك من الالفاظ التي تدل على الاختيار ولكنه الجـرّ الى الله تعالى للحساب ، فكانت اللفظة شديدة الدلالة على المعنى ومعبرة عن الصورة التي يلقى فيها الانسان الجاحد ربه . وتتجلى الصورة بوضوح حين تربط بالمعنى العـام كله ، يقـول تعالى : « كلاّ إذا بلغت التراقي . وقيـل مَنْ راق . وظنّ أنـه الفراق . والتفّت السـاقُ بالساق . الى ربـك يومئذ المساق . فـلا صَدَّقَ ولا صلّى . ولكن كـذّبَ وتولّى . ثم ذهب الى أهله يتمطى . أَوْلى لك فأولى . ثم أَوْلى لك فأولى . أيحسبُ الانسان أن يُترك سُدًى . ألـم يـكُ نُطفةً من مَنيّ يُمنى . ثـم كـان علقةً فَخَلَقَ فَسَوّى . فجعل منه الزوجين الذكرَ والانثى . أليس ذلك بقادر على أن يُحيي الموتى »[٢٩] .

---

(٢٥) سورة الحج ، الآية ٤٦ .
(٢٦) سورة الاحزاب ، الآية ١٠ .
(٢٧) سورة الروم ، الآية ٥٥ .
(٢٨) سورة القيامة ، الآيتان ٢٩ — ٣٠ .
(٢٩) سورة القيامة ، الآيات ٢٦ — ٤٠ .

ومن صور البديع السجع كقوله تعالى في سورة الضحى: « والضحى• والليل إذا سجى • ما ودّعك ربّك وما قلى • وللآخرة خير لك من الأولى • ولسوف يُعطيك ربك فترضى • ألم يجدك يتيما فآوى • ووجدك ضالاً فهدى • ووجدك عائلاً فأغنى • فأما اليتيمَ فلا تقهر • وأما السائلَ فلا تنهر • وأما بنعمة ربك فحدّث » • لقد أقسم الله تعالى بالضحى ثم بالليل ولكنه ليس بالعاصف لان ذلك لايتفق واشراقة الضحى وعذوبته ، ثم وجّه الكلام الى نبيه العظيم فقال : « ما ودّعك ربك » وأوفق كلمة تأتـي بعد ذلك فعل « قلى » الذي لاتؤدي معناه لفظة اخرى كالهجر أو الترك لان القلى فيه بغض وكراهية ، وقد يترك الانسان صاحبه أو يهجره من غير أن يكرهه أو يحمل في قلبه عليه حقدا ولايقابل « الآخـرة » إلا « الأولى » ولا يكون بعد العطاء إلا الرضى في مثل هـذا الموقف ، وحينما انتهى الكلام الى ما كان عليـه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ من يُتْمٍ وحيـرة ، جاءت لفظة « الهدى » أو الفعل « هدى » بعد الضلالة و « الغنى » بعد «الفقر»، وكانت لفظة « تنهر » بعد « تقهر » لان كلاً من الفعلين يدل علـى المعنى المقصود ، فالقهر لليتيم والنهر للسائل مما يثير الألم في النفس ، وليس في اللغة ما يعبر عن هـذا المعنى تعبيراً دقيقا مثل هذين الفعلـين • وانّ ما جاء فيهما مما سُمِّيَ «لزوم ما لا يلزم» ليس حلية أو صناعة ، وانما هو ما اقتضاه المعنى ولو كان المقصود غير ذلك لجاءت أفعال اخرى ليس فيهـا هـذا اللون من البديع • ولما أراد ــ سبحانه وتعالى ــ من نبيه المرسل رحمة للعالمين أن يحدّث بنعمته قال : « وأمّا بنعمة ربك فحدّث » أي بلّغ ما ارسلت به وحدّث بالنبوة التي آتاك الله وهي أجل النعـم ، والفرق كبـير بـين « حدّث » و « خبّر » ولذلك لم يقل « فخبر » • فالسجع فـي سـورة « الضحى » لم يأتِ زينة وانما تطلبه المعنى واقتضاه ، ولو غُيّرت الالفاظ لتغيّر المعنى وذهب القصد ، وهذا هو السجع الذي حرص عليـه البلغاء والأدباء • أما ما شاع في كلام المتأخرين فهو قيود أفقدت الكـلام رواءه

ومعناه وحلية جعلت الناس ينفرون منه وينهون كما نهى النبي ــ صلى الله عليه وسلم عن سجع الكهان ولذلك ابتعد الباحثون عن هذه التسمية المأخوذة من سجع الحمام وهو ترديد صوتها وأطلقوا مصطلح « التواصل » على هذا اللون من التعبير في كتاب الله • وأصبحت الفاصلة أعم من السجع ودخلت فيها الموازنة وهي « أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية »[٣٠] كقوله تعالى : « ونمارقُ مصفوفة • وزرابيّ مبثوثة[٣١] » فلفظة « مبثوثة » لاتنتهي بما انتهت به « مصفوفة » ولكنها على وزنها • ومثل ذلك قوله تعالى : « وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم »[٣٢] ، فلفظة « المستقيم » لاتنتهي بالنون وانما بالميم القريبة منها ، وهي تعطي ايقاعا بديعا الى جانب التوازن بين الآيتين في عدد الكلمات والارتباط بينهما في المعنى •

والجناس والسجع من المحسنات اللفظية عند المتأخرين ، وفي ذلك ايحاء بأنهما يختصان باللفظ وحده ، وليس الأمر كذلك بل هما مادة المعنى وأداة التعبير في الآيات السابقة وفي بليغ كلام العرب وفصيحه • أما الضرب الآخر من البديع فهو المحسنات المعنوية ، وقد جعل المتأخرون منه المطابقة ــ الطباق ــ وهي « الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة »[٣٣] • والمطابقة من الأساليب المهمة في التعبير ؛ لأن في مقابلة الاضداد ابرازاً للمعنى وقد قيل : « والضدّ يظهر حسنه الضدُّ » • ومن بديع هذا الفن قوله تعالى : « وأنّه هو أضحك وأبكى وأنّه هو أمات وأحيا • وأنّه خلق الزوجين الذكر والانثى »[٣٤] ، فقد جاءت

---

(٣٠) الايضاح ص ٣٩٨ ، التلخيص ص ٤٠٤ •

(٣١) سورة الغاشية ، الآيتان ١٥ ــ ١٦ •

(٣٢) سورة الصافات ، الآيتان ١١٧ ــ ١١٨ •

(٣٣) الايضاح ص ٣٣٤ ، التلخيص ص ٣٤٨ •

(٣٤) سورة النجم ، الآيات ٤٣ ــ ٤٥ •

المطابقة بين « أضحك » و « أبكى » وبين « أمات » و « أحيا » وبين « الذكر » و « الانثى » وكانت الفواصل دالة على المعنى أحسن دلالة ومعبرة عن الغرض أبدع تعبير • ومثله قوله تعالى : « وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا • وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا »[٣٥]. فقد جاء « الرشد » و « الغي » وهما متضادان وجاء «لايتخذوه» و « يتخذوه » وهما متغايران • ولم يقصد الى هذه المطابقة قصداً وانما تطلبها المعنى واستدعاها ، ومثل ذلك قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر »[٣٦] فقد جاءت لفظة « الاسود » مطابقة لفظة « الأبيض » والمعنى هو الذي تطلبها ، ولا تصح كلمة أخرى مكانها لان « الابيض » يقابل « الأسود » مقابلة تامة ولو ذكر لون آخر لذهبت الصورة وخفي المقصود من التعبير بل لظهرت العبارة شاحبة ينقصها الاشراق والحياة •

ومما سمي محسنات معنوية اللف والنشر وهو « ذكر متعدد على جهة التفصيل والاجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده اليه »[٣٧] كقوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله »[٣٨] . فان « لتسكنوا » يرجع الى الأول وهو الليل ، و « لتبتغوا » يعود الى الثاني وهو النهار • وكقوله : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى »[٣٩] فان الضمير في « قالوا » لأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى • فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد الى كل فريق قوله،

---

(٣٥) سورة الأعراف ، الآية ١٤٦ .
(٣٦) سورة البقرة ، الآية ١٨٧ .
(٣٧) الايضاح ص ٣٥٥ ، التلخيص ص ٣٦١ .
(٣٨) سورة القصص ، الآية ٧٣ . (٣٩) سورة البقرة ، الآية ١١١ .

وهذا اسلوب مهم في اللغة العربية كثير الاستعمال في حصر القضايا ثم تفسيرها .

ومنها المذهب الكلامي وهو « أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام »(٤٠) كقوله تعالى : لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا (*) ، وقوله : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »(٤١) أي أن الاعادة أهون عليه من البدء ، وما دام الله قد خلق الناس فهو قادر على أن يعيدهم ويبعثهم من جديد . وكان المذهب الكلامي من الفنون التي أنكر ابن المعتز وجودها في القرآن الكريم فقال :« وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب الى التكلف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا»(٤٢) . ولكن هذا الفن من الأساليب التي يعتمد عليها الكلام ولذلك لم يأخذ البلاغيون برأي ابن المعتز وتحدثوا عنه في بديع القرآن وقال ابن أبي الاصبع المصري : « الكتاب الكريم مشحون به »(٤٣) وذكر كثيراً من الآيات الدالة على أهمية هذا الاسلوب في عرض القضايا والاستنتاج منها .

ومن جميل ألوان البديع ما سماه البلاغيون « الابداع » وهو « ان تكون كل لفظة من لفظ الكلام على انفرادها متضمنة بديعا أو بديعين بحسب قوة الكلام وما يعطيه معناه بحيث يأتي في البيت الواحد والجملة الواحدة عدة ضروب من البديع . ولاتخلو لفظة منه من بديع فما زاد عليه »(٤٤) . وقد استخرج ابن أبي الاصبع كثيراً من الفنون في آية واحدة وهي قوله تعالى : « وقيل يا أرضُ ابلعي ماءكِ ، وياسماءُ أقلعي ، وغيضَ الماءُ ، وقُضي الأمر ، واستوت على الجوديّ ، وقيل بُعْداً

(٤٠) الايضاح ص٣٦٦ ، التلخيص ص٣٧٤ .
(٤١) سورة الروم ، الآية ٢٧ . (*) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢ .
(٤٢) البديع ص ٥٣ .
(٤٣) بديع القرآن ص ٣٧ ، تحرير التحبير ص ١١٩ .
(٤٤) بديع القرآن ص ٣٤٠ ، تحرير التحبير ص ٦١١ .

للقوم الظالمين » (٤٥) . وبلغت الفنون التي استخرجها احداً وعشرين من المحاسن منها : المناسبة ، والمطابقة ، وحسن التعليل ، وصحة التقسيم ، وحسن النسق ، والتسهيم ، وحسن البيان . ثم قال بعد أن ذكر الوجوه الكثيرة : « إذ" في كل لفظة بديع" وبديعان — كما تقدم — سبع عشرة لفظة تضمنت أحداً وعشرين ضربا من البلاغة سوى ما يتعدد من ضروبها فان الاستعارة وقعت في موضعين وهما استعارة الابتلاع والاقلاع . فانظر — رحمك الله — الى عظمة هذا الكلام وما انطوى عليه نظمه وما تضمنه لفظه لتقدره قدره . وهذا ما ظهر لي منه على ضعف نظري وقلة مادتي من العلوم وكلال ذهني والله أعلم »(٤٦) .

وفي كتاب الله كثير من الفنون البديعية الأخرى كالالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والتفويف والمماثلة والانسجام والتهكم والفرائد والنزاهة وغيرها من الفنون التي ذكرها البلاغيون ، وهي كلها ترتبط بالمعنى ارتباطاً وثيقاً أي أنها ليست حلية أو محسنا يؤتى به لتزيين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة . ولو كان هذا هدف البديع لأعرض عنه القرآن ونأى وابتعد عن استعماله النبي العربي وصحابته الابرار وتجنبه البلغاء والفصحاء .

إن البديع فن عربي لا ريب في ذلك وان الفرس أو غيرهم من الامم الاسلامية أخذوه من العرب ، ولم يكن الجاحظ مبالغا حينما قال : « والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان »(٤٧) ، وانما هي الحقيقة الناصعة التي لاينكرها إلاّ من كان جاحداً أو من كان شديد الخصام . لقد استعمله الشعراء قبل الاسلام ورفع شأنه القرآن وأكسبه جمالاً وقدرة على أداء المعنى بدقة ووضوح ولكن بعض الدارسين المتأخرين أرجعوا كل فضل الى الفرس أو اليونان ، وسلبوا

(٤٥) سورة هود ، الآية ٤٤ . (٤٦) بديع القرآن ص ٣٤٢ — ٣٤٣.
(٤٧) البيان والتبيين ج٤ ص ٥٥ .

الأمة العربية كثيراً من خصائصها الفكرية وسماتها الفنية .» والموازنة الدقيقة بين ما للعرب وغيرهم من الأقوام والامم تظهر أن أبناء الضـاد مبتدعـون لا مقلدون ، وان بلاغتهم وسعت ألوان التعبير ، وكانت ذات قدرة عجيبة على التصوير » ومن هنا جاءت الدعوة الى إعادة النظر فيما كتـب فـي القرن العشرين والنظر في الآراء التي ترددت سنوات من غـير تمحيص ليوضع الفكر العربي الاسلامي حيث ينبغـي أن يوضع ويأخذ مكانه في الحضارة الانسانية » وفي ظل هذه الدعوة الصادقة كان النظر في البلاغـة العربية ، وهي دعوة بدأت في مطلع هذا القرن أو قبله بقليل وأثمرت بعض الثمار على يدي الامام الكبير الشيخ محمد عبده الذي أولى البلاغة عنـاية كبيرة وأمر بطبع كتابي « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » لعبدالقاهر الجرجاني ، ولكن دعوة الامام أصابها الركود بعد وفاته ولم ترتفـع إلا أصوات قليلة في سبيل إحياء بلاغة القرآن ، وظلت الاتجاهات المريبة تسيطر على الدرس البلاغي متخذة من صور الأدب المتأخرة منطلقاً أغرى كل حاقد على العرب بأن يصم فن قولهم بما لاتؤيـده الحقيقة ولا يقبله البحث العلمي الدقيق » والعودة الى النبع الصافي والأخذ بما أبدعه العصر الحديث يعبّد الطرق ويفتح الآفـاق الرحبة لكل من يرتـاد هذه السبيل » والقرآن الكريم هو المثل الأعلى لكل باحث يؤمن بالمعاني السامية والقيم الرفيعـة ، ولعل دراسة البديع من هذا المنطلق تغيّر مـا درج عليـه الباحثون وتعيد الى هذا اللون من صور التعبير سماته وترجـع اليه وجهـه المشرق الذي تجلّى في كتاب الله وكلام البلغاء والفصحاء » وهذا هو المقياس الصحيح فـي مثـل هذه الدراسة الفنية النابعة من روح الأمة العربية وأصالتها ؛ لان الحكم على فنون البديع من خلال أدب العهود المتأخرة يسلبه قيمته ويجعله زخرفا وزينة وقيدا ولن تنهض اللغة العربية وتتجلّى أساليبها المشرقة ويعود اليها رواؤها ما لم ينهل أبناؤها من معينها الصافي ويتذوقـوا عذوبتها ويعتزوا بها ، لأنها لغة كتابهم الخالد وعزة وحدتهم ووعاء فكرهم وعنوان حضارتهم .»

١ ـ أثر البلاغة العربية في البلاغة الفارسية ـ الدكتور احمد مطلوب . بحث نشر في مجلة (دراسات للاجيال) كانون الاول ١٩٨٢م .
٢ ـ الايضاح ـ الخطيب القزويني . مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة .
٣ ـ البديع ـ ابن المعتز . طبعة كراتشكوفسكي . لندن ١٩٣٥م .
٤ ـ بديع القرآن ـ ابن أبي الاصبع المصري . تحقيق الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م .
٥ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م .
٦ ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن ـ ابن أبي الاصبع المصري . تحقيق الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م .
٧ ـ التلخيص ـ الخطيب القزويني . تحقيق عبدالرحمن البرقوقي . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣٢م .
٨ ـ جامع البيان في تأويل آي القرآن ـ ابن جرير الطبري . الطبعة الثانيه ـ القاهرة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م .
٩ ـ حاشية الدسوقي ـ محمد بن محمد عرفة (مطبوع في شروح التلخيص ـ القاهرة ١٩٣٧م) .
١٠ ـ الرسالة ـ الامام محمد ابن ادريس الشافعي . تحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٤٠م .
١١ ـ كتاب الصناعتين ـ أبو هلال العسكري . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .
١٢ ـ مجاز القرآن ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى . تحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين . القاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م .
١٣ ـ مناهج بلاغية ـ الدكتور احمد مطلوب ـ بيروت ١٢٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .
١٤ ـ النثر الفني في القرن الرابع ـ الدكتور زكي مبارك . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م .
١٥ ـ نقد النثر ـ المنسوب الى قدامة بن جعفر . تحقيق الدكتور طه حسين وعبدالحميد العبادي . الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٣٨م .

● ● ●

(٨)

أثر الحديث في البلاغة

الملامح :

كان الرسول الأعظم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ذروة الفصاحة والبلاغة وقد قال عن نفسه : « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش » ، قال يحيى بن حمزة العلوي : « فان كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان نازلاً عن فصاحة القرآن وبلاغته في الطبقة العليا بحيث لايدانيه كلام ولا يقاربه وإن انتظم أي انتظام [١] » . وكلامه ـ عليه السلام ـ المصدر الثاني من مصادر التشريع الاسلامي ، غير أن اللغويين والنحاة لم يستفيدوا منه كثيراً مع اعتزازهم به وتصديقهم لصاحب الرسالة الاسلامية عليه أفضل الصلاة والسلام . ولو اعتمد القدماء كثيراً على كلامه ـ عليه السلام ـ لتطورت اللغة العربية واستجدت صيغ وبنيت قواعد تغيّر كثيراً مما استقرّ في الاذهان . ولعل البلاغيين ـ أي علماء البلاغة ـ كانوا أشدّ التصاقاً بالأحاديث الشريفة من علماء اللغة والنحو فقد تحسسوا البلاغة النبوية ونهلوا منها ما وسعتهم قواعدهم وأسعفتهم تقسيماتهم .

ولعل الشريف الرضي (ـ ٤٠٦هـ) كان من أكثر القدماء رجوعاً الى كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ألّف كتاباً سماه « المجازات

---

* نشر في مجلة (دراسات عربية واسلامية) ح٢ سنة ١٩٨٢ . وهي التي أصدرتها اللجنة الوطنية لاحتفالات القرن الخامس عشر للهجرة ، والباحث أحد أعضائها .

(١) الطراز ح ١ ص ١٦٠ .

النبويـة » تعرض فيـه لما ورد في الأحاديث الشريفة من فن المجـاز بمعناه الواسع وتبه الى ذلك فقال : « واني سلكت من ذلك محجـة لـم تسلك وطرقت باباً لم يطـرق ، وما رغبت اليّ فيـه من سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عـن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة ولمع البيـان الغريبة وأسرار اللغة اللطيفة»[٢] . وهذه التفاتة عظيمة من الشريف الرضـي الى الحديث الشريف ، وقد مهّد بذلك السبيل للبلاغيين الذين أخذوا يعتمدون على كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويوردون منـه أمثلة واضحة للفصاحـة والبلاغـة .

ويتجلى اثر الحديث الشريف في البلاغة في موقفين :

الاول : اتخاذ الحديث سبيلاً لتعلم الكتابة واتقانها والتوصـل الى الاساليب الرفيعة ، أي ان كلام الرسول ـ عليه السلام ـ مدة أساسيـة لضبط اللغة والتفنن فيها . وكان ضياءالدين بن الاثير (ـ٦٣٧هـ) أشهر من دعا الى ذلك في الفصل الذي عقده لآلات علم البيان وأدواته فقال : « إذا ركّبَ الله تعالى في الانسان طبعاً قابلاً لهذا الفن فيفتقر حينئذ الى ثمانيـة أنواع من الآلات»[٣] وكانت احدى تلك الآلات « حفظ ما يحتـاج اليه من الأخبار الواردة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والسلوك بها مسالك القرآن الكريم في الاستعمال » . وقال شهابالدين الحلبي (ـ ٧٢٥هـ): « ويتلو ذلك الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية ـ صلوات الله علـى قائلها وسلامه ـ وخصوصا في السير والمغـازي والأحكام والنظر في معانيها وغريبها وفصاحتها وفقه ما لابدّ من معرفته من أحكامها لينفق منهـا عـن سعة ويستشهد بكل شيء في موضعه ويحتج بمكان الحجة ويستدل بموضع

(٢) المجازات النبويـة ص ١٩ .

(٣) المثل السائـر جـ١ ص ٩ .

الدليـل ، ويتصرف عن علـم بموضوع اللفظ ومعنـاه ، ويبني كلامه على أصل لايرفع ويسوق مقاصده الى سبيل لايصدّ عنه ولايدفع • فان الدليل على المقصـد إذا استنـد الى النص سلـم له وسلم ، والفصاحـة إذا طلبت غاياتها فانها بعد كتـاب الله في كلام من أوتي جوامـع الكلم • وقد كان على ذلك في الصدر الأولّ من الصحابة وتابعيهم[٤] » • وقال ابن الاثير الحلبي (ـ ٧٣٧هـ) فيمـا يحتاج اليـه كاتب الانشـاء من العلوم والفضائل ليعد كاتبا : « ومنها حفظ جملة من الأحاديث النبوية لفائدتين :

إحداهما : تبركـاً بالحديث لقولـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من حفظ على أمتي أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فـي زمرة العلماء » وهـذه فائدة أخروية •

والفائدة الثانية : السلوك به مسلك كتاب الله العزيـز باستعماله في مطاوي كلامه مكان الاستشهاد به ، وعند الاحتياج اليه بأمر أو نهي بشرط لزوم الأدب الشرعـي فـي استعمالـه حتى لايستعملـه فيمـا يكـره الاستعمـال فيـه شرعـا »[٥] •

ودخل الحديث الشريف في كلام الادباء واقتبسوا منه كثيراً فقال منصور الهروي الازدي :

فلو كانت الاخلاق تحوى وراثةً	ولـو كانـت الآراء لاتتشعّبُ
لأصبح كل الناس قد ضمّهم هوى	كما أنّ كل الناس قد ضمّهم أَبُ
ولكنهـا الأقدارُ ، كـلٌ ميسّرٌ	لمـا هـو مخلـوق لـه ومقـرّبُ

(٤) حسن التوسـل ص ٧٨ .

(٥) جوهر الكنـز ص ٣٠ .

والبيت الأخير مقتبس من قوله عليه السلام ــ : «اعملوا ، كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له »[٦]، وعقدوا من الحديث الشريف كقول الامـام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ :

عمـدة الخـير عندنـا كلمـاتٌ أربـعٌ قالهـنَّ خـيرُ البريَّـه
اتّـقِ المشبهات وازهد ودع مـا ليـس يعنيـك واعملـنَّ بنيَّـه

عقد قوله ــ عليه السـلام ــ : « الحـلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ وبينهما أمور مشتبهات » ، وقولـه : « ازهد في الدنيا يحبـك الله » وقوله : « من حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لايعنيه » وقوله : « إنما الاعمال بالنيات »[٧].

وأدخلـوا الحديث في حسن التعليل ، قال ابـن رشيـق يعلل قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « جعلت لي الارض مسجداً وطهورا » :

سألت الارض لمْ جُعلت مُصلّى ولِمْ كانـت لنـا طُهْـراً وطيبـا
فقالـت غـير ناطقـة لأنـي حويـت لكـل انسـان حبيبـا

قال العلوي : « ولقد أحسن في الاستخراج وألطف في التعليل فلأجل ما قاله كان ذلك علة في كونها طهوراً ومسجدا »[٨] .

وحلّوا الأحاديث الشريفة ، وكان ضياء الدين بن الاثير من أكثر القدماء اهتماما بذلك ، وقد تحدث عن حلّ آيات القرآن فقـال : « وأما حلّ آيات القرآن العزيز فليس كنثر المعاني الشعرية لان الفاظـه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها إلاّ أنه لاينبغي أن يؤخذ لفظ الآيـة بجملته فان ذلك من باب التضمين وانما يؤخذ بعضه فامـا أن يجعل أولاً لكـلام أو آخراً على حسب ما يقتضيه موضعه . وكذلك تعمـل بالاخبار النبوية على أنه قد يؤخذ معنى الآية والخبـر فيكسى لفظـاً غير لفظه . وليس لذلك مـن الحسن ما للقسم

(٦) الايضـاح ص ٤١٩ .
(٧) الايضاح ص ٤٢٣ ــ ٤٢٤ . (٨) الطراز ج٣ ص ١٣٩ .

الاول »[٩]، ثم قال : « وأما الاخبار النبوية فكالقرآن العزيز في حل ّ معانيها »[١٠]. وذكر كثيراً من الاخبار النبوية المطولة ليكون الطريق واضحا لمن يقوى على سلوكه ، وتبعه في ذلك المتأخرون كشهاب الدين الحلبي في كتابه « حسن التوسل الى صناعة الترسل »[١١] . وابن الاثير الحلبي في كتابه « جوهر الكنز » وقد قال : « وأما حل ّ الآيات من القرآن العزيز وكذلك الاحاديث النبوية فينبغي للمنشيء أن لا يأخذ عند حل ّ الآية والحديث جملة اللفظ فان ذلك من باب التضمين ، ولا يأخذ المعنى مجرداً عن اللفظ بكماله إلا إن أراد بذلك الاستشهاد ، بل إذا وقع له معنى وكانت آية من الآيات الكريمة أو حديث من الأحاديث النبوية يتضمن ذلك المعنى فليجعل الآية والحديث في سياق كلامه المناسب للمعنى فيطرز كلامه بالآية أو الحديث »[١٢].

لقد كان الحديث الشريف منهلاً عذبا استقى منه الأدباء بلاغتهم وفصاحتهم وأخذوا عنه المعاني الرفيعة والصور البديعة والالفاظ الرشيقة فازدان أدبهم وحلا لفظهم وعذبت معانيهم .

الثاني : اتخاذ الحديث الشريف شاهداً بلاغيا رفيعا الى جانب كلام الله تعالى . والبلاغيون في هذا المنحى اكثر حرية من اللغويين والنحاة وأعظم قدرة على تحسس ما في كلام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من بلاغة فاقت كلام العرب . وتتضح الاستفادة من الحديث في الشاهد البلاغي في كتاب « الطراز » ليحيى بن حمزة العلوي الذي اختط لنفسه منهجا في ذكر الشواهد والأمثلة ، فهو بعد أن ينتهي من بحث الموضوع يذكر أمثلة تتوزع

---

(٩) المثل السائر ج١ ص ١١٤ .
(١٠) المثل السائر ج١ ص ١٢٧ .
(١١) ينظر حسن التوسل ص ٧٨ ، ص ٣٢٥ وما بعدها .
(١٢) جوهر الكنز ص ٦٠٩ .

على أربعة أنواع :
الأول : من كلام الله سبحانه وتعالى .
الثاني : من الاخبار النبوية الشريفة .
الثالث : من كلام الامام علي ــ كرّم الله وجهه ــ .
الرابع : من كلام البلغاء وأهل الفصاحة .

وهذه قاعدة مطردة سارعليها في كتابه وبذلك تجلت العناية بكــلام الرسـول الكريم واتضحت صوره المختلفة . وكان جـلال‌الدين السيوطي (ــ ٩١١هـ) يكثر من الاستشهاد بالحديث الشـريف في فنون البلاغة ولا سيما البديع : قال : « وقد التزمت أن آتي في كل نوع بمثال فأكثر من الحديث النبـوي تبركا وتشريفا وتيمنا به »[١٣]. وعند الرجـوع الى كتب البلاغة ولاسيما المتأخرة منها نجد العناية بالحديث الشريف واضحـة كل الوضوح ، ونجد المؤلفين ينهلون من هذا المنهل العذب‌ويوشحون به قواعدهم وتقسيماتهم الى جانب كلام الله ــ تعالى ــ وكلام العرب البلغاء . ويستطيع الباحث أن يضع يده على هذه الظاهرة في معظم فنون البلاغة ، ولكن عناية المتقدمين بالمجازات النبوية كان اظهر لروعة كلام الرسول ــ عليه السلام ــ وجمال صوره الجديدة ، وكان الشريف الرضي من أوائل الذين اهتموا بالمجاز وتحدثوا عنه في كتاب مستقل ، ومن كلامه ــ عليه السلام ــ الذي يدخل في المجاز المرسل قوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم ، وهم يد على مَنْ سواهم » ، و « يد » هنا بمعنى القوة . وهذا التفسيرهوالوجه الثاني الذي ذكره الشريف الرضي قال : « والوجه الآخر أن يكون « اليد » ههنا بمعنى القوة فكأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ قال : «وهم قوة على من سواهم » . والقوة أحد المعاني التي يعبر عنها باسم اليد »[١٤] . ومن ذلك قوله ــ عليه السلام ــ « اليد العليا

(١٣) شرح عقـود الجمـان ص ١٠٥ . (١٤) المجازات النبوية ص ٢٥ .

خير من اليد السفلى » ، وقوله : « إن هذه الاخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنحه منها خلقا حسنا فعل» ، وقوله : «مات حتف أنفه » فقد أطلق الجزء وأراد الكل ، وقوله : « الصدقة عن ظهر غنى » والظهر هنا القوة أي : لـه قـوة مـن غنـى .

وفي كلام الرسول الأعظم كثير من المجازات العقلية ومن ذلك قوله ــ عليه السلام ــ : « حمي الوطيس » وقوله : « إن من البيان لسحرا » وقوله : « حبك الشيء يعمي ويصم » ، وقوله : « تنام عيناي ولا ينام قلبي » وقوله : « وصلّ الظهر بعدما يتنفس الظل وتبرد الرياح » وقوله : « إذا ملأ الليلُ بطن كل واد »[١٥] .

وفيه من مجاز الحذف قوله ــ عليه السلام : « هذا جبل يحبنا ونحبه» أي : يحبنا أهله ، وقوله : « نهران مؤمنان ونهران كافران » أي ان أهل هذين النهرين مؤمنون وأهل هذين النهرين كافرون ، وقوله : « الايمان هيوب » أي : صاحب الايمان هيوب[١٦] .

ومن الاستعارات البديعة في كلامه ــ عليه السلام ــ قوله : « كلما سمع هَيْعَةً طار لها » فان العَدْوَ والطيران يشتركان في أمر داخل في مقومهما وهو قطع المسافة بسرعة ولكن الطيران أسرع من العدو[١٧] . ومن ذلك قوله : « أكثروا من ذكر هادم اللذّات فانكم إن ذكرتموه في ضيق وسّعه عليكم » فاستعار هادم اللذات للموت . وقوله : « لاتستضيئوا بنار المشركين » فاستعار ذكر النار للرأي والمشورة ، والمعنى لاتهتدوا بآراء المشركين . وقوله : « قيّدوا القرآن بالدرس فان له أوابدَ كأوابد الوحش » فاستعار ذكر « الاوابد » وهي الحيوانات الوحشية لما فيها من النفار وشدة

---

(١٥) المجازات النبوية ص ٤٤ ، ٩٢ ، ١٣٥ ، ١٧٢ ، ٣١٢ .
(١٦) المجازات النبوية ص ٢٣ ، ٢٤ ، ١٧٤ .
(١٧) كتاب الصناعتين ص ٢٧٧ ، الايضاح ص ٢٩٠ .

الشرود لذهاب هذه المحفوظات عن القلب إذا لم تكن راسخة فيه بشدة الدرس لها[١٨] • وفي كتاب « المجازات النبوية » للشريف الرضي كثير من هذه الاستعارات البديعة التي كان كثير منها جديداً لم ينطق بمثله العرب •

ومن التشبيهات البديعة في كلامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقوله : « المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر أعضائه بالسهر والحمى » وقوله: « الحياء من الايمان كالرأس من الجسد » وقوله : « الناس كأسنان المشط في الاستواء » وقوله : « انه لم يبق من الدنيا إلا كالناخة راكب أو صر حالب »[١٩] •

ومن التخييل قوله ــ عليه السلام ــ : « أتيتكم بالحنيفية البيضاء » وذلك لتخيل ان السنن ونحوها من الجنس الذي هو اشراق أو ابيضاض وان البدعة ونحوها على خلاف ذلك[٢٠] • وكثير من هذه التشبيهات أصبح أمثالاً كقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ : «أنتم الشعار والناس الدثار»وقوله: « الاسلام يجب ما قبله » وقوله : « اياكم وخضراء الدمن » وقوله : « المؤمن مرآة أخيه »[٢١] •

وفي الأحاديث الشريفة كثير من الكنايات ، وقد قال ابن أبي الاصبع المصري : « وفي السنة النبوية من الكناية ما لايكاد يحصر كقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «لايضع العصا عن كتفه » كناية عن كثرة الضرب أو كثرة السفر »[٢٢] • ومن ذلك قوله ــ عليه السلام ــ : « ذاك رجل لا يتوسد القرآن » قال الشريف الرضي : « وهذه من الاستعارات العجيبة والكنايات

---

(١٨) الطراز ج١ ص ٢١٤ ــ ٢١٦ •
(١٩) الطراز ج١ ص ٣٢٠ •
(٢٠) الايضاح ص ٢٢١ •
(٢١) المجازات النبوية ص ٤١ ، ٥١ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٨ •
(٢٢) تحرير التحبير ص ١٤٤ •

الغربية وهي تحتمل معنيين : أحدهما مدح والآخر ذم ، فأما المــدح فهــو أن يكون المــراد به أنه لاينــام عن قراءة القرآن بل يقطــع ليله بالتهجد به والتصرف مع تلاوته فيكون القائم بدرسه كالمشتمل به والنائــم كالمتوسد له، كأنه جعله وساداً لخده وفراشا لجنبه ... وأما المعنى الآخر الذي يحتمل الذم فهو أن يكون المراد انه غير حافظ للقرآن فليس بخازن من خزنته ولا وعاء من أوعيته ، فاذا نام لم يكن متوسداً له كما يوسده من هو ظرف من ظروفه الحاوية له والمشتملة عليه »[٢٣] ، ومن ذلك أيضا قوله لازواجه ــ رضي الله عنهن ــ : « أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يدا » أي : أسرعكن اكثركن كرمـا وعطاء »[٢٤] ، وقوله : « يا أنجشة رفقاً بالقواريــر » وهــذا كنايــة عن النســاء [٢٥] .

ومن التعريض قولــه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد خرج يوما وهــو محتضن لأحد الحسنين فقال لهما : « إنكما لمن ريحان الله وان آخر وطــأة وطئها الله بوج » وفي ذلك تعريض بقرب وفاته ــ عليه الصلاة والسلام ــ[٢٦] .

ومن أهم خصائص الأحاديث الفنية انهــا موجزة كل الايجــاز ولذلك استشهد بها البلاغيون عند كلامهــم على الايجــاز ، ومن ذلك قوله ــ عليه السلام ــ : « ألحزم سوء الظن » وقوله : « الخراج بالضمان » وقوله : «لا ضرار في الاسلام » وقوله : « الطمع فقر واليأس غنــى »[٢٧] ومــن الايجاز بالتقرير وهو الذي تكون ألفاظه مساوية لمعناه قوله ــ عليه السلام ــ: « الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبين ذلك مشتبهات » وقوله : « انما الاعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى » وقوله : « دع مايريبك الى ما لايريبك »[٢٨] .

(٢٣) المجازات النبويــة ص ٤١ .
(٢٤) المجازات النبوية ص ٥٩ــ٦٠ .
(٢٥) الطــراز ج١ ص ٤٠٧ .
(٢٦) الطــراز ج١ ص ٣٨٨ .
(٢٧) الايضاح ص ٢١١ ، الطراز ج٢ ص ٨٩ ، ١٢٨ .
(٢٨) الطــراز ج٢ ص ١٢٢ .

وفي كلامه ـ عليه السلام ـ الايجاز بالحذف فقد قال المهاجرون : « يا رسول الله إن الانصار قد فضلونا بأنهم آوونا ونصرونا وفعلوا بنا وفعلوا » فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أتعرفون ذلك لهم ؟ » قالوا : « نعم » قال : « فان ذلك » . قال الجاحظ : « ليس في الحديث غير هذا ، يريد ان ذلكم شكر ومكافأة »[٢٩] ، وقد قال ـ عليه السلام ـ عن نفسه « أوتيت جوامع الكلم » أي أنه « مكّن » من الالفاظ المختصرة التي تدل على المعاني الغزيرة »[٣٠] ، ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يطنب إذا اقتضى المقام ومن ذلك قوله : « من لذّذ أخاه بما يشتهيه رفع الله له ألف ألف درجة، وكتب له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة وأطعمه من ثلاث جنان : من جنة الفردوس ومن جنة الخلد ومن جنة عدن » ، وقوله : « من سقى مؤمنا شربة سقاه الله من الرحيق المختوم ـ أو قال من نهر الكوثر ـ ومن كسا مؤمنا كساه الله من سندس الجنة ، ومن أطعم مؤمنا لقمة أطعمه الله من طيبات الجنة وفواكهها »[٣١] .

ومن الاطناب بالتوشيع قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « يشيب ابن آدم ويشب فيه خصلتان : الحرص وطول الأمل»[٣٢] ، وقد يكرر إذا كان المعنى يتطلب ذلك ومنه قوله في وصف يوسف الصديق : « الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم : يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم»[٣٣].

وفي كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثير من ألوان البديع التي أسرف فيها المتأخرون ، وهو في ذلك لايثقل القول بها وانما يستعملها إذا اقتضاها المعنى وتطلبها الموقف ، أي أن فنون البديع جزء من العبارة وليست

(٢٩) البيان والتبيين ج٢ ص ٢٧٨ .
(٣٠) الطراز ج٢ ص ٨٨ .
(٣١) الطراز ج٢ ص ٢٤٨ .
(٣٢) الايضاح ص ١٩٦ ، تحرير التحبير ص ٣١٦ .
(٣٣) الايضاح ص ٨ ، الطراز ج٢ ص١٨١.

حلية تقتسر أو زينة يؤتى بها لتحسين الكلام فقط . وورود هذه الألوان في كلام أفصح العرب وأبلغهم دليل على أن السجع أو الموازنة أو الجناس أو غيرها ليست عيبا في الكلام بل هي ركن من أركانه . وقد حفل كتاب الله بكثير منها ، ومعنى ذلك انفهما نذّ عن بعض المعاصرين فأتّهم هذا اللون من التعبير بما لايصحّ متخذاً صور الأدب في العصور المتأخرة مثالاً لذلك ونسي هو أو غيره ما بين القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام البلغاء ، وما بين أدب المتأخرين من فروق جوهرية تجعل الباحث لايعطي حكمه على هذه الالوان من خلال النصوص الرديئة والكلام الركيك الضعيف .

ومن ألوان البديع التي ترددت في كلامه ــ عليه السلام ــ السجع كقوله : « ظهورها حرز وبطونها كنز » وقوله : « اللهم اني أدْرَأ بك نحورهم وأعوذ بك من شرورهم » . وقوله « ألا وان من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور » وقوله : « وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود»[٣٤] .

ومن الموازنة قوله ــ عليه السلام ــ : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » فـ « سبيل » و « غريب » مختلفان في اللفظ متفقان في الزنة وقوله : «فاذا اصبحت نفسك فلا تحدثها بالمساء واذا أمست فلا تحدثها بالصباح » فـ « المساء » و « الصباح » مختلفان لفظاً متفقان وزنا[٣٥] .

ومن اللف والنشر قوله : « فان المرء بين يومين : يوم قد مضى أحصي فيه فختم عليه ، ويوم قد بقي لايدري لعله لايصل اليه»[٣٦] .

(٣٤) المجازات النبوية ص٢٦ ، الايضاح ص٣٩٤ ، الطراز ج٣ ص ٣٠ .
(٣٥) الطراز ج٣ ص ٣٩ .
(٣٦) الطراز ج٢ ص ٤٠٥ .

ومن المبادي والافتتاحيات ما رواه ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال : « كان يعلمنا خطبة الحاجة بقوله : « الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يَهْدِه الله فلا مضلّ له ومن يضلـل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله » ، فهذه الكلمات كان يذكرها إذا أراد حاجة من الحوائج من نكاح أو موعظة أو فصل قضية أو غير ذلك من سائر الحاجات»[٣٧] ، وكان يقول ــ عليه السلام ــ غيرها في أغراض أخرى ، أي انه ــ عليه السلام ــ كان يربط بين الافتتاح وغرضه ، وهذا من أهم خصائص الكلام الذي يدل اوله على آخره وينبيء مطلعه عن مقطعه .

ومن التخلص البديع قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « قـد رأيتـم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود » ثم قال بعد ذلك : « فاذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكـم بالقرآن فانه شاف مشفع وشاهد مصدق فمن جعله أمامه قاده الى الجنـة ومن جعله خلفه ساقه الى النار ، هو أوضح دليـل الى خـير سبيـل » . قال العلوي : « فانظر الى ما أودعه هذا الكلام من التخلص الرائـق ، فبينا هو يذكر حال الليـل والنهار وحكمهما في المكونات إذ خـرج الـى حال القرآن ووصفه ، وان فيه الايضاح لكل مشكل وبيان لكل ملتبس ، تخلص الى ذكـره بأحســن تخلــص »[٣٨] .

وقد يرد الاقتضاب في كلامه ــ عليه السلام ــ ولكن ذلك الاقتضاب يكاد يقرب من التخلص ، ومن ذلك قوله : «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت » بعد قوله : « ألا وإنّ المرء بين مخافتين : بين أجل قد مضى لايدري ماالله صانع بـه ،

(٣٧) الطـراز ج٢ ص ٢٧٠ .
(٣٨) الطـراز ج٢ ص ٣٤١ .

وبين أجل قد بقي لايدري ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبد لنفسه من نفسه »[39] .

ومن الارصاد قوله ــ عليه السلام ــ : « فما بعد الموت من مستعتب . وما بعد الدنيا دار إلاّ الجنة أو النار » فان السامع إذا وقف على قوله : « فما بعد الدنيا من دار » فانه يتحقق لا محالة ان ما بعده « إلاّ الجنة أو النار » لما بينهما من شدة الملاءمة وعظيم المناسبة[40] .

ومن الاطراد قوله ــ عليه السلام ــ : « الكريم بن الكريم بن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم »[41] .

ومن الجناس البديع قوله ــ عليه السلام ــ : « الخيل معقود بنواصيها الخير » وقوله : « اللّهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » وقوله : « المؤمنون هينون لينون » وقوله : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله : « خلوا بين جرير والجرير » وقوله : « عليكم بالابكار فانهنّ اشدّ حبا وأقل خبا » وقوله : « جار الدار أحق بدار الجار »[42] .

ومن الطباق قوله ــ عليه السلام ــ : « عليك بالرفق ياعائشة ، فانه ما كان في شيء إلاّ زانه ، ولا ننزع من شيء إلاّ شانه » فجمع بين « الزين » و « الشين » وهما ضدان[43] .

ومن لزوم ما لايلزم قوله عليه السلام ــ : « فان كان كريماً أكرمك وإن كان لئيما أسلمك » وقوله : « وليحسن عمله وليقصر أمله » وقوله : « فلا يغني عكم إلاّ عمل صالح قدمتموه او حسن ثواب حزتموه »[44]. وهذا لبس

---

(39) الطراز ج2 ص 349 . (40) الطراز ج2 ص 322 .
(41) الايضاح ص 382 .
(42) المجازات النبوية ص 49 ، الايضاح ص 387 ، الطراز ج2 ص 356، 366 ، 370 .
(43) الطراز ج2 ص 380 . (44) الطراز ج2 ص 400 .

من الالزام الذي ضيق الادباء به على أنفسهم كما فعل ابو العلاء المعري في اللزوميات •

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم قوله ــ عليه السلام ــ : « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش »[٤٥] •

ومن الابهام قوله ــ عليه السلام ــ : « عش ما شئت فانك ميت وأحبب من أحببت فانك مفارقه ، واعمل ما شئت فانك ملاقيه » وقوله : « أحبب حبيبك هوْناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ،وابغض بغيضك هوْناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما »[٤٦] •

ومن الابهام الذي ظهر تفسيره قوله ــ عليه السلام ــ : « ألا أنبئكم بأمرين خفيفة مؤونتهما عظيم أجرهما لن يلقى الله بمثلهما ، ثم قال بعد ذلك تفسيرا لهما : « الصمت وحُسْنُ الخُلُق » • ومن ذلك قوله : « ألا أدلكم على ما إذا فعلتموه تحاببتم » قالوا : نعم ، قال : « افشوا السلام » وقوله : « ألا أدلكم على أخسر الناس صفقة ؟» قالوا : نعم ، قال : « من باع آخرته بدنيا غيره »[٤٧] •

هذه بعض ملامح أثر الحديث النبوي الشريف في البلاغة العربية وهي ملامح تدفع الى العناية بكلام أفصح العرب وأبلغهم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد اهتم علماء اللغة والنحو بكلام العرب ولم يقفوا طويلاً عند الاحاديث الشريفة ، وكان علماء البلاغة أكثر استفادة منهم ولكنهم ــ مع ذلك ــ لم يتعمقوا في دراسة اسلوب الأحاديث واستخلاص القيم الجمالية والصور الفنية التي حفلت بها • ولعل كتاب « المجازات النبوية » للشريف الرضي كان أهم معلم من تلك المعالم ، ولكنه وقف عند المجازات وترك الفنون الاخرى للبلاغيين الذين لم يتعمقوا فيها وان ذكروا في كثير من أبواب البلاغة

---

(٤٥) الايضاح ص ٣٧٣ •
(٤٦) الطراز ج٢ ص ٨١ــ٨٢ • (٤٧) الطراز ج٢ ص ٨٧ •

بعض الأحاديث كما فعل العلوي في « الطراز » والسيوطي في «شرح عقود الجمان » • ولكن تلك المحاولات تظل ناقصة وتبقى البلاغة النبوية بعيدة عن الدراسة الجادة ، ولعل هذا البحث الموجز الذي اعتمد على ما ذكره السابقون ولاسيما علماء البلاغة في العهود المتأخرة يدفع الى التعمق في هذا اللون من الدراسات ، وهو تعمق تتطلبه المناهج الحديثة وتحتاج اليه اللغة العربية وهي تسعى الى استيعاب ألوان الحضارة الجديدة وتتحفز للتقدم في مجالات الثقافة المختلفة وميادين العلم في هذا العصر •

السمات :

كان ذلك موقف علماء البلاغة من كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن لأنه كان نبياً طاعته واجبة وكلامه مصدّق أم أنّ هناك سراً عظيماً وراء تلك العظمة ؟

كان كلامه ـ عليه السلام ـ بليغا يأسر النفوس ويأخذ بمجامع القلوب وهو القائل : « إن من البيان لسحرا » فما ذلك البيان ؟ وما سماته ؟

لقد وقف القدماء عند بلاغته وفصاحته وكان الجاحظ من أوائل الذين لخصوا تلك السمات بقوله : « هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه ، وكثرت معانيه ، وجلّ عن الصنعة ، ونزه من التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى. قل يا محمد « وما أنا من المتكلفين »[(48)] • فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعيب[(49)] ،واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلاّ بكلام قد حفّ بالعصمة وشيّد

(48) سورة ص ، الآية ٨٦ وهي : « قل ما أسألكم عليه من اجر ، وما انا من المتكلفين » .

(49) التقعيب : كالتقعير ، وهو ان يتكلم باقصى قعر فمه .

بالتأييد ويسّر بالتوفيق وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن اعادته وقلة حاجة السامع الى معاودته فلم تسقط له كلمة ولا زلّت به قدم ، ولا بارت له حجة ولم يقم لـه خصم ولا أفحمه خطيب بل يذ الخطب الطوال بالكلم القصار ولايلتمس اسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلاّ بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطيء ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهبا ولا أكرم طلبا ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ٠٠٠٠ قال محمد بن سلام : قال يونس بن حبيب : « ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ » • وقد جمعت لك في هذا الكتاب جملاً التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار ، ولعل بعض من يتسع في العلم ولم يعرف مقادير الكلام يظن أنّا قد تكلفنا لـه من الامتداح والتشريف ومن التزين والتجويد ما ليس عنده ولا يبلغه قدره • كلا والذي حرّم التزيّد على العلماء وقبح التكلف عند الحكماء وبهرج الكذابين عند الفقهاء ما يظن هذا إلاّ من ضلّ سعيه »[٥٠] •

لقد انتبه الجاحظ الى هذه المسألة التي قد تثار في كل زمان ، وذكر سمات كلام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبرزها كثرة معانيه مع الايجاز ، وابتعاده عن الصنعة والتكلف والاسراف ، ومطابقته لمقتضى الحال، فالمبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجْر الغريب الوحشي والرغبة عن الهجين السوقي وغير ذلك مما ذكره الجاحظ وفيما يلاحظه الباحث في البلاغة النبوية التي جاءت من غير تعلم سوى ثقافة

(٥٠) البيان والتبيين ج٢ ص ١٧ــ١٨ •

النشأة في بيئة فصيحة اللسان بليغة القول ، وذكاء العقل الوقاد واختيار الله تعالى له ليكون رسولاً للناس كافة . وليس وراء ذلك أعظم من هذه الصفات التي جعلته — عليه السلام — ينطلق انطلاقا انسانيا ويعبّر عما يحس به الانسان في كل زمان ومكان مما دفع علماء البلاغة الى الوقوف عند عباراته وقفة اكبار وتقدير ، فقد قال — عليه السلام — : «لاتكونوا ممن اختدعته العاجلة وغرّته الأمنية واستهوته الخدعة فركن الى دار سريعة الزوال وشيكة الانتقال . إنه لم يبق من دنياكم هذه في جنب ما مضى إلّا كاناخة راكب أو صرّ حالب فعلام تفرحون ؟ وماذا تنتظرون ؟ فكأنكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن وبما تصيرون اليه من الآخرة لم يزل . فخذوا الأهبة لأزوف النقلة وأعدوا الزاد لقرب الرحلة ، واعلموا أنّ كل امرىء على ما قدّم قادم ، وعلى ما خلّف نادم » . قال العلوي معلقا على هذا الكلام العذب : « فليعمل الناظر نظره في هذا الكلام فما أسلس ألفاظه على الألسنة ، وما أوقع معانيه في الافئدة وما احتوى عليه من التنبيه البالغ والوعظ الزاجر والنصيحة النافعة ، فصدّره بالتحذير أولاً عما يعرض من مصائب الدنيا من الانخداع والغرور والاستهواء . وعقّبه ثانيا بالتحذير عن الركون الى الدنيا ونبّه بألطف عبارة وأوجزها على زوالها وانقطاعها وأردفه ثالثا بالحث على عمل الآخرة وأخذ الأهبة للزاد ، ونبّه على سرعة زوالها وانقطاعها وختمه بتحقق الحال في الاقدام على ما فعله من خير وشر ، وانه نادم لا محالة على ما خلفه من الدنيا وانه غير نافع ، ولا مجد »[٥١] . فكلام الرسول العظيم ذروة في البلاغة والتصوير ، أنه رقيق وانه جزل ، ومن الرقيق قوله — عليه السلام — : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واعدد نفسك في الموتى فاذا أمسيت فلا تحدثها بالصباح واذا أصبحت

(٥١) الطراز ج١ ص ١٦١ .

فلا تحدثها في المساء ، وخذ من صحتك لسقمك ومن شبابك لهرمك ومن فراغك لشغلك»[٥٢] .

ومن الجزل قوله : «يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن وينقص كل يوم من عمرك وأنت تفرح . أنت فيما يكفيك وتطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ، ولا من كثير تشبع»[٥٣] .

وكان — عليه الصلاة والسلام — يبتعد عن الكلمات التي توحي بما يخرج عن الذوق ، ومن ذلك قوله وقد كسا أسامة بن زيد قبطية[٥٤] فكساها امرأته فقال له — عليه الصلاة والسلام — : « أخاف أن تصف حجم عظامها » ولم يقل « حجم أعضائها » لما في هذه الكلمة من ايحاء غير جميل . قال الشريف الرضي : « وهذه استعارة والمراد أن القبطية برقتها تلصق بالجسم فتبين حجم الثديين والرادفتين وما يشذ من لحم العضدين والفخذين فيعرف الناظر اليها مقادير هذه الأعضاء حتى تكون كالظاهرة للحظه والممكنة للمسه ، فجعلها — عليه الصلاة والسلام — لهذه الحالة كالواصفة لما خلفها ، والمخبرة عما استتر بها . وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، وهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله : « إياكم ولبس القباطي فانها إلاّ تشفّ تصف » ، فكان رسول الله — صلى الله عليه وآله — أبا عذر هذا المعنى ، ومن تبعه فانما سلك نهجه وطلع فجه »[٥٥] . ومن ذلك قوله عليه السلام : « لا يقولنّ أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي » فكأنه كره أن يضيف المؤمن الطاهر الى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه[٥٦] .

---

(٥٢) الطراز ج١ ص ١١٨ .
(٥٣) الطراز ج١ ص ١١٧ .
(٥٤) القبطية — بضم القاف — ثياب تنسب الى القبط بمصر .
(٥٥) المجازات النبوية ص ١٢٩ .
(٥٦) ينظر الحيوان ج١ ص ٣٣٥ .

وسبق ــ عليه السلام ــ العرب في كلام جديد لم يألفوه او لم يأتوا به من قبل ، قال الجاحظ : « وسنذكر من كلام رسول الله ــ صلـى الله عليه وسلم ــ ما لم يسبقه اليه عربي ولا شاركه فيه أعجمي ، ولم يُدَّعَ لأحـد ولا ادّعاه أحد مما صار مستعملا ومثلا سائرا »[٥٧] ، ومن ذلـك قـوله ــ عليه السلام ــ : « يا خيل الله اركبي » وقوله : « مات حتـف أنفه » وقوله : « لاتنتطح فيه عنزان » وقوله : « الآن حمي الوطيس » وقولـه : « كل الصيد في جوف الفرا » وقوله : « لايلسع المؤمن من جحر مرتين »[٥٨]. ومن ذلك قوله : « يا أنجشه رفقا بالقوارير » وقوله : « أخاف أن تصـف حجم عظامها »[٥٩] ، وأثارت مثل هذه الكلمات الجديدة تعليقات بديعة فقال الشريف الرضـي عن قوله ــ عليه السلام ــ : « الآن حمـي الـوطيس » : « وهذه اللفظة الأغلب عليها انها من جملة الأمثال من قوله ــ عليه الصـلاة والسلام ــ وقد شرطنا ألاّ نذكر ههنا ما تلك حاله إلاّ ان لها بعض الدخول في باب الاستعارة فلذلك رأينا الايماء اليها والتنبيه عليها ، فقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « الآن حمي الوطيس » وهو يعني حمس الحرب وعظم الخطب مجاز ، لأن الوطيس في كلامهم حفيرة تحتفر فتوقد فيهـــا النـار للاشتواء وتجمع على « وُطُس » فاذا احتفرت للاختياز فهي « إرَة » وتجمع على « إرين » ولا وطيس هناك على الحقيقة وانما المراد ما ذكرنا مــن حـرّ القراع وشدة المصاع[٦٠] والتفــاف الابطـــال واختلاط الرجال »[٦١]. وقال ضياءالدين بن الاثير : « وهذا لم يسمع من أحد قبـل رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا : « استعرت الحرب » لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه « حمي الوطيس » والفرق بينهما

(٥٧) البيـان والتبيـين ج٢ ص ١٥ .
(٥٨) تنظر في البيان ج٢ ص١٥ ، الحيوان ج١ ص ٣٣٥، المزهر ج١ ص ٣٠١.
(٥٩) المجازات النبويـة ص ٣٣ ، ١٢٩ .
(٦٠) المصـاع : الضـرب .
(٦١) المجازات النبويـة ص ٤٤ـ٤٥ .

أن الوطيس هو التنور وهو موطن الوقود ومجتمع النار وذلك يخيل الى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها ، وهذا لايوجد في قولنا : « استعرت الحرب » او ما جرى مجراه» (٦٢) .

هذا بعض كلام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ مما لم ينطق به أحد وهو دليل على أثره في اللغة العربية وأساليبها وتطورها ، وقد صدق ــ عليه السلام ــ حينما قال : « أوتيت جوامع الكلم » أي أنه أوتي الكلم الجوامع للمعاني ذوات الدلالة القوية الواضحة والمؤثرة الموحية • ومن ذلك قوله ــ عليه السلام ــ : « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » يريد أن هؤلاء المعدودين صميم قريش ومحضها ولبابها وسرها أو انهم أعيان لقوم ورؤساؤهم • وقوله : « بُعِثْتُ في نَسَم الساعة إن كادت لتسبقني » يريد أنه بعث في تنفيس الساعة أي في امهالها وتأخرها أو أن يكون قد جعل للساعة نفساً كنفس الانسان • وقوله : « ذاك رجل لايتوسد القرآن » يريد أنه لاينام عن قراءة القرآن الكريم أو انه غير حافظ لكتاب الله • وقوله : « قد أناخت بكم الشُّرُفُ الجُون » أي الفتن المتوقعة ، وقوله : « لو يعلمون مايكون في هذه من الجوع الأغبر ومن الموت الأحمر » وهذه صورة تخيف وترعب ، وقوله : « الحياء نظام الايمان » وقوله : « أوثق العرى كلمة التقوى » وقوله : « الناس معادن » أي أنه لايحكم على ظواهرهم ، وقوله : « هي ليلة أضحيانه كأنّ قمراً يفضحها » وقوله : « لاتمشوا على أعقابكم القهقرى » أي لاترجعوا عن دينكم ولاتكفروا بعد إيمانكم فتكونوا كالراجع على عقبه ، وقوله : « حبك الشيء يعمي ويصم » وقوله : « تنام عيناي ولاينام قلبي » وقوله : « الكلمة الحكيمة ضالة الحكيم حيثما وجدها فهو أحق بها » وقوله : « المجاهد من جاهد نفسه » وقوله : « الشباب شعبة من الجنون » وقوله : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطب »

(٦٢) المثل السائر ج١ ص٥٠ ، وتنظر ص٦١ ايضا .

وقوله : « اللهم السَّم سَمّلنا » وقوله : « أرى عليه سَفْعة من الشيطان » وقوله : « معترك المنايا بين الستين والسبعين » وقوله : إن ذا الوجهين لخليق أن لايكون عند الله وجيها » وقوله : « الصبر عند الصدمة الاولى » وقوله : « والذي نفسي بيده لايسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه » وقوله : « لاتعادوا الأيام فتعاديكم » .

وهذه الأحاديث الشريفة من جوامع الكلم ، وهي من الأمثال التي تتردد والعبارات التي يستشهد بها في المواقف ويرجع اليها في الحكمة والبيان . إن هذه الروعة العظيمة والسحر المؤثر والمعنى البديع واللفظ الرقيق دفعت الناس الى حفظ الحديث الشريف والعمل به والتمثل بروائعه والاستشهاد ببلاغته وفصاحته ، وبذلك لم يكن الاعتداد عليه لانه كلام رسول الله فحسب ، وانما لأنه أرفع كلام عرفه العرب بعد كلام الله تعالى . ومن أجل ذلك كان أحد آلات علم البيان وأدواته وكان الشاهد البلاغي الرفيع ، وكان له تأثير في حياة العرب ولغتهم الخالدة .

المصـــــادر :

١ — الايضاح — الخطيب القزويني . القاهرة . (مطبعة السنة المحمدية) .

٢ — البيان والتبيين — الجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م .

٣ — تحرير التحبير — ابن أبي الاصبع المصري . تحقيق الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ١٣٨٣هـ — ١٩٦٣م .

٤ — جوهر الكنز — ابن الاثير الحلبي . تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام . الاسكندرية — مصر .

٥ — حسن التوسل الى صناعة الترسل . شهاب‌الدين الحلبي . تحقيق الدكتور اكرم عثمان يوسف . بغداد ١٩٨٠م .

٦ — الحيوان — الجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٣٥٦هـ — ١٩٣٨م .

٧ ـ شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ـ جلال الدين السيوطي . القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م .
٨ ـ الطراز ـ يحيى بن حمزة العلوي . القاهرة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م .
٩ ـ كتاب الصناعتين ـ ابو هلال العسكري . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .
١٠ ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ـ ضياءالدين بن الاثير . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م .
١١ ـ المجازات النبوية ـ الشريف الرضي . تحقيق محمود مصطفى . القاهرة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م .
١٢ ـ المزهر ـ السيوطي . تحقيق محمد احمد جادالمولى وجماعته ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة .



(٩)

أثر المدائح النبوية في البلاغة

البديعيات :

نزل القرآن الكريم فكان حجة بلاغية كبرى ومعجزة أدبية عظمى وقف العرب أمامها مبهورين لايعرفون لذلك سببا ولايملكون لتأثيره ردا • ولم يكن إزاء هذه المعجزة إلا أن يرجعوا الى أنفسهم لعلهم يجدون مخرجا ولكن الحجة أعيتهم ووقفت ألسنتهم واحتبست أصواتهم وهم يستمعون الى النبي العظيم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ يبلغ الناس قوله تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين • فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وَقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين »[١] • وقوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين • فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلاّ هو ، فهل انتم مسلمون »[٢]. وقوله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[٣] • وعجزوا عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهم أهل لسَنٍ

---

* نشر في مجلة المورد العدد الرابع (المجلد التاسع) سنة ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م بمناسبة الاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري .

(١) سورة البقرة ، الآيتان ٢٣ــ٢٤ .
(٢) سورة هود ، الآيتان ١٣ــ١٤ .
(٣) سورة الاسراء ، الآية ٨٨ .

وبلاغة فقالوا : « ما هذا إلاّ سحرٌ مفترى وما سمعنا بهـذا في آبائنـا الأولين»[٤] • وأخذوا يفرون من سماع كتاب الله خوفا من أن يؤثر فـي نفوسهم ويهديهم الى سواء السبيل كما هدى من قبل طليعـة المسلميـن ، وكانوا يقولـون إذا سمعوه كما قال الوليـد بن المغيرة وقد سمع النبـي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلو الآيات : « والله إنّ لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعـذق ، وإن فرعه لجناة»[٥] •

وشغل الناس بالقرآن بعد أن انتشر الاسـلام وأخـذوا يتدارسونه ويوضحون معانيه ويتحدثون عن ألفاظه وتراكيبه وما فيـه من فنون وقف العرب أمامها مبهورين • وكانت البلاغة من العلوم التي أولوهـا عنـاية كبيرة وجعلوهـا « أحـق العلوم بالتعلـم وأولاها بالتحفـظ ـ بعـد المعرفـة بالله جلّ ثناؤه » لانّ « الانسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبـراعة التركيب وما شحنه به من الايجاز البديـع »[٦] وذهبـوا أبعد من ذلك فنقل عمرو بن عبيد عن البلاغة انها « ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عـن النـار ، وما بصّرك بمواقع رشدك وعواقب غيك »[٧] •

وكان تأثير القرآن واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية ، وكانت آياته البينات الشاهد البلاغي الرفيع • وكان لمسألة الاعجاز أثر كبيـر فـي تطور البلاغة العربية وكان المتكلمون أول من بحث فـي اعجـاز القرآن وبلاغته ، واختلفت وجهـات النظر في ذلك وتشعبت سبل القـول وأصبحت تلك الدراسات أحسن مصدر للبلاغة وأجلّ مورد لمن أراد أن يتذوق القرآن ويفهم البيان • وسارت مواكب التأليف في البلاغة خدمة لكتـاب الله ولغـة

---

(٤) سورة القصص ، الآية ٣٦ •
(٥) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧٠ •
(٦) كتاب الصناعتيـن ص١ •
(٧) البيان والتبييـن ج١ ص ١١٤ •

الضاد ، وظهرت مئات الكتب تتحدث عن اعجاز القرآن وبلاغة العرب وترصد الفنون البيانية التي لها تأثير في الأدب . وشهد القرن السابع للهجرة لونا جديداً من التأليف في البلاغة هو « البديعيات » التي كانت تتضمن فنونا بلاغية معظمها في مدح النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن البحر البسيط وعلى رويّ الميم . وكانت المدائح النبوية قد ظهرت منذ عهد مبكر غير أنها أخذت طابعها المعروف حينما ذاع التصوف وانتشر . ولعل بردة البوصيري (- ٦٩٧هـ) أهم القصائد بين المدائح النبوية ، فهي « أولاً قصيدة جيدة ، وهي ثانياً أسيرُ قصيدة في هذا الباب ، وهي ثالثا مصدر الوحي لكثير من القصائد التي انشئت بعد البوصيري في مدح الرسول[٨] » ومطلعها :

أمن تذكر جيران بذي سَلَمِ مَزَجْتَ دمعاً جرى من مقلة بدمِ
أم هبّت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من أضمِ

والبردة في اثنين وثمانين ومائة بيت تشتمل على عدة عناصر ، في صدرها النسيب ويليه التحذير من هوى النفس ثم مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - والكلام على مولده ، والحديث عن القرآن الكريم والاسراء والمعراج والجهاد وتنتهي بالتوسل والمناجاة[٩] . وكان للبردة أثر في اللغة العربية يتمثل في التأليف والدرس والشعر ، ولكن أثرها في البلاغة يتجلى في « البديعيات » التي كانت لونا من ألوان البحث في فن القول وشرح الفنون البلاغية .

والبديعيات كثيرة ، وقد أحصى منها الدكتور احمد ابراهيم موسى في كتابه « الصبغ البديعي في اللغة العربية » أربعا وأربعين ، منها ما هو مشروح وما هو مجرد ، ومنها ما هو مطبوع وما هو مخطوط . وقد اختلف

(٨) المدائح النبوية في الأدب العربي ص ١٧١ .
(٩) حللها الدكتور زكي مبارك في كتابه « المدائح النبوية » ص ١٨٣ .

الباحثون في نشأتها فذهب الدكتـور زكي مبـارك الى أن أبا عبدالله محمد ابن أحمد المعروف بابن جابر الاندلسي (ــ ٧٨٠ هـ) ابتكرهـا ورسم أصولها [١٠] ، وذهب ابن معصوم المدني الى أن صفي الدين الحلي (ــ ٧٥٠هـ) أول من نظمها ، ولكنه استدرك وقال : « كنت أظن أنّ أول من نظـم أنواع البديع على هذا الاسلوب البديع فضمن كل بيت نوعا وانقاد له شموس هذا المراد طوعا هو الشيخ صفي الدين الحلي ــ رحمه الله تعالى ــ حتى وقفت في ترجمة الشيخ علي بن عثمان بن علي بن سليمان أمين الدين السليمـاني الأربلي الصوفي الشاعر على قصيدة لامية له ، نظم فيها جملة من أنواع البديع وضمّن كل بيت منها نوعا منه ، أولها الجناس التام والمطرف وهو :

بعـض هـذا الدلال والادلالِ حـال بالهجر والتجنبِ حـالي

ثم قال في الجناس المصحف والمركـب :

جُرْتَ إذ حُزْتَ ربع قلبي،وإذْ لا لي صبـر ، أكثرت مـن اذلالـي

فعلمت أن الشيخ صفي الدين لم يكن أبا عذر هذا المرام ولا أول من نظم جواهر هذا العقد في نظام ، فان الشيخ أمين الدين المذكور توفي قبل أن يولد الشيخ صفي الدين بسبع سنين ، وذلك ان وفـاة الشيخ أمين الديـن في سنة سبعـين وستمائة وولادة الشيخ صفي الدين فـي سنة سبع وسبعين وستمائة ، وأما نظم أنواع البديع على هذا الوزن والروي الذي نظم عليه الشيخ صفي الدين فلا أتحقق أيضا ان الشيخ صفي الدين هو أول من نظـم عليه ، فانه كان معاصراً للشيخ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن علي الهوّاري المعروف بشمس الدين بن جابر الاندلسي الأعمى صاحب البديعية المعروفـة ببديعية العميان ، ولا أعلم مَن السابق منهما الى نظـم بديعيته على هذا الاسلوب وإن كان الشيخ صفي الدين قد حاز قصبات السبق في مضمار براعة

(١٠) المدائـح النبويـة ص ٢٠٤ .

هذا المطلوب • فابن جابر لم يستوف الأنواع التي نظمها الشيخ صفي الدين بل أخلّ بنحو سبعين نوعا من الانواع وكلاهما لم يلتزما التورية باسم النوع البديعي، وأول من التزم ذلك الشيخ عزالدين الموصلي، ثم تلاه الشيخ تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبدالله الحموي المعروف بابن حجة ، والتزم ما التزمه الشيخ عزالدين وزاد عليه في أكثر الابيات بحسن النظم والانسجام ، إلاّ أنّ لذلك فضل المتقدم على المتأخر والمبتدع على المتبع • وقلّ من التزم بعدهما هذا الالتزام وما ذلك إلاّ لصعوبة هذا المرام»[11] • ورجّح الدكتور جواد علوش أن يكون صفي الدين الحلي أسبق من ابن جابر الاندلسي لأنه توفي سنة ٧٥٠هـ، وتوفي الثاني سنة ٧٨٠هـ ، وان ابن حجة الحموي اعترف بأسبقيته في عدة مواضع من خزانته[12] • ولكن ذلك ليس دليلاً أكيداً ، فقد يكون ابن جابر أسبق لانه كان قد تخطى الخمسين حينما مات الحلي ، ولعله نظمها في هذه السن أو قبلها بكثير فيكون له السبق في هذا المضمار •

ومهما يكن الأمر من اختلاف الباحثين في نشأة البديعيات فان من أوائلها بديعية علي بن عثمان الاربلي (ـ ٧٦٠هـ) الذي أشار اليه ابن معصوم المدني وعدّه أول من نظم في هذا اللون • وبديعيته ليست في مدح النبي العظيم وانما في مديح بعض معاصريه ولذلك لاتدخل في المدائح النبوية وإن كانت من اوائل البديعيات • وبديعية الاربلي تتضمن الفنون البلاغية ، وقد ذكر ابن شاكر الكتبي[13] ستة وثلاثين بيتا منها وفي كل بيت فن بديعي ، ففي قوله :

بعض هذا الدلال والادلال حال بالهجر والتجنب حالي

جناس، لفظي • وفي قوله :

جُرْتَ إذ حُزْتَ ربع قلبي ، وإذْ لاقي صبري ، أكثرت من إذلالي

(١١) انوار الربيع في انواع البديع جا ص ٣١ـ٣٢ •

(١٢) شعر صفي الدين الحلي ص ١٢٦ •

(١٣) فوات الوفيات ج٢ ص ١١٨ •

جناس خطي • وفي قوله :

رقّ يا قاسي الفؤاد لأجفا ... نٍ قصارٍ أسرى ليالٍ طوالِ

طباق • وفي قوله :

شارحات بدمعها مَجْمعَ البحـ ... ـرَين في حبّ مجمع الأمثال

استعارة • وفي قوله :

قصّ النوم في هواك قِصاصاً ... حيث أدنى منها خداع الخيال

مقابلة •

ولكن الشعراء بعد الاربلي اتجهوا الى مدح النبي — صلى الله عليه وسلم — ببديعياتهم معارضين بردة البوصيري ، ومن ذلك بديعية صفي الدين الحلي (— ٧٥٠هـ) وهي في مائة وخمسة وأربعين بيتاً ومطلعها :

إنْ جئتَ سَلْعاً فَسَلْ عن جيرة العلم ... واقرا السلام على عُرْبٍ بذي سَلَمِ

وضمّن كل بيت فيها محسّناً وضمت قصيدته مائة وخمسين إذ جعل فيها للجناس اثني عشر ضرباً ، ففي المطلع براعة الاستهلال والتجنيس المركب والمشتبه ، وفي البيت :

فقد ضمنت وجود الدمع من عدمٍ ... لهم ولم أستطع مَعْ ذاكَ منع دمي

تجنيس ملفق • وفي البيت :

أبيت والدمع هامٍ هامل سَرِبٌ ... والجسم في أضَمٍ واللحم في وَضَمِ

تجنيس مذيل ولاحق • وفي البيت :

من شأنه حمل أعباء الهوى كمداً ... إذا هَمَى شأنه بالدمع لم يَلُمِ

تجنيس تام ومطرف • وفي البيت :

مَنْ لي بكل غريرٍ في ظبائهم ... غرير حسن يداوي الكَلْمَ بالكَلِمِ

تجنيس مصحف ومحرف ، وفي قوله :

بكل قدَّ نضير لا نظير لـه ما ينقضي أملـي منـه ولا ألمـي

تجنيس لفظي ومقلوب ، وفي البيت :

وكل لحظ أتى باسم ابن ذي يزن في فتكـه بالمعنّى أو أبـي هَرَم

تجنيس معنوي ، وضمّ كل بيت من الأبيات الاخرى فنا بديعيا واحـدا . وسمّى الحلي بديعيته « الكافية البديعية في المدائح النبوية » وشرحها بكتاب سماه « النتائج الالهية في شرح الكافية » وذكر انها خلاصة سبعين كتابا[١٤]، وشرحها عبدالغني النابلسي (ــ ١١٤٣هـ) بكتاب سماه « الجوهر السني في شرح بديعية الصفي » ، وأثنـى عليها الحموي (ــ ٨٣٧هـ) في خزانته وفضلها على البديعيات الأخرى ، ومن اعجابه بالحلي قلّده وجاراه وحـذا حذوه ، قال مفتخراً ببديعيته : « فجاءت بديعية هدمت بها ما نحته الموصلي في بيوته من الجبال ، وجاريت الصفي مقيداً بتسمية النوع وهو في ذلـك محلـول العقـال »[١٥] .

ونظم ابن جابر الاندلسي (ــ ٧٨٠هـ) بديعيته في مائة وسبعة وعشـرين بيتـا استهلها بقولـه :

بطيبة انزل ويمّـم سيّدَ الامـمِ وانثر له المدحَ وانشر أطيبَ الكلمِ

وسماها « الحلة السيرا[١٦] في مدح خير الورى » وهي المعروفة ببديعية العميان ، وعدّه الدكتور زكي مبارك مبتكر هذا الفن وقال : « وقد شغل نفسه بمعارضة البردة ولكن لأي معارضة ؟ لقد ابتكر فنا جديداً هو البديعيات

---

(١٤) البديعية في ديـوان صفي‌الدين الحلي ص٦٨٥ ، والتفصيل في مناهج بلاغية ص ٣٢٨ . وطبع مجمع اللغة العربية بدمشق « شرح الكافيـة البديعية » سنة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م بتحقيق الدكتـور نسيب نشـاوي .

(١٥) خزانـة الادب ص ٤٦٧ .

(١٦) السيراء : المخططة ، او يخالطها حرير .

وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول ولكن كل بيت من أبياتهـا يشير الى فن من فنون البديع[١٧] ، وشرحها صديقه أبو جعفر أحمـد بن يوسف ابن مالك الرعيني الغرناطي (ـ ٧٧٩هـ) بكتاب سماه « طراز الحلة وشفاء الغلة » وأشار الى ان ابن جابر اتبع في سرد المحسنات الخطيب القزويني ، ولكنه بدأ باللفظ متابعاً بدرالدين بن مالك في « المصباح » ، قـال : « وقد آن أنْ آخذ في الكلام على أبيات القصيدة حسبما تحصل به الفائدة ويعود على الناظر فيه بأحسن عائدة فنقول : إن المصنف تبع في هذه القصيدة القاضي جلال‌الدين القزويني صاحب « الايضاح » و « التلخيص » فذكر من ألقاب البديع ماذكره إلاّ أنّ المصنف بدأ بالقسم الذي يتعلق باللفظ وأخّر القسم الذي يتعلق بالمعنى على ما ستنقف عليه . وهو في هذا الترتيب موافـق لصاحب « المصباح » وهو ترتيب حسن لانّ اللفظ وسيلة الـى المعنـى ، وحق الوسيلة أن تكون متقدمة ، وأيضا فان ما يتعلق بالمعنـى لايكون إلاّ بعد التركيب بخلاف ما يتعلق باللفظ ، وحال الافراد مقـدم على حـال التركيب»[١٨] . وأثنى السيوطي على بديعية ابن جابر وقال : « إنّ نظمها عال»[١٩] ولكن الحموي قال : « وظم هذه القصيدة سافل بالنسبة الـى طريق الجماعة غير ان الشيخ الامام العلامة شهاب‌الدين أبا جعفر الاندلسـي شرحها شرحا مفيدا»[٢٠] .

وظم عزالدين الموصلي (ـ ٧٨٩هـ) بديعية في مائة وخمسة واربعين بيتا التزم فيها تسمية الفن البديعي موريا بكلمـة عنـه في البيــت الذي يتضمنها ، ومطلعهـا :

براعة تستهل الدمْعَ فـي العلـم عبـارة عـن نـداء المفـرد العلـم

(١٧) المدائح النبوية ص ٢٠٥ .
(١٨) طراز الحلة وشفاء الغلة ص ١٧ .
(١٩) بغية الوعـاة ج١ ص ٣٥ .
(٢٠) خزانـة الادب ص ١١ .

ففي قوله : « براعة تستهل » اشارة الى براعة الاستهلال ، وفي قوله :

فحيّ سلمى وسل ما ركّبـت بشذا   قد أطلقته أمام الحي عن أمـم

تورية عن الجناس المركب والمطلق ، وفي قولـه :

ملفق ظاهر سري وشان دمـي   لمّا جرى من عيوني إذ وشى ندمي

تورية عن الجناس الملفق واشارة اليه • وكان الموصلي أول من فصـل ذلك ليتميز على الحلي الذي لم يلتزم بتسمية النوع ، قال عبدالغني النابلسي :

« ثم جاء بعد صفي‌الدين الشيخ عزالدين الموصلي ــ رحمه الله تعالى ــ فعارضه بقصيدة على منوال قصيدته ، وذكر من الانـواع ماذكره وزاد عليه بعض شيء يسير من اختراعاته معجبا بذكر النوع البديعي في ألفاظ البيـت موريا به لئلا يحتاج الى تعريف النوع من خارج النظـم ، ولكنـه تعسّف وتكلف في غالب أبياته وهجر مضجع الرقة والانسجام ، ثم شرحها شـرحا بيّن فيه مقصده ومراده مع الاختصار ولم يَشْفِ غلة الافكار»[٢١] .

ونظم أبو سعيـد زين‌الدين شعبان بن محمد بن داود بن علي الآثاري القرشي (ــ ٨٢٨هـ) ثلاث بديعيـات سمى الأولى « بديع البديـع فـي مديح الشفيع » وهي البديعية الصغرى وهي في مائة وتسعة وتسعـين بيتا وقد التزم فيها تجريد ألقاب الانواع التي ضمنها في البديعة الكبرى[٢٢] ومطلعهـا :

إن جئت بدراً فطب وانزل بذي سلمٍ   سلّم على من سبا بدراً على علم

وفيه براعة المطلع . وسمى الثانية « بديع البديع في مديح الشفيع » أيضا ، وهي البديعية الوسطى وهي ثلثمائة وثمانية أبيات ، ومطلعها :

دَعْ عنكَ سلعاً وسَلْ عن ساكن الحرم   وخلِّ سلمى وسَلْ ما فيه من كرم

(٢١) نفحـات الازهار ص ٣ .

(٢٢) بديعيات الآثاري ص ١١ ، ٢٠ .

وسمّى الثالثة « العقد البديع في مديح الشفيع » وهي البديعيــة الكبرى وهي أربعمائة وسبعة أبيـــات ، ومطلعها :

حسن البراعة حمد الله في الكلـــم   ومدح أحمد خير العـرب والعجـم

وفيه اشارة الى « حسن البراعة » ، وفعل مثل ذلك في الأبيات الأخــرى وأشار الى الفنون البلاغية مورياً •

وظهر في القرن الثامن أديب ناقد كان له أكبر الأثر فــي البديعيـــات وهو أبو بكر علي بن حجة الحموي (ــ ٨٣٧هـ) الذي وجد عصره يــزخر بالبديعيات ، وكان قد أعجب ببديعيتي الحلــي والمــوصلي فأراد أن يصنع بديعية تفوقهما وتعفوهما فنظم بديعية ضمّن كل بيت فيهـا لوناً بديعيـاً وأشار الى اسمه في البيت نفســه وسمّاها « تقديــم أبي بكر » وهي في مائة واثنين وأربعين بيتا ، ومطلعها :

لي في ابتدا مدحكم ياعرب ذيسلـم   براعة تستهلُّ الدمع فــي العلــم

ورأى أن هذه البديعية لن تكون ذات فائدة عظيمــة إن بقيت أبيات شعر تحفظ وتروى من غير تبصر بفنونها البديعية فوضع لها شرحاً سماه « خزانة الأدب وغاية الارب » ووازن بينها وبين بديعيتي الحلي والموصلــي[٢٣] • وكان لهذا الشرح أثر في البلاغة والبديعيات التي جاءت بعد ذلك فقد أخذ بعضهم على نفسه شرح بديعيته كالسيوطي والباعوني والمدني والنابلسي •

ولجلال‌الدين السيوطي (ــ ٩١١ هـ) بديعية سماها « نظم البــديع في مدح خير شفيع » في مائة وأربعين بيتاً مشتملة على مثلهــا مــن الأنواع ومطلعهــا :

من العقيق ومن تذكار ذي سلـم   براعـة تستهل الدمـع فــي العلــم

وشرحهــا شرحا موجــزا •

---

(٢٣) التفصيل فيمناهج بلاغية ص٣٣٥ ، القزويني وشروح‌التلخيص‌ص٤٤٧.

وقلم صدرالدين بن معصوم الحسيني المدني (ـ ١١١٧هـ) بديعية في مائة وسبعة وأربعين بيتا ، ومطلعها :

حسن ابتدائي بذكرى جيرة الحرم   له براعة شـوق يستهلّ دمـي

وتتضمن ألفاظ ابياتها أسماء الحسنات البديعية ، ففي المطلع « حسن الابتداء » و « براعة الاستهلال » ، وفي قوله :

دعني وعجبي وعج بي بالرسوم وَدَعْ   مُرَكَّبَ الجهل واعقل مطلق الرسُم

الجناس المركب والمطلق . وشرحها بكتابه « أنوار الربيع في أنواع البديع » الذي جاء أوسع المؤلفات البلاغية في العهود المتأخرة[٢٤] .

وظم عبدالغني النابلسي (ـ ١١٤٣هـ) بديعيتين لم يلتزم في احداهما تسمية النوع والتزمه في الثانية ، ومطلع الاولى :

يا منـزل الركب بين البان فالعلم   من سفح كاظمة حيّيتَ بالديم

وشرحها بكتابـه « نفحات الازهـار على نسمات الاسحار في مـدح النبي المختار » . ومطلع الثانية :

يا حسن مطلع من أهوى بذي سلم   براعة الشوق في استهلالها ألمي

والتزم فيها التورية باسم النوع بعد أن انتقد ذلك فـي مقدمة شرح بديعيته الاولى ؛ لان ذلك يكسب « تنافر الكلمات وغرابة المباني وقـلاقة المعاني»[٢٥] . وقال : « ثم اني نظمت قصيدة أخـرى على منـوال هذه صرّحت فيها باسم النوع تمثيلا لما ذكرته من الاستهلال ووفاءً بما أشرت اليه في المقال.ثم اني كتبت كل بيت منها عند ما يماثله في الهامش على حسب مقتضى

(٢٤) التفصيل في مناهج بلاغية ص ٣٤٣ .
(٢٥) نفحـات الازهـار ص ٤ .

الحال»[٢٦] » . وقال إن أبيات بديعيته مائة وخمسون بيتاً مشتملة على مائة وخمســين فنا بعد زيادة انواع لطيفة لاتوجد في البديعيات وربما اتفق في البيت الواحد النوعان والثلاثة بحسب انسجام القريحة في النظم[٢٧] .

وهناك بديعيــات أخرى لوجيــهالدين عبدالرحمــن بن محمد اليمني (ــ ٩٠٠هـ) وشرفالدين عيسى بن حجاج بن عيسى بن شداد الســعدي القاهري (ــ ٨٠٧هـ) وأبي الوفاء بن عمر العرضي الشافعي وقاســم بن محمد البكرجي ــ ١١٦٩هـ) وغلام علي آزاد (ــ ١٢٠٠هـ) ومحمــود صفــوة الساعاتي (ــ ١٢٩٨هـ) وعبدالهادي بن رضوان نجا الأبياري (ــ ١٣٠٥هـ) وعبدالقادر الحسيني الأدهمي الطرابلسي وعبدالحميد قدس بن محمد علي الخطيب (ــ ١١٣٥هـ) . وقلم المسيحيون بديعيات في مدح المبتع ــ عليه السلام ــ معارضة لبردة البوصيري والمدائح المحمدية[٢٨] .

بديعيــة الباعونيــــة :

أسهمت المــرأة في نظم البديعيات ، فقد نظمت عائشة الباعونية[٢٩] (ــ ٩٢٢هـ) بديعية في مائة وثلاثين بيتا سمتها «الفتح المبين فــي مــدح الأمــين » ومطلعهــا :

في حسن مطلع أقماري بذي سلم   أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

(٢٦) تفحــات الازهــار ص ٤ .

(٢٧) التفصيل في مناهج بلاغيــة ص ٣٤٥.

(٢٨) التفصيل في الصبغ البديعي ص ٤٥٨ ، مناهج بلاغيــة ص ٢٤٦ ، القزويني وشروح التلخيص ص ٤٥٦ . *البلاغة تطور وتاريخ* ص ٣٥٨ ، دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) ج٣ ص ٤٧٠ .

(٢٩) هي عائشة بنت يوسف بن احمد بن ناصر الباعونــي أم عبدالوهــاب الدمشقية . (شذرات الذهب ج٨ ص١١١ ، الاعلام ج٤ ص٦ ، معجــم المؤلفين ج٥ ص ٥٧ ، اعلام النساء ج٣ ص ١٩٦) .

وظمتها على منوال بديعية ابن حجة من غير تسمية النوع البديعي نمسكاً بطلاوة الألفاظ وانسجام الكلمات ، وشرحتها واعتمدت على ابن حجة كثيراً . قال : « وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع ، شاهدة بسلامة الطباع ، منقحة بحسن البيان ، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان ، سافرة عن وجوه البديع ، سامية بمدح الحبيب الشفيع ، مطلقة من قيود وتسمية الأنواع ، مشرقة الطوالع في أفق الابداع ، مرسومة بين القصائد النبويات بمقتضى الالهام الذي هو عمدة أهل الاشارات بالفتح المبين في مدح الأمين . استخرت الله — تعالى — بعد تمام نظمها وثبوت اسمها في شيء يروق الطالب موارده وتعظم عند المستفيد فوائده وهو أن أذكر بعد كل بيت حدّ النوع الذي بنيت عليه وأقرّ شاهده فان ذلك مما يفتقر اليه ، وأنحو في ذلك سبيل الاختصار ولا أخل بواجب وأنبّه على ما لابدّ منه قصداً لنفع الطالب . والمسؤول من الفتاح بتأسيسها على قواعد إذن الله أن ترفع ، ومن مثبت رفعها بوجاهة مدح الوجيه المشفع أن يصلي ويسلم عليه ويجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وسيلة لي ولوالديّ ولذريتي ولاحبابي ولمن والاني خيراً الى وفور الحظ من فضله العظيم وأن ينيلنا بوجاهة الممدوح لديه ويحقه عليه نهاية الآمال وما لم يخطر لنا على بال من منايح الوصال ومبار الاتصال ودوام العوافي والأمان وشمول العفو والرضوان ، انه جواد كريم رؤوف رحيم ، ومن الله أستمد وعليه أعتمد ، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت واليه أنيب »[٣٠] .

وفي دار الكتب بالقاهرة شرح آخر لبديعيتها أكثر تفصيلاً ، إذ توسعت فيه والتزمت ان تذكر عند كل محسّن ما قاله ابن جابر الأندلسي والحلي والموصلي ، وهذا الشرح غير مطبوع ، أما الأول فقد طبع على حاشية « خزانة الأدب » للحموي ، ويبدو أن الدكتور أحمد ابراهيم

(٣٠) شرح بديعية الباعونية (خزانة الادب) ص ٣١٠ .

موسى لم يطلع عليه فقال عن الشرحين : « وكلاهما مخطوطان »[٣١]، كما لم يطلع النابلسي على الشرح الكبير فقال في مقدمة « نفحات الازهار »: « ثم جاءت بعد ابن حجة فاضلة الزمان عائشة الباعونية ــ رحمها الله تعالى ــ وقلدت قصيدة على مثال قصيدته مع عدم تسمية النوع تمسكاً بطلاقة الالفاظ وانسجام الكلمات وشرحتها شرحا مختصراً وقفت عليه بخطها ــ رحمها الله تعالى ــ أسفرت فيه عن لثام البيان بقدر الطاقة وحسب التيسير* » .

وقصيدة « الفتح المبين في مدح الأمين » معارضة لبردة البوصيري والبديعيات الأخرى ، وقد جرت على غرارها في الوزن والروي ، فهي من البحر البسيط الذي يمتد فيه النفس ليعبر عن الخلجات ويستوعب الأفكار ، وهي على روي الميم المكسورة ذات الايقاع العذب الذي يحرك المشاعر ويهز النفوس . وإذا كانت بردة البوصيري قد اشتهرت ونالت حظاً عظيما فلانها أقل تكلفا من القصائد الأخرى ، ولانها ابتعدت عن نهج البديعيات التي جاءت مجاراة لها وإن لم تلحقها في الشاعرية وتصل الى غايتها في التأثير . ولاتخرج عناصر القصيدة عما رسمته بردة البوصيري كثيرا فهي :

١ ــ النسيب .
٢ ــ الحديث عن الاحباء .
٣ ــ الكلام على باب السلام .
٤ ــ مدح النبي عليه السلام .
٥ ــ الكلام على معجزاته صلى الله عليه وسلم .
٦ ــ وصف النبي والحديث عن أخلاقه .
٧ ــ المناجاة .

(٣١) الصبغ البديعي ص ٤٥٠ . * نفحات الازهار ص ٣ .

يبدأ القسم الأول بالاشارة الى ذي سلم والحديث عن حب الشاعرة الذي جعلها « في زمرة العشاق كالعلم » وتشرح حالها ثم تخاطب سعداً قائلة : « إنْ أبصرت عيناك كاظمة وجئت سالماً فسل عن أهلها » لأن هناك أقماراً طالعة وهم أحبة وإن حال البعد بينهم وأورث الألم • لقد « حلوا كمالاً » و « وازدادوا دلالاً » ولكنها أحسنت الظن بهم وإن حاولوا تلفها • وتتحدث عما قيل لها عن سلوهم وهي لن تسلوهم أو تتناساهم بل ترجو عطفهم واشفاقهم عليها ، فكل شيء يهون ، السهاد والشوق والجوى • وأنّى لها أن تسلوهم و « نار الحب موقدة وسط الحشا وعيون الدمع كالديم » ولها جفون لم تكتحل بغير السهد ولها «رسوم بغير السقم لم تسم» • وهي مهابة تهابها الأسد غير أن الأحبة أقوى وأشد وانهم « أزروا بشمس الضحى والبدر حين بدوا وأومض البرق من تلقاء مبتسم» • وتخاطب نفسها قائلة : جدّي فان وصلوا فذلك هو القصد وإلا فموتي ميتة فيها إباء واحتشام وإن كان العشق قد أخذ منها مأخذاً عظيما ، وقد كتمت حالها ولكن شجنها يأبى ذلك كل الاباء ويفضحها الدمع والسقام • وتتحدث عن الذين قالوا لها « ارعوي » ولكن قلبها لا يطاوعها وهي لن تفصم العهد ، ولو علم العاذل ما بها وعرف مقدار لوعتها لتركها وهو معذور لانه لايرى النور في الظلام ، ولعله يرى ذلك في يوم من الأيام ويرى النصح في كلامها ويكف عن لومها • وهي لذلك تتركه وتنزّه بيانها عن ذمه ثم تلتفت اليه قائلة : « هل أعماك الجهل أو أنّ في طرفك عمى أو فقدت رشدك أو أصابك لم »• لقد أتعبت نفسك في لومي فمعذرة مني اليك وان « سمعي عنك في صمم » أعذل وعنّ° ما استطعت فلن تراني إلا كما شاء الهوى حافظة للذمم ، ولعلك ترى حسنهم فتكف عن اللوم وتتحدث عنهم مازجا ملامك بالذكرى فهي تعلّة « لعليل الشوق من ألم » •

وتتخلص في القسم الثاني الى الحديث عن الذين ليسّت في حبهم ، ولماذا هذا العذل وهم عرب استوطنوا السرّ منها فهو منزلهم ولن تبوح به

يوماً لغيرهم • انهم أحبة ما لقلبها غيرهم من أرب وان حبهم لم يزل ينمو ويزداد منذ القدم وقد لزمت صدق ولائهم لانهم حلتوا بقلبها وحلتى جود منتهم جيدها ، وهم آية في الجمال ، ولن تبلغ الشمس في الآفاق مشرقة لألاء حسنهم • ثم تقسم أغلظ الايمان قائلة :

« لا مكنتني المعالي إن لم أكن لهم خادمة » لانهم بفضلهم غمروني بما عجزت به عن شكرهم والبسوني من ضيائهم « نوراً جلا ظلمي » و «ألبسوني ثياب الوصل » • وتستمر في كلامها باثة وجدها وشارحة شوقها ومظهرة لوعتها وتتساءل : هل يجتمع شملها بهم وتجيب : « نعم ، نعم » لقد حدثتني نفسي بذلك وهي غير كاذبة فيما تقول •

وتعود في القسم الثالث قائلة : إن أسعفت الأيام يا سعد واجتمعت الأماني وجئت الحي عرّج على قاعة الوعساء وانعطف على العقيق فالجرعاء من إضم ، واقصد به باب السلام وقف مقبلاً موطىء القدم لان لي قلباً بذاك المكان رهيناً وهو يعاني من الوجد كثيراً • وتطلب منه أن يأتي الكريم ويقبل غير خائف من الواشين ليرى الحسن والاحسان ، وترجوه أن لايصدّه عن ذلك نصح اللاحين وما صاغوا من كلم •

وتتخلص في القسم الرابع الى مدح النبي — صلى الله عليه وسلم — فهو ابن الذبيح ، وهو أبو الزهراء وجد الحسن والحسين ، وهو المرتضى الذي اختاره الله — سبحانه وتعالى — « قبل اللوح والقلم » وخير النبيين وأسناهم نسباً وأزكاهم حسباً وأعلاهم قرباً من الله • وقد « عزّت جلالته » و « جلّت مكانته » و « عمّت هدايته » للناس جميعاً ونزلت في مدحه محكم الآيات • وتتحدث عن الوحي والاسراء فقد خصّه الله بالنبوة واصطفاه على سائر الانبياء في الأزل • وفي كلامها اشارة الى قوله — عليه الصلاة والسلام — : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » ولذلك فهو

ذو الجاه الشفيع وذو المجد حيث يسير تحت لوائه اهل المجد يـوم الحشر العظيـم .

وتتحدث في القسم الخامس عن معجزاته وأولها القرآن الكريم الذي يُتلى فيجد الناس فيه حـلاوة ولا يبلى ولايُبـدل . ومن معجـزاته ــ عليه السلام ــ لمس راحتـه التي تعقب راحـة ، ومحوه المحـن من ريقه الطاهر ، ومنها اطاعة النيرين له وتفجر الماء من اصبعيه .

وتنتقل في القسم السادس الى صفاته ــ صلى الله عليـه وسلم ــ فهو « فريد الحسن » و « بدر الكمـال » وهو السراج الهادي الذي اشتغل بالحق واكتمـل بالخلـق واعتصم بالبـر والتزم به ، وهو « للبذل مغتنم » و « بالبشر متسم » وهو ممجَّد في القرآن الكريم . وكان جمالـه عنـوان سيرته ولو غدا البحر حبراً والشجر ورقا ما حصرت أوصافه ، ولولا أن يكون في الوصف خروج لقيل إن ذكره « محيي بالي الرمم » . وتتكلم على أوصافه الأخرى وتصفه بالكـرم الذي يزري بكرم الآخريـن ، فالغيث يهمي آونةً ، ولكن غيـث نداه ــ عليه السلام ــ لايزال يهمي وسيظل كذلك الـى يوم الدين . انه كريم يعطي السائلين ، وهو الحبيب « غـوث الورى » و «كعبة الآمال » وكل معنى بديع دون رتبته . وتنتقل الى الكلام على تجريدهـا الحج للرسول ــ عليه السـلام ــ وان قدمها لاتـزال تسعى له بالصفا ، وقد دعاها بحر الوفاء الى الوفـاء الى نيل الوفاء وبلغت ماتـروم منهم وهو القرب والحب والشوق . ثم تقول : « صحح عزيمـة صدق في محبته » و « نَل مرادك وابلغ كل ماتريد » و « أفرده بالمدح » مستثنيا الذين حازوا علا الفضل « من فازوا بسبقهـم » فهم الباذلون النفس بـذل المال والحافظـون الجار ، وهم « سود الوقائـع » و « حمر البيض » في الحـرب و « خضر المرابع » في السلم و « بيض الفعل والشيم » وهم في غبار المعركة كالبـدور في « حندس الظلم » وقد هزمـوا الجمع وما فُلَّت عزائمهم ، وهم النجـوم وقد

فازوا بالسبق يتقدمهم خليفة رسول الله ذو القدم ولا عيب فيهم سوى انهم لايضام لهم ولايخلون بشيء في العدم ، وقد سادوا المعالي بخير الخلق في الأزل وحازوا الأماني بأوفى الناس للذمم •

وتنتقل في القسم السابع الى المناجاة وتعلقها بطه الحبيب الذي تلوذ به إن خافت ذنبها وكيف لن ينجيها « من النقم » وهو الذي يبلغها فوق الذي تروم حينما تطمح الى «شيء من الكرم » وما هبّت الريح إلاّ رأت برق وناء لها فيه وبلّ عطاء من ديمة النعم •

وتختم قصيدتها مخاطبة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقولها : « يا اكرم الرسل سؤلي فيك غير خف ، وأنت أكرم مدعو الى الكرم ، وحسبي بحبك ان المرء يحشر مع أحبابه وذلك فوز عظيم وهناء « غير منحسم » •

إن القصيدة تجري مجرى البديعيات الأخرى من حيث عناصرها وهي علمية بمعانيها وغزيرة بأوصافها ، غير أن الشاعرة فيها ضعيفة والتكلف باد في كثير من أبياتها وذلك بسبب التزام الشاعرة بفنون البديع التي أصبحت قيداً التزم به البديعيون • ويبدو في قوافي القصيدة القلق والتكرار، وما ذلك إلاّ لان الشاعرة تريد أن تصل الى هدفها وهو الاستشهاد على الفن البديعي ، وهذا من الصنعة التي تخرج الشعر عن سبيله وتحيله نظما فيه من التكلف الشيء الكثير • ولكن قداسة الموضوع ونبل الهدف وشرف الغاية تشفع لعائشة الباعونيةالتي كانت صورة صادقة للمؤمنات في عهدها ومثالاً للحياة الأدبية في القرن العاشر للهجرة •وقد وصفها ابن العماد الحنبلي بقوله : « الشيخة الصالحة الأديبة العالمة العاملة أم عبدالوهاب الدمشقية أحد أفراد الدهور ونوادر الزمان فضلاً وأدباً وديانة وصيانة تنسكت على يد السيد الجليل اسماعيل الخوارزمي ثم على خليفة المحيوي

يحيى الأرموي . ثم حملت الى القاهرة ، ونالت من العلوم حظاً وافرا ، واجيزت بالافتـــاء والتدريس »[٣٢].

وقصيدة عائشة الباعونية نفحات من التصـــوف وليس فيها من أوصاف حسية وحديث عن الحب واللوعة والشوق مما يعرفه الشعراء الحسيـــون ، وانما هو الشـــوق الى الله والهيام بحب نبيـــه المصطفى عليـــه السلام ، وهي في ذلك تنحو منحى الشعراء المتصوفين كابـــن الفارض والبوصيري وغيرهما من أعلام العشق الالهي . تقول من كـــلام لها : « وكان مما أنعـــم الله به علي أنني بحمده لم أزل اتقلب في أطوار الايجاد في رفاهية لطائف البر الجواد ، الى أن خرجت الى هذا العالم المشحون بمظاهر تجلياته الطائح بعجائب قدرته وبدائع إرادته المشوب موارده بالاقدار والأكدار ، الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار ، دار ممر لا بقاء لهـــا الى دار القرار . فرباني اللطف الرباني في مشهد النعمة والسلامة ، وغذاني بلبان مداد التوفيق لسلوك سبيل الاستقامة ، وفي بلوغ درجة التمييز أهـّلني الحق لقراءة كتابـــه العزيز ومنّ عليّ بحفظه على التمام ولي من العمر حينئذ ثمانيـــة أعوام ، ثم لم أزل في كنف ملاطفات اللطيف حتى بلغت درجة التكليف»[٣٣] . وهذا كلام صوفية تتوق الى خالق الكون لا الى محبوب هجرها أو حبيـــب خانها ، وقصيدتها « الفتح المبين في مدح الأمين » تعبر عن هذا الوجـــد وتصـــور النزعة الصوفية أروع تصوير .

وليس الكلام هنا على النزعة الصوفيـــة عند عائشـــة الباعونيـــة وانما الحديث عن قصيدتها وما فيها من فنون بلاغية جعلتها من أشهر البديعيات ،

(٣٢) شذرات الذهب ج٨ ص ١١١ .
(٣٣) شذرات الذهب ج٨ ص ١١٢ .

ونحن شرحها الذي يعدّ من جملة كتب البديع • والقصيدة كما ذكرتها في شرحها ، هي :

في حسن مطلع أقماري بذي سلم أصبحتُ في زمرة العشاق كالعلم(٣٤)

أقول والدمع جارٍ جارح مقلتي والجار جار بعذل فيه متهم(٣٥)

يااللهوىفي الهوى رُوحٌ سمحتُ بها ولم أجد رَوْحَ بشرى منهم بهم(٣٦)

وفي بكائي لحالٍ حالَ من عدمي لقيتُ صبراً فما أجدى لمنع دمي(٣٧)

يا سعد إن أبصرتْ عيناك كاظمة وجئتَ سَلْمَاً فسل عن أهلها القدم(٣٨)

فثمَّ أقمار تيمٍ طالعين على طويلع ، حيِّهم وانزل بحيِّهم(٣٩)

(٣٤) فيه براعة المطلع وهو أن تكون المعاني واضحة في استهلالها وان يكون المطلع يدل على معنى القصيدة وبناسب الغرض ، وهو حسن الابتداء .

(٣٥) فيه جناس مذيل (جار ـ جارح) وهو « ان يجيء بكلمتين متجانستي اللفظ متفقتي الحركات غير انهما تختلفان بحرف واحد » ـ الشرح ص٣١٢ ـ . وفيه جناس تام (الجار ـ جار) وهو « ان يجيء المتكلم بكلمتين متفقتين لفظا مختلفتين معنى لاتفاوت في تركيبهما ولا اختلاف في حركاتهما » ـ الشرح ص ٣١٣ ـ .

(٣٦) فيه جناس محرف (روح ـ روح) وهو « ما اتفق ركناه في تعداد الحروف وتركيبهما سواء كان من اسمين او فعلين او من اسم وفعل أو من غير ذلك فان القصد اختلاف الحركات » ـالشرح ص ٣١٣ ـ .

(٣٧) فيه جناس ملفق (من عدمي ـ منع دمي) وهو « أن يكون كل من الركنين مركبا من كلمتين » ـ الشرح ص٣١٤ ـ .

(٣٨) فيه جناس مركب (سلما ـ سل عن) وهو أن يكون أحد الركنين مركبا من كلمتين والآخر كلمة واحدة .

(٣٩) فيه جناس مصحف (ثم ـ تم) وهو أن تكون الكلمتان متشابهتين في الخط مختلفتين في التنقيط . وفيه جناس مطلق (طالعين ـ طويلع) وهو ما يوهم أحد ركنيه أن اصلهما واحد ، وليس الامر كذلك .

أحبــة لــم يزالــوا منتهــى أملي وإن همُّ بالتنائي أوجبــوا ألمي[٤٠]

عَلـَــوا كمــالاً جلــوا حسنــاً سَبَــوا أممــاً

زادوا دلالاً فنــى صبــري فيــا سقمــي[٤١]

أحسنت ظني وإن هم حاولوا تلفي وثمَّ سرٌّ وضِنّي فيه من شيمي[٤٢]

اليحمدي وأبو تمــام كلٌ شــجٍ عاني الغــرامَ الى قلبي لأجلهم[٤٣]

قيل اسلهم قلتإن هبّت صبا سحراً وأشرق البدر تماً سلخ شهرهم[٤٤]

ما لي رجوع عن الأشجان في وَلَهي بل عن سلوي رجوعي صار من لزمي[٤٥]

---

(٤٠) فيه جناس مخالف (أملي ـ ألمي) وهو « أن يشتمل كل واحد من الركنين على حروف الآخر دون ترتيبهما » ـ الشرح ص٢١٥ .

(٤١) فيه جناس لاحق (علوا ـ جلوا) وهو ما أبدل من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه . والعين في الشاهد من مخرج والجيم من مخرج غيره .

(٤٢) فيه جناس لفظي (ظني ـ ضني) وهو « ما تماثل ركناه وتجانسا خطا لكن خالف أحدهما الآخر بابدال حرف فيــه مناســـبة لفظيــة » ـ خزانة الادب ص ٣٨ ـ .

(٤٣) فيه جناس معنوي (اليحمدي ـ أبو تمام) قالت الشاعرة : « فــان اليحمدي هو منشيء العروض اسمه الخليل ، وأبو تمام الشاعر اسمــه حبيب . وقد ظهر في هذا البيت جناسان مضمران وهما خليل وخليل، وحبيب وحبيب » ـ الشرح ص٣١٧ ـ . وهذا الجناس نوعـان تجنيس اضمار وتجنيس اشارة (ينظر خزانة الادب ص ٤٠) .

(٤٤) فيه مناقضة ، فقد علقت الشاعرة الشرط على الممكن والمستحيل ومراد المتكلم المستحيل ، لان المناقضة هي تعليق الشرط على نقيضين ممكــن ومستحيل ومراد المتكلم المستحيل دون الممكن ليؤثر التعليق عــدم وقوع المشروط فكأن المتكلم ناقض نفسه في الظاهر اذ شرط وقوع أمــر بوقوع نقيضين . (خزانــة ص ١١٤) .

(٤٥) فيه رجوع وهو العود على الكلام السابق بالنقض لنكتة . (الايضــاح ص ٣٥٢ ، التلخيص ص ٣٥٩ ، شروح التلخيص ج٤ ص ٤٢١) .

(٤٦) كذا في الاصل ، و (رجوت) اقــرب الى الوزن .

رجوتهم[٤٦] أن يعطفوا فضلاً وقد عطفوا
لكن على تلفٍ من فرط عشقهم[٤٧]

هان السهاد غراماً فيه أقلقني ... شوقي وعنّ الكرى وَجْداً فلم أنم[٤٨]

وعاذلٍ رام سلواني فقلت له ... من المحال وجود الصيد في الأجم[٤٩]

عذلتني وادّعيت النصح فيه فلا ... برحت تسعى بلا حدّ الى النعم[٥٠]

كيف السلو ونار الحب موقدة ... وسط الحشا وعيون الدمع كالديم[٥١]

ولي جفون بغير السهد ما اكتحلت ... ولي رسومٌ بغير السقم لم تسم[٥٢]

تهابني الأسْدُ في آجامها وظبا ... تلك الظبا قد أذلتني لعزهم[٥٣]

---

(٤٧) فيه استدراك ، والاستدراك قسمان : قسم يتقدم الاستدراك فيه تقريرا لما أخبر به المتكلم وتوكيدا له كقول بعضهم :
واخوان تخذتهم دروعا ... فكانوها ولكن للأعادي
وقسم لايتقدمه تقرير وتوكيد كقول زهير بن ابي سلمى :
اخو ثقة لايهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله
والاستدراك في بيت الشاعرة من القسم الاول ـ الشرح ص ٣١٩ .

(٤٨) فيه مطابقة (السهاد ـ الكرى) والمطابقة ان يجمع بين ضدين مختلفين.

(٤٩) فيه تمثيل أخرج مخرج المثل وهو قولها : « ومن المحال وجود الصيد في الأكم » .

(٥٠) فيه ابهام وهو ان يقول المتكلم كلاما يحتمل معنيين متضادين لايتميز احدهما عن الآخر . ولا يفهم من بيت الشاعرة ادعاء هو للعاذل ام دعاء عليه ؟ لانه يصلح للأمرين .

(٥١) فيه استعارة في « نار الحب » .

(٥٢) فيه ارداف ، والارداف من الكناية وهو « أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له بل يعبر عنه بلفظ هو ردفه وتابعه » ـ الشرح ص٣٢٣ . ومراد الشاعرة انها من العشق لاتنام ، وانها هزيلة أضناها السقم .

(٥٣) فيه افتنان (النسيب والحماسة) والافتنان هو « ان ياتي الشاعر بفنين متضادين من الشعر مثل النصيب والحماسة والمديح والهجاء » . ـ الشرح ص ٣٢٣ ـ .

أزر َوابشمس الضحى والبدرحين بدَ وا — وأو مض البرق من تلقاء مبتسم (٥٤)

يانفس ماذا الوني جدّي فان يصلوا — فالقصْد أو لافموتي موت محتشم (٥٥)

لذكرهم صار سَمْع العذل يطربني — من اللواحي وبلحيني لشكرهم (٥٦)

بلغت في العشق مرمى ليس يدركه — إلا خليع صبا مثلي الى العدم (٥٧)

كتمت حالي ويأبى كتمه شجني — بحكمي الفاضحين:الدمع والسقم (٥٨)

قالوا ارعوي قلت قلبي ما يطاوعني — قالوا انثني قلت عهدي غير منفصم (٥٩)

(٥٤) فيه مراعاة النظير وهو الجمع بين امر وما يناسبه مع الغاء ذكر التضاد لتخرج المطابقة (خزانة الادب ص ١٣١) وقد جمعت الشاعرة بين الشمس والبدر وهما غير متضادين .

(٥٥) فيه عتاب المرء نفسه : وقد عتبت الشاعرة على نفسها قائلة : « يا نفس ماذا الونى ؟ » . قال **الحموي عن هذا الفن : « لم أجد العتب** مرتبا الا على من ادخله في البديع وعده من انواعه » (خزانة ص ١٤٤) .

(٥٦) فيه مغايرة وهي ان يتلطف المرء بتوصله الى ما كان ذمه هو أو غيره. ومن المعروف ان اللواحي مذمومون فتلطفت الشاعرة في مدحهم وجعلتهم سببا لطربها واوجبت شكرهم .

(٥٧) فيه سلامة الاختراع ، قالت الشاعرة : « وانني فيما اعلم لم أسبق الى هذا المعنى » — الشرح ص ٣٢٦ — .

(٥٨) فيه توشيع (الدمع والسقم) وهو « أن يأتي المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز . ثم يأتي بعده بكلمتين مفردتين هما عين ذلك المثنى تكون الاخرى منهما قافية بيته ، او سجعة كلامه كأنه تفسير لما ثناه » — الشرح ص ٣٢٦ — .

(٥٩) فيه مراجعة (قالوا — قلت) وهي أن يحكي المتكلم مراجعة في القول ومحاورة بينه وبين غيره باوجز عبارة — الشرح ص ٣٢٧ — .

قالوا سلوت فقلت الصبر في كلفي　　قالوا يئست فقلت البرء في سقمي[٦٠]

يا عاذلي أنت معذور فلست ترى　　إذا بدا الصبح ماغطى غشى الظلم[٦١]

أبرمت عذلاً ويخشى أن تجربه　　لي السلوّ وماالسلوان من شيمي[٦٢]

أجْرِ الأمور على أذلالها فعسى　　ترى بعينيك وجه النصح في كلمي[٦٣]

عن ذم مثلك تبيائي أنزهه　　إذ أنت عندي معدود من النعم[٦٤]

الجهل أغواك أم في الطرف منك عمى　　أم غاب رشدك أم ضَرْبٌ من اللمم[٦٥]

أتعبت نفسك في عذلي ومعذرة　　مني اليك فسمعي عنك في صمم[٦٦]

---

(٦٠) فيه القول بالموجب وهو ضربان : الأول ان يقع صفة في كلام مدع شيئا يعني به نفسه فتثبت تلك الصفة لغيره من غير تصريح له بثبوتها له ولا بنفيها عنه كقوله تعالى : « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منا الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » فانهم كنوا بالأعز عن فريقهم وبالأذل عن فريق المؤمنين فاثبت الله تعالى صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرض لثبوت الاخراج بصفة العزة ولا لنفيها . والثاني حمل كلام المتكلم مع تقريره على خلاف مراده بما يحتمله بذكر متعلقه كقوله :

قلت ثقلت اذ اتيت مرارا　　قال ثقلت كاهلي بأيادي

(٦١) فيه تهكم بلفظ (الوعد) مكان (الوعيد) .

(٦٢) فيه مواربة وهي أن يقول المتكلم ما ينكر عليه بسببه وتتوجه اله المؤاخذة فاذا حصل الانكار عليه استحضر بحذقه وجها من الوجوه التي يمكن التخلص بها من تلك المؤاخذة اما بتحريف كلمة او تصحيفها او بزيادة او بنقص . وموضع المواربة في « ويخشى » قال المراد بالباطن التاء المثناة الفوقية وفتحها والسين المهملة ، فاتت الشاعرة بالياء المثناة التحتية وضمها والشين المعجمة وتخلصت من المؤاخذة .

(٦٣) فيه ضرب المثل وقد وقع ارساله في صدر البيت : « أجر الأمور على اذلالها » .

(٦٤) فيه نزاهة وهي أن ينزه المتكلم كلامه من الفحش في الهجاء .

(٦٥) فيه تجاهل العارف ، وهو سؤال المتكلم عما يعلم سؤال ما لايعلم .

(٦٦) فيه الهزل يراد به الجد .

اعذلْ وعنّفْ وقل ما اسطعت لاترني ... إلاّ كما شاء وجدي حافظاً ذممي[٦٧]

تسومني الصبرَ عمن لي حلا بهــم ... جميعُ ما مرَّ من حالات عشقهم[٦٨]

لُمْ يا عذول وشاهد حسنهم فاذا ... شاهدته واستطعت اللوم بَعْدُ لُمِ[٦٩]

ابــن أنــل عــرفن فرّع لنا نبأً ... مــن المــلام وحشّيــه بوصفهم[٧٠]

وامزج ملامك بالذكرى فانّ بهــا ... تعللاً لعليل الشــو ق من ألم[٧١]

كرّر أعدا طرب ابسط ثنّ غنّ أجب ... قــل سل جــد ترنم برَّ من دم[٧٢]

أعـد حديـث أحبائي فهـم عرب ... قد أعرب الدمع فيهم كل منعجم[٧٣]

---

(٦٧) فيه بسط ، وهو بسط الكلام بشرط زيادة في الفائدة .

(٦٨) فيه تورية وهي « ان يذكر المتكلم لفظا مفردا لــه معنيــان حقيقيــان او حقيقــة ومجاز احدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية فيريد المتكلم المعنى البعيــد ويوري عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة انه يريد القريــب وليس كذلك » (خزانة ص ٢٣٩) . والتورية في « ما مر » اذ يحتمــل المرارة بــدليل « حلا بهــم » والمضــي ايضــا .

(٦٩) فيه تصدير ، وهــو رد المجــز على الصــدر (لم ياعذول ــ بعد لم) .

(٧٠) فيه ما لايستحيل بالانعكاس ، والشطر الاول من البيت يقرأ معكوسا .

(٧١) فيه تآلف اللفظ والمعنى وهــو « ان تكــون الفاظ المعانــي المطلوبة ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى » ــ الشرح ص ٣٣٦ ــ .

(٧٢) فيه تفويف ، وهو أن يأتي المتكلم بمعان شتى من المدح او الغــزل او غير ذلك من الأغراض عن كل فن في سجعة منفصلة عن اختهــا مــع تساوي الجمــل فــي الوزن . ــ الشرح ص ٢٣٧ ــ . وهــذا الفــن ظاهر في كل لفظة من الفاظ البيت .

(٧٣) فيه ادماج وهــو « أن يدمج المتكلم غرضــا له في جملة معنى من المعاني قد نحاه ليوهــم السامع انه لم يقصــده ، وانما عرض في كلامــه لتتميم معناه الذي قصده ــ الشرح ص ٢٣٨ ــ . وقــد ادمجــت الشــاعرة شــرح الحال في هواهم في التعريف بهم .

واستوطنوا السرّ مني فهو منزلهم ولا أفوه[٧٤] به يوماً لغيرهم[٧٥]

بدا الصدود بعدي عن جوارهم فعاد وصل بقربي من محلهم[٧٦]

أحبّة ما لقلبي غيرهم أربٌ وحبّهم لم يزل يربو من القدم[٧٧]

لزمت صدق ولاهم والتزمت به فلست أسلوه إلا عن سلوّهم[٧٨]

حلّوا بقلبي وحلّى جود منّتهم جيدي وشكر الأيادي مسمعي وفمي[٧٩]

---

(٧٤) في الاصل (ولم أفوه) ولعله (لم) استفهام . وقد ذكرت الشاعرة في الشرح (لا أفــوه) .

(٧٥) فيه استخدام وهو لفظ مشترك بين معنيين ويراد بذلك اللفظ احد المعنيين ثم يعاد عليه ضمير ليراد به المعنى الآخر أو يعاد عليه ضميران ، ويراد بأحدهما احد المعنيين وبالآخر المعنى الآخر . ولفظة « السر » في البيت محتملة القلب والكلام المستودع فلما قالت « فهو منزلهم » استخدمت احد معنيي اللفظ وهو دلالته بالقرينة على القلب ولما قالت «ولا أفوه» استخدمت المعنى الآخر وهو دلالته بالقرينة على الكلام المستودع .

(٧٦) فيه مقابلة (بدا ـ عاد) ـ (الصدود ـ وصل) ـ (بعدي ـ قربي : ـ (عن ـ من) ـ (جوارهم ـ محلهم) .

(٧٧) فيه تآلف اللفظ والوزن وهو أن تكون الأفعال تامة ولم يضطر الشاعر في الوزن الى نقصها أو زيادتها ـ الشرح ص ٣٤٤ .

(٧٨) فيه تآلف المعنى والوزن وهو « أن تأتي المعاني في الشعر صحيحة لايضطر الشاعر في الوزن الى قلبها عن وجهها » . (خزانة الادب ص ٤٣٨) .

(٧٩) فيه ابداع وهو أن يأتي الشاعر في البيت الواحد من الشعر أو الفرينة الواحدة من النثر عدة ضروب من البديع ـ الشرح ص ٣٤٦ ـ . وقد جمعت الشاعرة بين الجناس المطلق (حلوا ـ حلى) ـ (الجود ـ الجيد)ـ (المسمع ـ الفم) ، والتورية في (وحلى) وحسن البيان والسهولة والانسجام وتآلف اللفظ والوزن وتآلف الوزن والمعنى والمناسبة والبسط

ما بهجة الشمس في الآفاق مشرقة ... يوماً بأبهج من لألاءِ حسنهـم[٨٠]

لا مكنتنــي المعالي من سيادتهـا ... إن لم أكن لهمُ من جملة الخدم[٨١]

بفضلهـم غمروني مـن فواضلهـم ... بما عجزت به عن حـق شكرهم[٨٢]

وألبسوني مُذْ آنسـت نارهــم ... من طور حضرتهم نوراً جلا ظلمي[٨٣]

وألبسوني ثيابَ الوصل معْلَمةً ... بقربهم وأقروا في القرى علمـي[٨٤]

وخولوني مُلْكاً فيه قُرِّتْ بهم ... فوز العفاة بوافي فيض فضلهم[٨٥]

لهم شمائل بالاحسان قد شملت ... وعلّمت كرم الأخلاق والشيـم[٨٦]

---

(٨٠) فيه تفريع وهو « أن يصدر الشاعر أو المتكلم كلامه باسم منفي بـ « ما » خاصة ثم يصف ذلك الاسم المنفي باحسن أوصافه المناسبة للمقـام ، أما في الحسن واما في القبح ، ثم يجعله اصلا يفـرع منه جملـة من جار ومجرور متعلقة به تعلق مدح أو هجاء أو فخر أو نسيـب أو غـير ذلك . ثم يخبر عن ذلك الاسم بـ «أفعل» التفضيل ثم يدخل « من » على المقصود بالمدح أو الذم أو غيرهما ويعلق المجـرور بـ « أفعل » التفضيل فتحصل المساواة بـين الاسم المجرور بـ « من » وبـين الاسم الداخل عليه « ما » النافيـة لان حرف النفي قـد نفى الافضلية فتبقى المسـاواة » . (خزانة الادب ص ٤١٤) .

(٨١) فيه القسم وجوابه وهو « أن يريد الشاعر الحلف على شيء فيأتي في الحلف بما يكون مدحاً له أو بمـا يكسوه فخراً ، أو يكـون هجـاء لغيره أو وعيداً أو جارياً مجرى التنزل والترقق » ــ الشرح ص ٢٤٨ .

(٨٢) فيه حسن البيان وهو « الإبانة عما في النفس بعبارة بليغة بعيـدة عن اللبس » (خزانة ص ٤٥٦) .

(٨٣) فيه توشيح وهو أن يكون أول الكلام دالا عليه .

(٨٤) فيه مجاز (ثياب الوصل) ، والمجاز هو التعبـير عن المعنى بغير لفظه الموضـوع لـه .

(٨٥) فيه استطراد ، وهـو الخـروج مـن غـرض الـى آخـر على شرط أن يرجع الى الكلام الأول .

(٨٦) فيه التهذيب والتأديب ، وهو وصف يعم كل كلام منقح محرر .

ولو عـوائدُ منهم بالجميـل لهـا — بمنتهـم اتصـال غـير منسجم[٨٧]

وفا الوفا[٨٨] راق عيش المستهام بهم — فلا جفا بعد ما جادوا بوصلهـم[٨٩]

حاشوا بقلبي فيـا قلبي تهنَّ بهـم — وافرح ولا تلتفت عنهـم لغيرهم[٩٠]

قد طال شوقي وقلبي منزل لهـم — الى الطلول التـي تسـو باسمهم[٩١]

فليت شعريَ هل حالـي بمنتظـم — قبل الفوات وهل شملي بملتئم[٩٢]

(٨٧) فيه انسجام ؛ وهو ما خلا من التعقيد وكان كانسجام الماء في انحداره .

(٨٨) فـي الاصل :و قالوا فا .

(٨٩) فيه تشريع ، والتشريع أن يأتي الشاعر ببيته على وزنين من اوزان العروض وقافيتين فاذا اسقط من اجزاء البيت جزء او جزآن صـار ذلك البيت من وزن آخر غير الاول ـ الشرح ص ٣٦٠ ، خزانـة الادب ص ١١٩ ـ . وقد أخرجت الشاعرة من البيت قافيـة أخـرى مـن منهـوك الرجز وهو (وفا الوفا فلا جفا) وصار باقي البيـت من غـير الجزئين الاولين (راق عيش المستهام بهم بعدما جادوا بوصلهم) . وهذا البيت من العروض الثالثة المحذوفة المخبونة من المديد .

(٩٠) فيه التفات ، وهو الانصراف من اسلوب الى آخر ، وبيـت الشـاعـرة فيـه انصـراف المتكلم من الاخبار الى المخاطبة .

(٩١) فيه احتراس ، والاحتراس هو « ان يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل فيفطن له فيأتي بما يخلصه من ذلك » (خزانة ص ٤٥٨) . قالت الشاعرة : « وقولي في بيتي المتقدم (و قلبي منزل لهم) احتراس من توهم خلو القلب منهم اذا فهم شدة شوقي الى ديارهم فلما قلت : (وقلبي منزل لهـم) ازلت التوهـم واعلمت ان ذلك الشـوق شوق البصـر الى رؤية معاهدهـم . واما البصيرة فهي معمورة بهم لايحتجبون عنها طـرفة عـين » . الشرح ص ٣٦٥ ـ .

(٩٢) فيه تآلف اللفظ باللفظ (منتظم ـ ملتئم) وهو « ان يكون فـي الكلام معنى يصح معه هذا النوع ويأخذ عدة معان فيختار منهـا لفظة بينهما وبـين بعض الكـلام ائتلاف » . (خزانة الادب ص ٤٣٨) .

تَعَم نَعَم حدثتني وهي صادقة ظنون سرّي حديثاً غير متّهم (٩٣)

عن جودهم عن نداهم عن فواضلهم عن منّهم عن وفاهم نيل برهم (٩٤)

سادوا فجودهم جمٌ وبذلهم حَتْمٌ وموردهم غُنْمٌ لكل ظمي (٩٥)

ياسَعدُ إن ساعدالاسعادُ واجتمعت لكالأماني وجئت الحي عن أمم (٩٦)

عرّجْ على قاعة الوعساء منعطفاً على العقيق على الجرعاءمن أضم (٩٧)

واقصد مُصلّىبهباب السلام وقف لدى المقام وقبّل موطىء القدم (٩٨)

---

(٩٣) فيه تكرار (نعم نعم) ، والتكرار اعادة اللفظ لتقرير المعنى .

(٩٤) فيه مناسبة وهي مناسبة في المعاني ومناسبة في الالفاظ ، والمنوبة هي أن يريد المتكلم معنى ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ كقول الشاعرة . والمناسبة اللفظية هي الاتيان بكلمات متزنات ، ومن ذلك قوله ـ عليه السلام ـ : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » قال : « لامة » ولم يقل « ملمة » وهي القياس لمكان المناسبة اللفظية التامة وغير التامة لانها في الزنة دون التقفية .

(٩٥) فيه حسن النسق وهو «أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر والابيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسنا مستبهجا ، وتكون جملها ومفرداتها متسقة متوالية اذا أفرد منها البيت قام بنفسه واستقل معناه بلفظه » (خزانة ص ٤١٥) .

(٩٦) فيه ايجاز ، وتقدير كلام الشاعرة : « ياسعد ان ساعدت الاقدار بالاسعاد واجتمعت لك جميع الأماني وجئت ذلك الحي » ـ فحذفت بعض هذه الألفاظ لدلالة الباقي عليها .

(٩٧) فيه تتميم ، وهو اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه ثم يعود المتكلم فيتممه . والتتميم في قول الشاعرة « منعطفا » فان البيت صحيح المعنىبغير هذه اللفظة ولكن بمجيئها فيه تتميم معنوي . ـ الشرحص٣٧٢ـ .

(٩٨) وفيه تجريد ، وهو « ان ينتزع من أمر ذي صفة الى آخر مثله » (الايضاح ص ٣٦٣ ، التلخيص ص ٣٦٨ ، شروح التلخيص ج ٤ ص ٣٤٨) . وقد جردت الشاعرة من المصلى مقاما ، ومن المقام موطىء القدم .

فلي فؤاد بـذاك الحـي مرتهـن	سلا السلو وعاني وجـده بهم[٩٩]
ناشـدته اللهَ والأنـوار مشرقـة	تعلـو المعالـم من سكانها القدم[١٠٠]
أمّ الكريم وهذا طـور حضرتهم	اقبل ولا تخف الواشين بالكلم[١٠١]
وشاهد الحسن والاحسان جزؤهم	ولا تدع منك جزء غير مقتسم[١٠٢]
ولا يصدك عن بذل الوجوه لهـم	نُصْحُ اللواحي وما صاغوا بنطقهم[١٠٣]
هـم المفاليس ماذاقوا الغـرام ولا	أمّوا حمـى خير خلق الله كلهم[١٠٤]

(٩٩) فيه تمكين (بهم) ، وهو « أن يمهـد الناثر لسجعه فقرة او الناظم لقافية بيته تمهيـدا تاتي به القافية ممكنة فـي مكانها مستقـرة فـي قرارها غير قلقة ولا نافرة » (خزانة ص ٤٣٩) .

(١٠٠) فيه حذف ، وهو هنا حذف حرف من حروف الهجـاء او جميع الحروف المعجمة او جميع الحروف المهملة . وقد حذفت الشاعرة في هذا البيت الأحرف التي تنقط من تحت .

(١٠١) فيه اقتباس وقد اقتبست الشاعرة « اقبـل ولا تخف » مـن سورة القصـص ، الآيـة ٣١ .

(١٠٢) فيه نوادر ، والنوادر « أن ياتي الشاعر بمعنى مستغرب لقلة استعماله، لأنه لم يسمع بمثله » . وهذا مما اختاره قدامة دون غيره ، ولكـن غالـب علماء البديع اختاروا غير راي قدامة في هذا النوع فانهم قالوا : لايكون المعنى غريبا الا اذا لم يسمع بمثله » . (خزانة الادب ص ٢٢٣) .

(١٠٣) فيه كناية ، والكناية اثبات معنى من المعاني بغير لفظه الموضوع له في اللغة ولكن يجيء الى معنى هو ردفه في الوجود فيومي اليه ويجعله دليلا عليه . وقد كنت الشاعرة عن اقرار اللـواحي بزعمهـم النصح بالصياغـة .

(١٠٤) فيه مخلص اي حسـن التخلص ، وهو الانتقال من المعنى الأول الى الثاني انتقالا فيـه ارتباط وخروج حسن .

محمد المصطفى بن الذبيح أبو الـ زَهْراء جدّ أميري فتية الكرم(١٠٥)
الوافر العظم ابن الوافر العظم ابـ ن الوافر العظم ابن الوافر العظم(١٠٦)
المرتضى المجتبى المخصوص أحمد من اختاره الله قبل اللوح والقلم(١٠٧)
خير النبيين والبرهان متّضح عقلاً ونقلاً فلم فرتب ولم نهم(١٠٨)
أسناهم نسباً ، أزكاهم حَسَبا أعلاهم قرباً من بارىء النسم(١٠٩)
طه المنادى بألقاب العلى شرفا وغيره بالأماسي ضمن كتبهم(١١٠)

(١٠٥) فيه اطراد ، وهو الاتيان باسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته اللائقة له واسم من أمكن من أبيه وجده ليزداد الممدوح تعريفا : ــ الشرح ص٢٨٣ ــ وذلك واضح في بيت الشاعرة .

(١٠٦) فيه تكرار ، وهذا البيت مرتبط بالسابق وقد جاءت به الشاعرة تقريراً له ، بما يجب من التسوية بذكر آبائه من النبيين .

(١٠٧) فيه تكميل ، والتكميل « ان يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من مدح أو غيره من فنون الكلم وأغراضه ثم يرى مدحه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل كمن أراد مدح انسان بشجاعة مثلا ثم رأى ان الاقتصار عليها دون مدحه بالكرم غير كامل أو بالبأس دون الحلم » ــ الشرح ص ٣٨٣ .

(١٠٨) فيه ترتيب ، والترتيب « ان يجنح الشاعر الى أوصاف شتى في موضوع واحد أو في بيت وما بعده على الترتيب ، ويكون ترتيبها في الخلقة الطبيعية ولا يدخل الناظم فيها وصفا زائداً عما يوجد في الذهن أو في العيان » . (خزانة ص ٣٦٧) . والترتيب في البيت هو في ذكر العقل والنقل ولا ثالث لهما في الحجة .

(١٠٩) فيه تسميط وهو « أن يجعل الشاعر كل بيت بسمطه اربعة أقسام ، ثلاثة منها على سجع واحد بخلاف قافية البيت » . (خزانة ص ٤٣٤) . والتسميط في بيت الشاعرة (أسناهم نسبا) ــ (أزكاهم حسبا) ــ (أعلاهم قربا) .

(١١٠) فيه سهولة حيث لاتكلف ولا تعقيد ولا تعسف في السبك .

عزّت جلالتـه ، جلّـت مكانتـه عمّت هدايته للخلـق بالنعـم[١١١]

أعظـم به من نبي مرْسـل نزلـت في مدحه محكم الآيات من حكم[١١٢]

يُنْبـي مفصّلها عـن عـزّ مرتبـة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم[١١٣]

تبـارك الله مـن أوحـى اليه بمـا أوحى وخصّصه بالمنتهى العظم[١١٤]

برتبـة القـاب بالأدنـى بحظوتـه برؤيـة الله بالايناس بالكلـم[١١٥]

دنـا وقـال فلا ثـانٍ يشـاركه فيما حواه من التخصيص والكرم[١١٦]

أتى وكـان نبيـاً عنـد خالقـه قدما وآدم طينـاً بعد لـم يقـم[١١٧]

(١١١) فيـه مماثلـة ، وقـد تماثلت الفـاظ البيت في الزنـة دون التقفية كما في قولهـا : (عزت جلالتـه) ـ (جلت مكانته) ـ (عمت هدايته) .

(١١٢) فيه اعتراض ولو سقطت كلمـة « مرسل » لبقي البيت على تركيبه ، ولكن مجيئها فيه لافادة التوكيد وتقرير المعنى .

(١١٣) فيه ابداع ، وقد اودعت الشاعرة الشطرة الثانية من ميمية البوصيري تيمنا بابقاء آثاره ـ الشرح ص٢٩٠ ـ .

(١١٤) فيه اشارة باللفظ القليل الى المعنى الكثير ، أو هو اللمحة الدالة .

(١١٥) فيه تفسير ، وهو « ان ياتي المتكلم او الشاعـر في بيت بمعنى لايستقل الفهم بمعرفة فحواه دون تفسيره اما في البيت الآخر أو فـي بقية البيت ان كان الكلام يحتاج الى تفسير في أوله . والتفسيـر يأتـي بعد الشرط وما هو في معناه والجار والمجرور وبعد المبتدأ الذي يكون تفسيره خبره بشرط أن يكون المفسر مجملا والمفسر مفصلا » (خزانـة ص٤٠٨) . وصحـة التفسيـر في البيت تظهـر أن الترتيب في عجزه والمفسر فـي صدره وكل قسم مستقل بنفسه .

(١١٦) فيه توشيح ، والتوشيح أن يكون معنى اول الكلام دالا على آخره .

(١١٧) فيه عنوان ، وهو « أن ياخـذ المتكلم في غرض لـه من وصف أو فخر أو مدح أو ذم أو عتاب أو غير ذلك ثم يأتي لقصد تكميله بالفاظ تكـون عنوانا لاخبار متقدمة وقصص مبالغة » (خزانة ص ٣٧٣) . وعـنوان البيت يشير الى اصطفائيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سائر الانبياء فـي الازل ـ الشـرح ص ٣٩٥ ـ .

ذو الجاه حيث يضم الخلق محشرهم   ولا يرى غيره في الكشف للغمم[١١٨]

ذو المجد حيث أهيل المجد قاطبة   تسير تحت لواه يوم حشرهم[١١٩]

ذو المعجزات التي منها الكتاب فيا   بشرى لمقتبس منه بكل جم[١٢٠]

يُتلى ويحلو ولا يبلى وليس له   مبدّلٌ وهو حبل الله فاعتصم[١٢١]

قل للذي ينتهي عمّا يحاوله   من حصر معجز طه الطاهر الشيم[١٢٢]

كم أعقبت راحةً باللمس راحته   وكم محا محنةً ريقٌ له بفم[١٢٣]

---

(١١٨) فيه تسهيم وهو « أن يتقدم من الكلام مايدل على مايتاخره تارة بالمعنى وتارة باللفظ » ـ الشرح ص ٣٩٦ ـ . والسامع للشطر الاول من البيت يعرف تمامه .

(١١٩) فيه حصر الجزئي والحاقه بالكلي وهو أن يأتي المتكلم الى نوع فيجعله بالتعظيم له جنسا بعد حصر أقسام الانواع والاجناس ـ الشرح ص٣٩٧ـ.

(١٢٠) فيه اكتفاء وهو « أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلقة بمحذوف فلم يفتقر الى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه ويكتفى بما هو معلوم في الذهن فيما يقتضي تمام المعنى » . (خزانة الأدب ص١٢٦) .

(١٢١) فيه توليد ، وهو أن ينظر الشاعر الى معنى من معاني من تقدمه ويكون محتاجا الى استعماله في بيت من قصيدة فيورده ويولد بينهما معنى آخر . ومعنى بيت الشاعرة مولد من بيت البوصيري :

فلا تعد ولا تحصى عجائبها   ولا تسام على الاكثار بالسأم

(١٢٢) فيه تفصيل وهو : « ان يأتي الشاعر بشطر بيت له متقدم صدرا كان أو عجزا ليفصل به كلامه بعد حسن التصريف في التوطئة الملائمة » . (خزانة ص٢٢٢) . قالت الشاعرة : « وعجزه تقدم لي في بيت من قصيدة نبوية » ـ الشرح ص ٤٠٣ ـ .

(١٢٣) فيه مواردة ، والمواردة أن يتوارد الشاعران على بيت أو بعض بيت بلفظه ومعناه . قالت الشاعرة : « وقد فتح الله علي بالمقصود من هذا النوع في بيتي المتقدم وقصدت المواردة بشهادة الله ـ تعالى ـ اني لما نظمت هذا البيت تذكرت بعد فراغه بيت الشيخ ـ البوصيري ـ رحمه الله تعالى ـ قال :

كم ابرأت وصبا باللمس راحته   واطلقت أربا من ربقة اللمم

والنيـِّـران أطاعـاه فتلـك بـَدَت   بعد الأفول وهذا شـُقّ في الظلم[١٢٤]

والماء من إصبعيـه فاض فيض نـدى   كفيه مـردود هذا معدم العـدم[١٢٥]

فريـد حسـن تسامـى عـن مماثلـه

في الخـَلـْق والخـُلـْق والأحكام والحكم[١٢٦]

بدر الكمـال كمال البدر مكتسب   من نوره وضياء الشمس فاعتلـم[١٢٧]

أعظم به من نبيّ ميـّـد سـنـدٍ   هـادٍ سـراج منير صفوة القدم[١٢٨]

بالحق مشتغل فـي الخلق مكتمـل   بالبـر معتصم بالبرّ ملتـزم[١٢٩]

للبـذل مغتنم بالبشـر متسـم   يسمو بمبتسـم كالدرّ منتظـم[١٣٠]

(١٢٤) فيه تقسيم ، وهو استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه ، وقد استوفت الشاعرة ذلك في بيتها وقالت بعد (النيران أطاعاه) : (فتلك بدت بعد الأفول) و (هذا شق في الظلم) وبذلك استوفت المعنى.

(١٢٥) فيه جمع مع تقسيم ، فقد جمعت الشاعرة بين الماء وفيض كفيه ثم قسمت في بقية البيت .

(١٢٦) فيه جمع ، فقد جمعت بين (الخلق) و (الخلق) و (الاحكام) و (الحكم) في حكم واحد .

(١٢٧) فيه قلب (بدر الكمال ــ كمال البدر) .

(١٢٨) فيه تنسيق الصفات ، اذ ذكرت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ واعقبت ذلك بتعديد صفاته (سيد ــ سند ــ هاد ــ سراج منير ــ صفوة القدم) .

(١٢٩) فيه تشطير وقد قسمت الشاعرة بيتها شطرين ثم صرعت كل شطر من الشطرين وجاءت بكل شطر من بيتها مخالفا لقافية الآخر . (مشتغل ــ مكتمل) ــ (معتصم ــ ملتزم) .

(١٣٠) فيه سجع (مغتنم ــ متسم ــ مبتسم ــ منتظم) ، وقد جاء روي الاسجاع مثل روي القافية ، وهذا من شروطه في الشعر . الشرح ص ٤١١ ــ .

ممجّد الذكر فـي الفرقان بالحكم   محمـد الأمر في التبيان من حكم[١٣١]
جمـال صورتـه عنـوان سيرتـه   هذا بديـع وهذي آيـة الأمـم[١٣٢]
ولو غـدا البحر حبراً والغضا ورقاً   في حصر أوصافه ضاقـا ببعضهم[١٣٣]
وذكـره كـاد لـولا سنّـةٌ سبقت   إذا تكـرر يُحيـي باليَ الرمـم[١٣٤]
عـلا عـن المِثـل والتشبيه ممتنـع   في وصفه وقصور العقل كالعلـم[١٣٥]
محمـد اسمـه نَعْتٌ لجملـة مـا   في الذكر من مدحه في نون والقلم[١٣٦]
علاه كالشمس لا يخفـى على بصـر   والوجه كالبدر يجلو حالك الظلم[١٣٧]
لو كـان ثَمَّ مثيل قلـت طلعتـه   كالبدر حاشى تعالى كامل العظم[١٣٨]

---

(١٣١) فيه ترصيع (ممجد الذكر ـ محمد الأمر) ـ (في الفرقان بالحكم ـ في التبيان من حكم) وهذا يشبه ترصيـع العقد ، وذلك أن يكون فـي أحد جانبيه من الحبات مثل ما في الآخر .

(١٣٢) فيه لف ونشر (جمال صورته ـ هذا بديع) ـ (عنـوان سـيرته ـ آية الامـم) .

١٣٣) فيه اغراق في المعنى ، والاغراق هو فوق المبالغة ودون الغلو .

(١٣٤) فيه غلو ، ولذلك استعملـت الشاعرة (كاد) .

(١٣٥) فيه مبالغة ، قالت الشاعرة : « وبالجملة فكل مبالغة في هذا المقام ممكنة وغير مستحيلة في معجزات الممدوح ـ صلى الله عليه وسلـم ـ وعظـم قـدره » ـ الشرح ص ٤١٥ ـ .

(١٣٦) فيه اتفاق ، قالت الشاعرة : « الاتفاق في بيتي ببركـة الممـدوح ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظاهر فان اسمه الشريف محمـد اسـم علـم لما كثرت أخلاقه الحميدة فحمد مرة بعد مرة فهو محمد ، وقـد مـدح في (ن) بقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » فطابق أسمه على مدحـه . وظاهر الاتفاق الذي هو النوع في البيت » ـ الشرح ص ٤١٥ ـ .

(١٣٧) فيـه جمـع مـع تفريـق .

(١٣٨) فيـه تشبيـه « كالبـدر » .

قالوا هو الغيث قلت الغيث آونةً يَهْمي وغيثُ نداه لايزالهمي(١٣٩)

يُعْطي العفاة أمانيهم فلست ترى في حيّه غير ممنوح ومغتنم(١٤٠)

في النور لاح علاه لانظير له نور القرآن قرانا من لدن حكم(١٤١)

حاز الجمال فما في حسن متّصفٍ بشطره بعض ما في سيد الأمم(١٤٢)

وكل معنى بديع دون رتبة مَنْ سما على الخلق عند الحق في القدم(١٤٣)

هو الحبيب من الرحمن رحمته للعالمين بايجاد من العَدَم(١٤٤)

---

(١٣٩) فيه تفريق ، وهو « أن يعمد الى شيئين من نوع فيقع بينهما تباين في مدح أو غيره » ـ الشرح ص ٤١٩ ـ والتباين في البيت ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ غيث والمطر غيث ولكن غيث ندى الرسول دائم ، وغيث المطر ينزل تارة ولا ينزل اخرى ، فهو متقطع ابدا .

(١٤٠) فيه صحة الاقسام ، قالت الشاعرة : « وقد فتح الله علي بالمقصود في هذا البيت بصحة هذا النوع ، فان الممدوح هو الذي امتلأ من العطاء فلم يبق له حاجة والمغتنم هو الذي أعطى ولم يبلغ من امتلأ فهو يغتنم منائح الجود حتى يساويه ولا ثالث لهذين القسمين في حضرة المعطي الأشرف الذي هو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانه لايكون فيها محروم ولايائس » ـ الشرح ص ٤٢٠ ـ .

(١٤١) فيه اشتراك « القرآن ـ قرانا » ، والاشتراك « ان يأتي الناظم في بيته بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكا أصليا أو فرعيا فيسبق ذهن السامع الى المعنى الذي لم يرده الناظم فيأتي في آخر البيت مما يؤكد أن المقصود غير ما نوه عنه (خزانة الأدب ص ٣٦٥) .

(١٤٢) فيه تلميح الى معنى الأثر المشهور من أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوتي الحسن كله وأوتي يوسف ـ صلاة الله عليه شطره ـ الشرح ص ٤٢٣ ـ .

(١٤٣) لم تضع الشاعرة له عنوانا في شرحها لانه لايدخل في باب مستقل من أبواب البديع عندها .

(١٤٤) فيه المذهب الكلامي وهو أن يورد الشاعر مع الحكم رداً لمنكر حجة صحيحة ، فالذي أوجد من العدم قادر على أن يمنح نبيه رحمة للعالمين.

غـوث الورى كعبة الآمـال ملتزمي   في حبّه بالتفاني صار من لزمي [١٤٥]

جرّدت حجـي لـه من كل مفسدة   ولم تـزل بالصفا تسعى له قدمي [١٤٦]

بحـر وفاء دعانـي بالوفـاء الـى   نيل الوفاء وروّاني مـن النعـم [١٤٧]

بلغـت ما أروم منهـم فلـم أرمِ   عمن جـلا غممي بالعـزم والهمم [١٤٨]

صَحّح عزيمة صـدق فـي محبته   ونل مرادك وابلغ كـل ما تـرمِ [١٤٩]

وافرده بالمدح واستَثْنِ بمدحك مَنْ   حازوا على الفضل من فازوا بسبقهم [١٥٠]

الباذلـو النفس بذل المال من يدهـم   والحافظو الجار حفظ العهد والذمم [١٥١]

لا يسلبـون بفضـل الله ما وهبـوا   ويسلبوا [١٥٢] ضرر الاملاق والعدم [١٥٣]

---

(١٤٥) فيه التزام ، وهو لزوم ما لايلزم (ملتزمي ـ لزمي) .

(١٤٦) فيه توجيـه وهو « أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالا مطلقا من غير تقييد بمدح أو غيره » . (خزانة الأدب ص١٤٥) .

(١٤٧) فيه ترديد وهو « أن يعلق لفظة في البيت بمعنى ثم يرددها فيه بعينها ويطلقهـا بمعنـى آخـر » ـ الشـرح ص٤٢٧ ـ ويتضـح ذلـك في لفظـة « الوفـاء » فـي البيـت .

(١٤٨) فيه تجزئة وقد جزأت الشاعرة بيتها اجزاء عروضية وسجعتها .

(١٤٩) لم تضع الشاعرة له عنوانا لانه لايدخل في باب مستقل من أبـواب البديـع عندهـا .

(١٥٠) فيه ايضاح ، قالت الشاعرة : « فاني لما قلت (واستثن بمدحك من حـازوا علا الفضل) لم يعلـم من هـم المقصودون بالمدح فلما قلت (من فازوا بسبقهم) زال اللبس واتضح أنهم الصحابة ـ رضي الله عنهم وعنا بمنـه وكرمه » ـ الشرح ص ٤٢٩ ـ .

(١٥١) فيـه استتباع وهـو « أن يذكر الناظم أو الناثر معنى مـدح أو ذم أو غرض من أغراض الشعر فيستتبع معنى آخر من جنسه يقتضي زيادة في وصـف ذلك الفن » (خزانة ص ٤١٧) . وقد قـالت الشاعرة : (الباذلو النفس) ثم قالت (والحافظو الجار) .

(١٥٢) كـذا فـي الاصـل .

سود الوقائع حمر البيض في حرَب   خضر المرابع بيض الفعل والشيم[١٥٤]

كأنهم في عجاج النقع حين بدوا   بدورُ تمّ بدت في حندس الظلم[١٥٥]

للجمع فلّوا وما فلّت عزائمهم   وهي المواضي على استئصال كلّ عمّ[١٥٦]

همُّ النجوم فما أسنى مطالعهم   في أفق ملته البيضا بهديهم[١٥٧]

لا يسرج الشك منهم صفو معتقد   ولا يشين التقى بالتّم واللمم[١٥٨]

(١٥٣) فيه سلب وإيجاب وهو « أن ينبي المتكلم كلامه على نفي شيء من جهة وإثباته من جهة أخرى » أو « أن يقصد المادح أفراد ممدوحه بصفة لا يشركه فيها غيره فينفيها في أول كلامه عن جميع الناس ويثبتها لممدوحه بعد ذلك » (خزانة ص٣٦١) . وقد بنت الشاعرة بيتها على النفي في أوله والاثبات في تكملته .

(١٥٤) فيه تدبيج ، والتدبيج أن يذكر الناظم أو الناثر ألوانا يقصد الكناية بها أو التورية بذكرها من وصف أو مدح أو غيرهما . وقد كنت الشاعرة عن الشدة بـ « سود الوقائع » وعن الحرب والشجاعة في القتال بـ «حمر البيض» وعن الرفاهية والكرم بـ « خضر المرابع » .

(١٥٥) فيه تشبيه شيء بشيئين (كأنهم بدور تم في حندس الظلم) .

(١٥٦) فيه تنكيت قالت الشاعرة : « خصصت الاستئصال بالذكر لمفهومه وهو محق دولة الكفر وحسم مواد أصله . ولو قلت غير هذه اللفظة لسد مسدها ولكن في الاستئصال نكتة ليست في غيره وهي ماذكرته وكذا في قولي (كل عم) فلو قلت (محتم) لسد ولكن كان يفوتني معنى الاطلاق . هذا مع اشتمال البيت المذكور مع تحرير النوع فيه على المناسبة البديعية بين الماضي والفلول وحسن الكناية عن صحة العزائم التي غير ذلك من الانواع » ــ الشرح ص٤٣٤ ــ ٤٣٥ .

(١٥٧) فيه مساواة بين اللفظ والمعنى .

(١٥٨) فيه نفي الشيء بايجابه ، وهو « أن يثبت المتكلم شيئا في ظاهر كلامه ، وينفي ماهو من سببه مجازاً والمنفي في باطن الكلام حقيقة هو الذي أثبته » (خزانة الأدب ص ٢٣٣) .

بالسبق فازوا بتخصيص تقدمهم فيه خليفته الصديق ذو القدم(١٥٩)

لا عيب فيهم سوى أن لا يضام لهم

وَفْدٌ ولا يخلو(١٦٠) بالرفد في العدم(١٦١)

سادوا المعالي بخير الخلق في أزل حازوا الأماني بأوفى الناس للذمم(١٦٢)

طه الذي إن أخف ذنبي ولذت به أمنتُ خوفي ونجاني من النقم(١٦٣)

ولا طمحت الى شيء من الكرم إلاّ وبلّغني فوق الذي أرم(١٦٤)

ماهبّت الريح إلاّ شِمْتُ برق وفا لي فيه وبل عطا من ديمة النعم(١٦٥)

---

(١٥٩) فيه جمع المؤتلف والمختلف ، وهو « أن يريد الشاعر التسوية بين ممدوحين فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما ويريد بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر بزيادة فضل لاينقص بها مدح الاخر فيأتي لأجل الترجيح بمعان تخالف معنى التسوية » ـ الشرح ص ٤٤١ ـ وقد رجحت الشاعرة أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لانه كان أول السباقين الى الاسلام .

(١٦٠) كذا في الاصل .

(١٦١) فيه مدح في معرض الذم .

(١٦٢) لم تضع الشاعرة له عنوانا لانه لايدخل في باب مستقل من ابواب البديع عندها .

(١٦٣) فيه ازدواج ، وقد زاوجت الشاعرة في البيت بين معنيين في الشرط والجواب (ان أخف) ـ (أمنت خوفي) .

(١٦٤) فيه تصريع ، وهو استواء آخر جزء في صدر البيت وآخر في جزء في عجزه في الوزن والروي والاعراب (من الكرم) ـ (الذي أرم) .

(١٦٥) فيه فرائد ، والفرائد أن يأتي الناظم او الناثر بلفظة فصيحة من كلام العرب العرباء تتنزل من الكلام منزلة الفرائد من العقد وتدل على فصاحة المتكلم بحيث لو سقطت من الكلام لم يسد غيرها مسدها » (خزانة ص ٣٧٢) . والفريدة في بيت الشاعرة (شمت) ـ الشرح ص ٤٥٤ ـ .

يا أكرم الرسل سؤلي فيك غير خفٍ وأنت أكـرم مدعوٍ الى الكـرم(١٦٦)

حسبي بحبك أن المرء يحشـر مَعْ أحبابـه فهنائـي غيـر منحسـم(١٦٧)

مدحت مجـدت والاخلاص ملتزمـي فيه وحسن امتداحي فيك مختتمي(١٦٨)

الموازنـة :

هذه قصيدة عائشة الباعونية وهي تجـري فيها مجرى شعراء البديعيات الذين اتخذوا من مداحهم للنبي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسيلة لاظهار فنون البلاغة . وقد كانت عائشة أقرب الى ابن حجة الحمـوي وإن لم تسمّ الفن البديعي أو تورّي عنه كما فعل ولكنها اعتمدت عليه في الشـرح كثيراً

(١٦٦) فيه براعة المطلوب وهو «ان يلوح الطالب بالطلب بالفاظ عذبة منقحة مقترنة بتعظيم الممـدوح خالية من الالحاف والتصريـح بل يشعر بما في النفس دون كشفه ــ الشرح ص ٤٥٤ ــ وقد ذكرت الشاعرة ان سؤلها في النبي العظيم ــ صلى الله عليه وسلم ــ غير خف وان طلبهـا الذي اشارت اليه جاء تلويحا بالفاظ عذبة مقترنة بتعظيم الرسول الكريم ، ثم ختمت بيتها بعد طلبها بالقول انه اكرم مدعو الى الكرم .

(١٦٧) فيه عقد وهو نظم المنثور . ومن شرائط العقد أن يؤخذ المنثور بجملة لفظه او بمعظمه فيزيد الناظم فيه وينقص ليدخل في وزن الشعر . ومتى اخذ معنى المنثور دون لفظه كان ذلك نوعا من انواع السرقات ولا يسمى عقداً الا اذا أخذ الناظم المنثور برمته وان غير منه شيئا بطريق من الطرق على ان يعرف اصل الكلام المأخوذ . (خزانة ص ٤٥٩ ، الشرح ص ٤٥٦) قالت الشاعرة : « وبيتي عقده ظاهر . والمقصود فيه من العقد قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يحشـر المـرء مـع مـن أحـب » وفـي رواية : « المرء مع من أحب» ــ الشرح ص ٤٦١ ــ .

(١٦٨) فيه حسن الختام وهو « أن يكون آخر الكلام الدي يقف عليه المترسل او الخطيب أو الشاعر مستعذبا لتبقى لذته في الاسماع » وقالت الشاعرة: « وبالجملة فمحاسن هذا النوع لاتدخل تحت دائرة الحصر ، وفي هذا التلويح كفاية في الدلالة على صحة النوع في بيتي المتقدم ، وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين » ــ الشرح ص ٤٦٢ ، ٤٦٧ ــ .

ونقلت عنه تعريفاته للفنون البلاغية ، كما استفادت من كتاب «حسن التوسل» للشهاب الحلبي،وكتب ابن أبي الاصبع المصري كتحرير التحبير،وبديع القرآن، وكانت ترجع الى كلام عبدالله بن المعتز صاحب كتاب « البديع » وقدامة بن جعفر مؤلف كتاب « نقد الشعر » والقزويني صاحب « التلخيص » « والايضاح » • وكان اعتمادها على شعراء البديعيات أوضح لاتصال اتجاهها بهم وارتباط نظمها بالفن الذي طرقوه •

لقد كانت بديعية الباعونية من القصائد التي أثرت في البلاغة ، لان الشاعرة لم تشر الى الفن البلاغي وبذلك احتاجت الى ايضاح وشرح ، ولولا ذلك لبقيت القصيدة تتلى أو تحفظ من غير فهم دقيق لها • وقد فعل مثل ذلك الشعراء الذين تنكبوا عن الغرض وورّوا أو لم يفعلوا ، ومن هؤلاء ابن حجة الحموي الذي اتخذته الشاعرة إماماً لها في فن البديع فقد التزم بتسمية الفن البديعي ولم تلتزم به الشاعرة ، قال في براعة الاستهلال :

لي في ابتدا مدحكم ياعرب ذي سلم ... براعة تستهل الدمع في العلم

فقوله : « براعة تستهل » اشارة الى الفن البديعي ، أما عائشة فقد قالت :

في حسن مطلع أقماري بذي سلم ... أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

وفي قولها « حسن مطلع » اشارة خفية الى براعة الاستهلال أو حسن المطلع ، ولكنها حينما جاءت الى الجناس المذيل والتام لم تشر الى التسمية وانما قالت :

أقول والدمع جار جارح مقلي ... والجار جار بعذل فيه متهم

وليس في هذا البيت تورية عن الجناس أو أنواعه ، غير ان العارف يعلم أنها ذكرت الجناس المذيل في (جار ــ جارح) والتام في (الجار ــ جار) وكان ابن حجة قد قال عن المذيل :

وذيّل الهم همل الدمع لي فجرى ... كلاحق الغيث حيث الارض في ضرّم

فقوله : « وذيل » اشارة الى الجناس المذيل و « الهم ـ همل » شاهـده وقال عن الجناس التام :

ياسعد ماتـمّ لي سعد يطرفني بقربهم وقليـل الحظ لم يلـم

فقوله : «تمّ» اشارة الى الجناس التام و « سعد ـ سعد » شاهده .

وسبيل ابن حجة الحموي أقرب الى المدارك لانه أشار الى الفن البديعي، أما عائشة الباعونية فقد جرّدت بديعيتها من التسمية وبذلك كانت بعيدة المنال لاتدرك إلا بعد التأمل والتفكير . وكان صفي الدين الحلي قد فعل ذلك والتزم عزالدين الموصلي بالتسمية فجاءت بديعيته ثقيلة على خلاف بديعية الحلـي . وقد أشار الحموي الى ذلك بقوله وهو يذكر الموصلي : « التزم فيها بتسمية النوع البديعي ووّرى بها من جنس الغزل ليتميز بذلك على الشيخ صفي الدين الحلي ـ تغمـده الله برحمته ـ لانه ما التزم في بديعيته بحمـل هذا العبء الثقيل »[١٦٩]. وتحررت الباعونية من هذا العبء الثقيل غير انها لم تصل الى ما وصل اليه الحلي في بديعيته لانه كان شاعراً كبيراً له القدرة على التعبير والأداء ، وكانت تنظم الشعر بدافع نبيل وحب لرسول الله عظيم ، وشتان بين ناظم وشاعر . ولذلك جاءت بديعيتها تشكو الكثير ومن ذلك إبهام الانواع البديعيـة فشرحتها شرحـا موجزاً ينفع الشـادي في الأدب ولكنه لايحقق طموح الأديب .

ومهما يكن من أمر فان لعائشة الباعونية أثراً في البلاغة في القرن التاسع للهجرة وما بعده لانها كانت حلقة من حلقات علم البديع ، وهي حلقـات لم تنقطع إلاّ في القرن الرابع عشر للهجرة وكانت معلما من معالم الدرس البلاغي في عصرها . ولو تهيأت لها الأسباب لأبدعت وأجادت ، ويكفي انهـا كانت صوتا للمرأة المسلمة المؤمنة ، وفخراً للأمة التي أنجبت الشهيـرات في العلم والفقه والتصوف والأدب ، وليس ذلك بقليل في عصر قيل عنه إنـه مظلم ، وزمان كسدت فيه سوق العلم والأدب .

(١٦٩) خزانة الأدب ص٢ .

تلك أهم ملامح تأثير المدائح النبوية في البلاغة العربية ، وقد تمثل ذلك التأثير في البديعيات وهي كثيرة تدل على اهتمام عظيم بفنون البديع في العهود المتأخرة . واذا كان فيها اسراف في الصنعة والتفنن في ايجاد أنـواع بديعية دعا الدارسين الى انتقادها وتصويرها بغـير حقيقتها فان الجهـد المبذول فيها كبير يدل على ما كان يتمتع به أولئك الشعراء من صبر على النظم ، واطلاع على اللغة وذكاء في معالجة الفنون والتورية عنهـا وهي تمثل اتجاهـا جديداً في تاريخ البلاغة يختلف كل الاختلاف عما عرف من شروح التلخيص التي سيطرت على الدرس البلاغي بعد القرن السابع للهجرة وتصوّر حيـاة الأدب في ذلك العهد الذي جنح فيه الشعراء الى العناية بصور البديـع . وكانت تطبيقاً لذلك الأدب وما حفل به من فنون بديعية لجّ بها الشعراء المولـدون وأحصى منها ابن المعتز ثمانيـة عشر وترك البـاب مفتوحا لمن أراد التوسـع فيها ، وكأنّ البديعيات كانت استجابة لتلك الدعوة . وتمثل البديعيات ــ أيضا ــ العودة الى البديع كما عرفه الجاحظ وابن المعتز وقدامة بن جعفر وغيرهم من البلاغيين الذين سبقوا تقسيم البلاغـة وحصر البديـع في المحسنات اللفظية والمعنوية يضاف الى ذلك ان العصر الذي عاش فيه أصحاب البديعيات كان يُعنى بنظم علوم اللغة تقريبا لها وضبطاً لقواعدها وقد رأى البديعيـون أن البلاغة ينبغي أن تقيد ليسهل حفظها ويعم نفعها ، وقاموا بذلك خير قيام مع ما في النظم من تكلف واسفاف في بعض الاحيان .

ولم تكن البديعيات في مستوى واحد بل اختلفت بتعدد أصحابها وتباين ثقافاتهم ومواهبهم ، ولعل بديعية صفي الدين الحلي أجودهـا شعراً وأصدقها عاطفة لانه لم يلتزم التورية عن الفن البديعي كما التزمه الموصلي والحموي . والبديعيات بعد ذلك ثلاثة ألوان :

الأول : ليس فيه تسمية للنوع البديعي ويمثله الحلي والباعونية .

الثاني : فيه تسمية النوع ويمثله الموصلي والحموي .

وهذان اللونان مع اختلاف في الاسلوب يمثلان البلاغة بفنونها الثلاثة ، لان البديع عند أصحابهما لا ينحصر فيما عرفه أصحاب الشروح والتلخيصات وانما يشمل المعاني والبيان والبديع .

الثالث : حصر البديع في المحسنات اللفظية والمعنوية ويمثله ابن جابر الاندلسي الذي اتخذ من مذهب السكاكي والقزويني سبيلا .

وقد ظهر أثر البديعيات في البلاغة واضحاً في :

١ ــ انها سلكت فنون البلاغة في أبيات يسهل حفظها وانتشارها ، لان الشعر أيسر في الحفظ واكثر دورانا ، ولا سيما اذا كان في مدح النبي العظيم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وقد كان العصـر الذي ظهـر فيه أصحاب البديعيات عصـر زهد وتصـوف وتوجّه الى الله لينقذهم مما هم فيه مـن ظلم واستبداد .

٢ ــ أنها لم تفرق بين علوم البلاغـة وانما سلكتها في علـم واحد هو البديع بمعناه الواسع ، أي انها دعوة للعودة الى ما كانت عليه البلاغة في عهد كبار البلاغيين كالجاحظ وابن المعتز وقدامة وعبدالقاهر وابن رشيق وابن سنان وابن الاثير وغيرهم ممن جعل البلاغة علما واحداً يُعبّر بهـا عن « فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبـروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، ورامـوا أن يعلموهـم ما في نفوسهم ويكشفوا لهـم عن ضمائر قلوبهم »[١٧٠] .

٣ ــ انها دفعت المؤلفين أو الشعراء أنفسهم الى شرح البديعيات كما فعل ابن حجة الحموي وعائشة الباعونية وابن معصوم المدني وغيرهـم . وقد كانت شروحهم من أهم كتب البلاغة العربية في ذلك العهد لانها جمعت كل ما عرفته البلاغة من فنون قبل القرن السابع للهجرة . وذكرت كثيراً من آراء المتقدمين وتعريفاتهم ، ولانها أعطت صورة دقيقة للحياة الأدبية في ذلك العهد وحدّدت الذوق الفني الذي كان الأدباء يلتزمون به .

---

(١٧٠) دلائل الاعجاز ص٣٥ .

٤ ـ انها دفعت الشراح الى التجديد في الشواهد البلاغيـة والاستعانة بشعر المعاصرين لهم ، وتكاد « خزانـة الأدب » للحموي تمثل عصـره أدق تمثيل ، لان المؤلف ذكر كثيراً من شعر معاصريه وبذلك حفظ لنـا ثروة أدبية ترسم ملامح ذلك العصر . ولم يكن شرّاح التلخيص كذلك ، لانهم لم يخرجوا كثيراً على شواهد التلخيص للقزويني وشواهد البلاغـة القديمة ، وبذلك كان أصحاب البديعيات وشرّاحها اكثر تمثيلاً لعصرهم من شراح التلخيص . ولعل فيما قدموه نفعاً ، ولعل فيما قدّمه هذا البحث فائدة لمن تعنيه الثقافـة العربية الاسلامية وهو يستقبل القرن الخامس عشر للهجرة بروح مؤمنـة وعزيمة ثابتة وخطوات مطمئنة ليبني مستقبلاً زاهـراً تسود فيه كلمة الله وتعلـو فوق كل صوت تردده جنبات عالم يشهد انهياراً إن لم تدركه رحمة الله .

المصــــادر :

١ ـ الاعلام ـ خيرالدين الزركلي . الطبعة الثانية ـ القاهرة .

٢ ـ اعلام النساء ـ عمر رضا كحالة . الطبعةالثانية ـ دمشق١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م .

٣ ـ انوار الربيع في انـواع البديع ـ ابن معصـوم علي صـدر الديـن المدني . تحقيق شاكر هادي شكر ـ النجف ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م .

٤ ـ الايضاح ـ الخطيب القزويني . القاهرة . (مطبعة السنة المحمدية) .

٥ ـ بديعيات الآثاري ـ زين الدين شعبان بن محمد القرشي الآثاري ـ تحقيق هلال ناجي . بغداد ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .

٦ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ جلال الدين السيوطـي . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م .

٧ ـ البلاغة تطور وتاريخ . الدكتور شوقي ضيف . القاهرة ١٩٦٥م .

٨ ـ البيان والتبيين ـ ابـو عثمان عمرو بن بحـر الجاحظ . تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م .

٩ ـ التلخيص ـ الخطيب القزوينـي . تحقيق عبدالرحمن البرقوتي . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣٢م .

١٠ ـ خزانة الادب وغاية الارب ـ ابن حجة الحموي . القاهرة ١٣٠٤هـ .

١١ ـ دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) مادة (بديع) .
١٢ ـ دلائل الاعجاز ـ عبدالقاهر الجرجاني . تحقيق محمد رشيد رضا . القاهرة ١٣٧٢هـ .
١٣ ـ ديوان صفي الدين الحلي . دار صادر ـ بيروت ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م .
١٤ ـ السيرة النبوية ـ ابو محمد عبدالملك بن هشام . تحقيق مصطفى السقا وجماعته . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م .
١٥ ـ شذرات الذهب ـ ابن العماد الحنبلي . القاهرة .
١٦ ـ شرح بديعية الباعونية ـ عائشة الباعونية . (مطبوعة على حاشية خزانة الأدب لابن حجة الحموي) ـ القاهرة ١٣٠٤هـ .
١٧ ـ شروح التلخيص . القاهرة ١٩٣٧م .
١٨ ـ شعر صفي الدين الحلي ـ الدكتور جواد احمد علوش . بغداد ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م .
١٩ ـ الصيغ البديعي في اللغة العربية ـ الدكتور أحمد ابراهيم موسى . القاهرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م .
٢٠ ـ طراز الحلة وشفاء الغلة ـ ابو جعفر الرعيني . مخطوطة مكتبة الاوقاف العامة ببغداد رقم (١٢١٤٢) .
٢١ ـ فنون بلاغية ـ الدكتور احمد مطلوب . بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .
٢٢ ـ فوات الوفيات ـ محمد بن شاكر بن احمد الكتبي . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . القاهرة ١٩٥١م .
٢٣ ـ القزويني وشروح التلخيص ـ الدكتور احمد مطلوب ـ بغداد ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .
٢٤ ـ كتاب الصناعتين ـ ابو هلال العسكري . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .
٢٥ ـ المدائح النبوية في الأدب العربي ـ الدكتور زكي مبارك . القاهرة ١٩٦٧م .
٢٦ ـ مصطلحات بلاغية ـ الدكتور احمد مطلوب . بغداد ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م .
٢٧ ـ معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة . دمشق ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م .
٢٨ ـ مناهج بلاغية ـ الدكتور احمد مطلوب ـ بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .
٢٩ ـ نفحات الازهار ـ عبد الغني النابلسي . دمشق ١٢٩٩هـ .



(١٠)
أثر البلاغة العربية
في البلاغة الفارسية

الشبهة :

كان الدكتور طه حسين من أوائل الباحثين العرب الذين تحدثوا عن الأثر اليوناني في البلاغة العربية[١] ، وقد قرر أن البيان العربي في أول نشأته وفي عهد الجاحظ تتبين فيه ثلاثة عناصر هي : العنصر العربي ، والعنصر الفارسي الذي يميل الى البراعة والظرف في القول والهيئة ، والعنصر اليوناني الذي يتصل بالمعاني من حيث دقتها والعلاقة بينها وبين الالفاظ[٢] ثم انتهى الى أن البيان العربي « كان في جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولاً وبالبيان اليوناني أخيراً ، واذن لايكون ارسطو المعلم الأول للمسلمين في الفلسفة وحدها ، ولكنه الى جانب ذلك معلمهم الأول في علم البيان »[٣] . وقد بنى رأيه على كثير من الظن ، من ذلك تصوره لكتاب البديع لابن المعتز وصلته بأرسطو قال : « لم أطلع على كتاب البديع هذا ، ولكن الذين نقلوا عنه أكثروا من ذكره كثرة تمكننا من تصوّره ، فهو عبارة عن تعداد لأنواع

(*) نشر في مجلة دراسات للاجيال (العدد الثالث ـ كانون الاول ١٩٨٢م) .

(١) قدم الدكتور طه حسين بحثه « البيان العربي من الجاحظ الى عبدالقاهر » الى مؤتمر المستشرقين باللغة الفرنسية في الحادي عشر من أيلول سنة ١٩٣٣م ونشر مترجما بقلم عبدالحميد العبادي في مقدمة « نقد النثر » المنسوب الى قدامة بن جعفر .

(٢) مقدمة نقد النثر ص٧ .

(٣) مقدمة نقد النثر ص٣١ .

البديع مع الاستشهاد لكـل نوع منها بشواهد من كـلام القدماء والمعاصرين لابن المعتز ، ومع الموازنة بين هذه الشواهد بعضها وبعض . وهم يقولون ان ابن المعتز أحصى في كتابه ثمانية عشر نوعا من أنواع البديـع من يدرسها في كتاب معاصره قدامة بن جعفر وفي كتب الذين جاءوا بعده يلحظ فيها لامحالة أثراً بيناً للفصل الثالث من كتاب « الخطابة » وبعبـارة أدق للقسم الأول من الفصل الثالث وهو الذي يبحث في العبارة »[4] . وكان بعض كلامه صحيحاً ؛ لانه أخـذه ممن تحدثـوا عن كتاب البديـع ، لكن تصوّره لعلاقة الكتاب بخطابة أرسطو ضَرْبٌ من الظن يخالف حقيقة كتاب البديع . فالبيان العربي ليس يونانيا ولا فارسيا ، وانما هو فن أصيل عرف منذ الجاهلية وشـاع في كلام العرب وكتـاب الله وحديث الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن الباحثين العـرب تلقفوا كلام الدكتور طه حسـين وأداروه في كتبهـم وكأنه نصر مبين ، وبنى عليه الدكتور ابراهيم سلامة كتابه « بلاغة أرسطو بين العرب واليونان » وتبعه آخرون وعرضوا لمثل ما عرض له الدكتـور طه فكان منهم الموجز وكان منهم المطيل .

ولم يقف الدكتور طه حسين عند ارتباط البيان العربي بالبيـان اليوناني وانما دفع طلابه الى أن يتلمسوا ذلك الارتباط بالفرس ليجهز على ما بقي من أصالة للعرب في هذا الميدان . قال الدكتور زكي مبارك : « يرى المسيوموسيه أن الزخرف الفني وصل الى العـرب من الفرس ، وكان الدكتـور طه حسين يشايعه في ذلك ثم تغيّر فجأة فزعم أنه وصل الى العرب من اليونان ». وكانت حجته وحجة المسيو مرسية ان المولعين بالزخرف من كتاب اللغة العربية أكثرهم من الفرس المستعربين ، وهذه مدرسة قديمة يرجع عهدها الى ربنان وهي ترمي الى الحكم بأن المدنيـة العربية غريبة عن العـرب ، وان العرب مدينـون في

(٤) مقدمة نقد النثر ص١٢ .

علومهم وفلسفتهم وفنونهم وآدابهـم الى الفرس واليونـان . والدكتور طه حسين متأثر بهذه المدرسة الى حدّ بعيد ، فهو يقول بان البلاغة العربية أخذت حرفيا عن البلاغة اليونانية حتى في الشواهد والصور والتعابير . وأذكـر أنه أوصاني بالرجوع الى تاريخ آداب الفارسية لأعـرف بالضبط من هم الكتاب الفرس الذين أوحوا الى كتاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس »[٥] . لقد أغرى الدكتور طه تلميذه الدكتور زكي مبـارك باكمال البحث ورد" ما بقـي في البلاغـة العربية من فنـون الى الفرس وسلب العرب أصالتهم ، ولكن التلميذ لم يطع لانه لا يؤمن بما قاله استاذه أو المستشرقون وقرر « أن الزخرف عنصــر أصيل في اللغة العربية »[٦]. وان القرآن الكريم خير شاهد على ذلك .

والغريب ان القائلين بالأثر الفارسي لم يدرسوا المسألة دراسة علمية وانما اكتفوا بما ردّده المستشرقون ولذلك لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على لون من ذلك الأثر المزعـوم . فالفارسية التي عرفها العـرب هي « الدرية » التي نشأت بعد الاسـلام ، وقد ذكرهـا الجاحظ في القـرن الثالث للهجرة[٧] . وأشار الى ما علق قديما بألفاظ أهل المدينة من ألفـاظ الفرس[٨] ، ولكن ذلك لايؤثر في أصالة العرب ؛ لان علوق ألفاظ بالفاظ قوم لايعني أنهـم وقعوا في التأثير ، ولان اللغة ليست ألفاظاً وانما هي صياغة وتركيب .

واللغة الدريـة هي التي دوّن الفرس بهـا آدابهم بعد الاسلام ، وهذه حقيقة لاتنكر ، وقد قررهـا المستشرق براون منذ مطلع هـذا القرن فقال إن تلك اللغة « نشأت مع الفتح العربي واعتناق الفرس للاسلام في القرن السابع الميلادي واستمرت مستعملة منذ ذلك الوقت حتى أيامنا هــذه »[٩] . وقال :

(٥) النثر الفني ج١ ص٤٤ .
(٦) النثر الفني ج١ ص٤٥ .
(٧) البيان والتبيين ج٣ ص٣١ .
(٨) البيان ج١ ص١٩ .
(٩) تاريخ الأدب في ايران من الفردوسي الى السعدي ص٩ .

« إن اللغة التي سبقت الفارسية هي البهلوية ، وهذه اللغة الأخيرة هي اللغة الرسمية التي سادت في البلاد الفارسية أيام الساسانيين (٦٢٦ – ٦٥١م) وهي التي استمرت لغة الدين بين الموابذة الزرادشتيين طوال القرنين أو الثلاثة اللاحقة لذلك • وقد قدّر الدكتور وست أن الآداب البهلوية الموجودة في أيدينا تبلغ في حجمها حجم التوراة وانها في الغالب تتعلق بموضوعات دينية أو فقهية ، يضاف اليها بعض النقوش البهلوية المكتوبة على الصخور أو النقود أو المجوهرات التي يرجع تأريخها الى منتصف القرن الثالث الميلادي •. وان اللغة البهلوية ما هي إلاّ تطور متأخر للغة الفارسية القديمة التي لا نعرف من أمرها إلاّ بقدر ما بقي مسجلاً منها في هذه النقوش المنحوتة في الصخر في پرسيبوليس وبهستون ، ومواضع أخرى أمر بكتابتها دارا الاكبر ومن لحقه من ملوك الدولة الاكمينية • وان اللغة التي تعرف باسم لغة الأفستا أو خطأ باسم الزند ، هي اللغة التي كتبت فيها تعاليم زرادشت ، هي لغة شقيقة للغة الفارسية القديمة وكذلك للغة السنسكريتية ، وانما بناء على ذلك لاتتصل بالفارسية الحديثة وإن كانت لاتزال تتمثل في بعض اللهجات المحلية في فارس وكذلك في اللغة الافغانية المعروفة باسم البشتو »[١٠] •

وتابع الباحثون المستشرق براون فقال الاستاذ احمد أمين : « كانت لغة الفرس في عهد الدولة الساسانية هي اللغة الفهلوية »[١١]• ولكن بعد دخول الاسلام واللغة العربية في ايران تعرضت « الديانة الفارسية واللغة الفهلوية للاضمحلال ثم الفناء »[١٢]• وان اكثر الكتب الفهلوية التي نقل عنها العرب ضاعت ولم يبق منها الا القليل كالشاهنامة الفهلوية وأعمال أردشير بن بابك[١٣]• وقال الدكتور محمد غنيمي هلال إن الفارسية الدرية هي لغة الأدب

---

(١٠) تاريخ الادب في ايران ص١١ •

(١١) فجر الاسلام ص١٤٠ •

(١٢) فجر الاسلام ص١٤٠ •

(١٣) قصة الأدب في العالم ج١ ص٧٨ •

الفارسي بعد الفتح الاسلامي لايران[١٤]، وقال الدكتور احمد ناجي القيسي : « نشأت لغتهم التي يتكلمون بها اليوم والتي تسمى بالدرية من التفاعل بين لغتنا ولغتهم التي كانت عندهم إبان الفتح الاسلامي العربي العظيم »[١٥] . وقال الدكتور حسين علي محفوظ : « مرّت الفارسية بمراحل أربع[١٦] هي : الفارسية القديمة بالخط المسماري ، والفارسية الاقستائية ، والفارسية الوسطى — البهلوية — ثم الفارسية الدرية بالخط العربي ، والدرية هي واحدة من نتائج اختلاط البهلوية بالعربية وثمرة تأثرها بها في دخول العرب وانتشار الاسلام »[١٧] ، ولذلك لم يظهر المعجم الفارسي إلا في أواسط القرن الخامس للهجرة فقد تأثر أبو منصور علي بن أحمد الأسدي الطوسي بالخليل بن أحمد ووضع المعجم الأول في الفارسية وسماه « لغت الفرس » وهو معجم يشتمل على (١٢٧٥) كلمة فقط[١٨» ومعنى ذلك ان الأدب الفارسي نشأ بعد الاسلام لان الفرس قد « تعمدوا إلا يعلموا أبناءهم أي من الفنون عدا فن الحياة ، فأما الأدب فقد كان في رأيهم ترفاً قلَّ أن يحتاجوا اليه .... وكان الشعر عندهم يُغنّى اكثر مما يقرأ فلما ماتت المغنون مات الشعر معهم »[١٩] ، ولذلك « لم يصل الينا شيء من شعر الدولة الساسانية »[٢٠] ، ولا « نعرف شيئاً من آثار الفرس القدماء في الشعر ، وليس بين أيدينا أثارة من الشعر في اللغة البهلوية أو اللغة الفارسية القديمة أو لغة الأفستا »[٢١] ، ولا يعرف من

(١٤) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص١٧٣ ، الادب المقارن ص١١٨ .

(١٥) موقف العجم من لغة العرب ص٣ — ٤ .

(١٦) نقل ابن النديم (— ٣٨٠هـ) عن ابن المقفع ان اللغات الفارسية هي : الفهلوية والدرية والفارسية والخوزية والسريانية وذكر ان الفارسية هي التي يتكلم بها الموابذة والعلماء واشباههم . (الفهرست ص١٥) .

(١٧) مظاهر تأثير اللغة العربية في اللغة الفارسية ٦ — ٧ .

(١٨) المصدر نفسه ص٢٩ .

(١٩) قصة الحضارة ج٢ مجلد ١ ص٤٤٥ .

(٢٠) فجر الاسلام ص١٤١ . (٢١) قصة الادب ج١ ص٤٤٧ .

« الأدب الايراني القديم إلا" عبارات منقوشة في عهد الملـوك الأخمينيين ، ولم يصل الينا من النصوص المكتوبة باللغة الزندية القرية من الايرانية القديمة إلا" آثار قليلة الأفستا »(٢٢)، قـال الدكتور حسين علي محفوظ : « وإذ" ولدت اللغة الفارسية الدرية في القرن الاول الهجري فقـد ظهر باكورة النثر الفارسي في المائة الثانية ، وظل الأدب الفارسي تبعاً للأدب العربي يمشي خلفه وينحو نحوه ويسلك مسالكه ويتابعه ويقلده ويقتدي به ، وكلما بدت ظاهرة في الأدب العربي لاحت اماراتهـا في الأدب الفارسي بعد قرن »(٢٣)، أي ان ما قيل من تأثر الكتاب والشعراء العـرب بالفرس ليس صحيحا ، فقد جاء في رسالة عبدالحميد الكاتب (ــ ١٣٢هـ) الى الكتـاب : « فتنافسـوا يامعشر الكتاب في صنـوف الآداب وتفقهوا في الديـن وابدأوا بعلـم كتاب الله ــ عز وجل ــ والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العـرب والعجم وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ماتسمو اليه هممكم »(٢٤)، وكلام عبد الحميد واضح فليس فيه دعوة الى النظـر في آداب الفرس ولغتهم وانما هو حث" على الأخذ بالثقافة العربية والتمسك بكتاب العربية الاكبر ، وليس في قوله « أيام العرب والعجم » ما يقتصر على أيام الفرس بل أيام غير العرب وهي كثيرة ولا تدخل معرفة الأيام في اسلوب التعبير والصياغـة والصنعة ، وهو ماظنه بعض الباحثين أثراً من آثار الفرس.

ومن أقـدم ما ذكر مـن الشعر الفارسي قصيدة العبـاس التي أنشأها ليستقبل بها المأمـون عند قدومه الى مـرو في سنة ١٩٣هـ (٨٠٩م) ولكن كازمرسكي يرى أنها زائفة منتحلة ، وقد أيده المستشرق براون وقال : « ولعل من أقـدم الأشعار الفارسية التي وصلت الينا هي الأبيـات التي حدثنـا بها

(٢٢) المعجم الادبي ص٥١٧ .
(٢٣) مظاهر تأثير اللغة العربية في اللغة الفارسية ص٧ .
(٢٤) صبح الأعشى ج١ ص٨٥ ، رسائل البلغاء ص٢٢٥ .

نظامي عروضي سمرقندي في كتابه « جهار مقالة » ــ المقالات الأربع ــ فقال إنها أوحت الى احمد الخجستاني أن يثور في وجه الدولة الصفارية في سنة ٢٦٢هـ (٨٧٥ ــ ٨٧٦م)[٢٥]. وقال : « إن القصيدة والقطعة هما من ضروب النظم استعارهما الفرس من العرب وقد وضعوهما على نسق المعلقات الجاهلية من حيث الصياغة والاسلوب وإن كان قد أصابهما شيء من التعديل على أيدي الفرس كما فعلوا أيضاً بالغزل »[٢٦]. وقرر أن الفرس تلاميذ العرب المخلصون في الشعر والنثر ، وقد ذكر صاحب « جهار مقالة » أن « كاتب الديوان لايبلغ شأواً عالياً في صناعته حتى يأخذ بطرف من كل علم وحتى يتلقى النكات الرقيقة من أفواه الأساتذة المبرزين ، وحتى يستمع الى لطائف الحكماء الماهرين وحتى يقتبس طرائف الأدباء القادرين . ومن أجل ذلك وجب على كل من يريد التبريز في الكتابة أن يقرأ في العربية كلام رب العزة وأخبار المصطفى وآثار الصحابة وأمثال العرب وكتابات الصاحب اسماعيل بن عباد والصابي وقدامة بن جعفر وبديع الزمان الهمذاني والحريري وجماعة آخرين من الكتاب وكذلك أشعار المتنبي والأبيوردي والغزي»[٢٧]. وهذا ما التزم به الكتاب العرب قبل ذلك ، فالأدب الفارسي ــ إذن ــ هو الأدب الذي نشأ في القرن الثالث للهجرة واستمر الى العصر الحديث[٢٨].

هذه حقيقة اللغة الفارسية وأدبها ولكن الباحثين ــ مع ذلك ــ يؤمنون بأثرها في اللغة العربية وعلومها من غير أن يضعوا أيديهم على الحقائق ، وهم يكتفون بذكر بعض الأمثال والحكم وهي ما لا تنفرد به أمة دون أمة ، ويرددون ما ذكره الجاحظ من أن للفرس رسائل وخطبا

(٢٥) تاريخ الادب في ايران ص٢٣ ، وينظر قصة الأدب ج١ ص٤٤٩ .

(٢٦) تاريخ الادب في ايران ص٢٨ ــ ٢٩ .

(٢٧) تاريخ الادب في ايران ص١٠٣ .

(٢٨) قصة الادب ج١ ص٤٣٨ ، ٤٤٨ ، القصة في الأدب الفارسي ص٤٢ ، ٧٨ ، المعجم الادبي ص٥١٧ .

وشعر[٢٩]، وانه قال : « قالوا : ومن أحبّ أن يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ كاروند ، ومن احتاج الى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمَثُلات[٣٠] والالفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فلينظر في سير الملوك فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها »[٣١]. وليس غريبا[٣٢] أن يكون للفرس واليونان شعر وخطب ورسائل وحكم وان يذكر الجاحظ ذلك وهو الذي قال : « وانما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم والباقون همج وأشباه الهمج »[٣٣] ، ولكن الاعتراف بأدب هذه الأمم شيء ، والتأثر به شيء آخر ، والجاحظ الذي نقل ذلك عن أنصار الشعوبية عاد فقال : « ونحن لانستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولّدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله وعبدالحميد وغيلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السِّيَر »[٣٤]. وجاء مثل ذلك في شرح التبريزي لبيت أبي تمام :

بـل كان كالضحاك في سطواته   بالعالمين وأنـت أفريـدون

« هذا شيء أخذه الطائي من سير الفرس ، وهي كثيرة الكذب وكذلك جميع الاخبار المنقولة يعترض عليها المين كثيرا »[٣٥] ، وفي ذلك ما يوحي بان

(٢٩) البيان ج١ ص١٣ ، ٢٧ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٣٠) المثلة : بفتح الميم وضم الثاء ــ العقوبة والتنكيل .

(٣١) البيان ج٣ ص١٤ .

(٣٢) جاء في فهرست ابن النديم ص١٥ : « قرأت بخط أبي عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري في كتاب الوزراء تاليفه قال : «كانت الكتب والرسائل قبل ملك كشتاسب بن لهراسب قليلة ولم يكن لهم اقتدار على بسط الكلام واخراج المعاني بفصيح الالفاظ من النفوس » .

(٣٣) البيان ج١ ص١٣٧ ، ٣٨٤ .   (٣٤) البيان والتبيين ج٣ ص٢٩ .

(٣٥) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ج٣ ص٣٢١ ، وينظر الأدب والسياسة للدكتور العبود ص٢٥٩ .

الفرس لفقوا كثيراً من الأخبار ووضعوا الكتب والرسائل ليثبتوا أن لهم تراثاً ، وان لهم حضارة أثرت في العرب ووجهت حياتهم • وقد انساق بعضهم وراء ذلك ، وقرّ أن العرب ورثة تلك الحضارة على الرغم من شكّ القدماء في كتب الفرس ورسائلهم • وكان الجاحظ صادق الحسّ خبيراً بما كان يصنعه الشعوبيون ، وكان غيره يشعر بان التلفيق يلف تلك الاخبار ويعرضها زاهية مع أن المين يعترض عليها كثيرا •

ومهما يكن من أمر فليس هنا مجال إنكار ما للأمم من لغة وأدب وحضارة ولكن الذي ينكره الباحث المدقق هو ما يذهب اليه بعضهم من أن الزخرف الفني وصل الى العرب من الفرس[٣٦] • وذلك بسبب طبيعة الفرس الذين يكلفون بالزخرفة كلفاً شديداً في حياتهم وعمارتهم[٣٧] • ولا يختص الفرس وحدهم بهذه الزخرفة فالتراث العربي قبل الاسلام وبعده حافل بألوان الصنعة والبديع ، وليس غريبا أن يزداد ذلك الكلف في القرون المتأخرة وأن يكون سمة من سمات الأدب العربي • يضاف الى ذلك ان التناسق والتقابل والتجانس لايخصّ أمة دون أمة ، وقد كان ذلك من أبرز ملامح الأدب العربي القديم ، وان المبالغة لون من ألوان التعبير عند العرب قبل الاسلام وليست فنا فارسيا نشأ بسبب اسراف الفرس وغلوهم في سلوكهم • وقد كان للعرب موقف من المبالغة وحينما بحثها النقاد أشاروا الى موقف اليونان ولم يشيروا الى موقف الفرس ، قال قدامة بن جعفر : « إنّ الغلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب اليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما • وقد بلغني عن بعضهم انه قال : « أحسن الشعر أكذبه » ، وكذا يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم »[٣٨] • ولو كانت المبالغة خاصة بالفرس أو أنها سمة من سمات أدبهم

(٣٦) تنظر الآراء في النثر الفني ج١ ص٤٤ .

(٣٧) ينظر الادب في ظل بني بويه ص٢٢٨ وما بعدها .

(٣٨) نقد الشعر ص٦٥ .

لأشار اليها النقاد العرب كما أشاروا الى اليونان الذين تفصل بينهم وبين العرب جبال وبحار .

النقض :

لم يكن البديع فارسياً وانما هو فن عربي أصيل ، والأدلة على ذلك كثيرة منها :

١ — ان القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر القديم وكلام العرب البليغ حفل بألوان منه ، وقد دفع ذلك ابن المعتز الى أن يؤلف كتابه «البديع» ويقول : « قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله — صلى الله عليه — وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشاراً ومسلما وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه »[٣٩] ، ولم يكن الشعر الفارسي عند نشأته كذلك ، وانما جاءت العناية بالبديع متأخرة ، قال الباحث الايراني عباس إقبال : « ويستفاد من بعض القرائن أن شعراء الفرس اعتنوا عناية خاصة بالبديع منذ أواخر عهد السامانيين وأوائل دولة الغزنويين فقالوا أشعاراً بديعة تتسّم بها من ناحية جمالها اللفظي والمعنوي »[٤٠] ، وقال المستشرق براون : « يتصور كثير من الناس أن الآداب الفارسية تمتاز بانها مصطنعة متكلفة تمتلىء بالصناعات البديعية وتزخر بالمجازات والاستعارات ولكن هذا الرأي ليس صحيحا إلا فيما يتعلق بمجموعة من الآداب نشأت في كنف الفاتحين الأجانب من المغول أو الاتراك »[٤١] ، وقال الدكتور عبد الوهاب عزام : « كان نشوء الأدب الفارسي وازدهاره في

---

(٣٩) البديع ص١ .

(٤٠) حدائق السحر ص٦٨ .

(٤١) تاريخ الادب في ايران ص٢٧ .

حضانة الأدب العربي وسيطرته فتبسع الأدبُ الناشيء الأدبَ القديم في الصناعة الفنية التي أُولع بها بعض شعراء العرب منذ القرن الثالث الهجري ثم زادت صنوفها وشاعت وعمّت حتى صيّرت الشعر صناعة لفظية في القرون الأخيرة فصيغت المجازات والاستعارات الفارسية على غرار ما ألف في الأدب العربي ... وطبق على النظم والنثر في اللغة الفارسية قواعد البلاغة العربية حينما صارت البلاغة قواعد ، فكانت كتب البلاغة الفارسية في قواعدها واصطلاحاتها لاتختلف كثيراً عن نظيراتها في اللغة العربية»[٤٢].

٢ ـ ان الشاعر العباسي مسلم بن الوليد (ـ ٢٠٨هـ) أطلق على البديع هذا اللقب ، قال أبو الفرج الاصفهاني : « وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقّب هذا الجنس البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة وأشهرهم فيه أبو تمام الطائي فانه جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه »[٤٣] . وربما أخذ مصطلحه من الرواة وقد أشار الجاحظ الى ذلك بقوله : « وهذا الذي تسميه الرواة البديع »[٤٤].

٣ ـ ان المشارقة لم يهتموا بالبديع كاهتمام العرب ولا سيما المغاربة لان المشارقة كانوا أكثر ميلاً الى « الأخذ بالمعاني والجوهر لا بالصيغة والالفاظ والبديع »[٤٥]. والى ذلك أشار ابن خلدون وهو يتحدث عن علمي المعاني والبيان فقال : « وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة وسببه ـ والله أعلم ـ أنه كمالي في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران ، والمشرق أوفر عمراناً من المغرب ـ كما ذكرناه ـ أو نقول لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري وهو كلّه مبنيّ على هذا الفن وهو أصله . وانما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة

(٤٢) قصة الادب ج١ ص٤٤١ ـ ٤٤٢ .
(٤٣) الاغاني ج١٩ ص٣١ .
(٤٤) البيان والتبيين ج٤ ص٥٥ .
(٤٥) ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد ص٣١٢ .

وجعلوه من جملة علـوم الأدب الشعريـة وفرّعوا له ألقابا ، وعـددوا أبوابا ونوّعوا أنواعا ، وزعموا أنهم احصوها من لسان العرب • وانما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ وان علم البديع سهل المأخذ وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيـان لدقـة أنظارهمـا وغموض معانيهما فتجافـوا عنهما »[٤٦] • ومصداق ماذكره ابن خلدون ظهور كتب البلاغة المتأثرة بالفلسفة والمنطق في المشـرق كمفتاح العلـوم للسكاكي ومعظم شـروح التلخيص ، وظهور كتب البلاغة المتأثرة بالنزعة الأدبية في الأمصار العربية ومنها البديع لابن المعتـز ونقد الشعر لقدامة بن جعفر وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري والبديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ وتحرير التحبير وبديع القرآن لابن أبي الاصبع المصري • ومن ذلك بديعيات صفي‌الدين الحلي وابن جابر الاندلسي وعزالدين الموصلـي وابن حجة الحموي وجلال‌الدين السيوطي وعائشة الباعـونية وعبدالغني النابلسي وغيرهـم[٤٧] • وهؤلاء كلهم نشـأوا في بيئات عربية ولم يتأثروا بالفرس وآدابهم او بمنهج السكاكي في تحديد علوم البلاغة •

٤ ــ ان الجاحظ (ــ ٢٥٥هـ) ذكر أن البديع مقصور على العرب ، قال : « والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان»[٤٨] • وليس ذلك تعصبا للعرب[٤٩] وانما هي الحقيقة التي يؤيدهـا

---

(٤٦) مقدمة ابن خلدون ص٥٥٢ •

(٤٧) نظم قوامي الكنجوي وهو من رجال القرن الثاني عشر الميلادي ــ السادس الهجري ــ قصيدة مصنعة ضمنها مائة بيت ، وفي كل بيت لون او اكثر من الوان البديع • (تاريخ الادب في ايـران ص٦٣) • وقد علـق المترجم في الهامش : «هـذا هو القـول المشهور ولكن هنـاك من يشـك في صحة النسب » ، ولا يبعد أن يكـون الشـاعر الفارسي قد أخـذ من البديعيات المعروفة وهي قديمة في الشعر العربي فقد ظهرت منـذ القرن السـادس للهجـرة •

(٤٨) البيان والتبيين ج٤ ص٥٥ •

(٤٩) كنا نظن ذلك من قبل ، ولكن البحث الجديد أظهر غيـر مـا رأينا متأثرين بالدراسات العربية غير الدقيقة • (تنظر كتبنا مصطلحات بلاغية ص٨١ ، مناهج بلاغية ص٣٢٠ ، فنون بلاغية ص١٩٧) •

القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب جاهليه واسلامه ، وقد أخذ الفرس البديع من العرب حينما ألفوا كتبهم البلاغية في عهد متأخر وذكر ذلك الباحث الايراني عباس إقبال فقال : « وعلم البديع مثل طائفة أخرى كبيرة من شعب الفنون الأدبية يعتبر من العلوم الخاصة باللغة العربية لاتنا إذا استثنينا بعض الصناعات المعنوية مثل التشبيه والاستعارة مما يعتبر من الخصائص الطبيعية لكل انسان ولكل لسان فانّ بقية الصناعات البديعية وعلى الخصوص اللفظية منها كالسجع والترصيع والتجنيس وغيرها قد احتلت المكان الأول في اللغة العربية لانها باتساع ألفاظها وكثرة مترادفاتها قد ساعدت على ايجاد الارض الصالحة لنمو هذه الصناعات ، أما اللغة الفارسية فهي لغة آرية تختلف عن العربية من عدة وجوه ، ومن أجل ذلك فقد كان من باب التقليد اتخاذها لقسم كبير من هذه الصناعات البديعية ، وربما ساعد على سهولة هذا التقليد دخول عدد كبير من الالفاظ العربية في اللسان الفارسي فان شعراء ايران بعد الاسلام لم يجدوا أمامهم ما يقلدونه من نماذج الأشعار إلا الأشعار العربية فأخذوا يحاكونها في اسلوبها وسبكها وأنشأوا قصائدهم على غرارها وصبّوا احساساتهم وعواطفهم في قوالب العروض العربي وأوزانه ، وأصبح الشاعر الايراني بعد الاسلام لايستطيع أن يقول الشعر بلغته الفارسية مالم تكن معرفته باللغة العربية كاملة ، حافظاً لأشعار العرب ، مطالعا لأقوالهم ، فكانت هذه الحال التي اضطر اليها الشعراء بايران مع ما ركب في الطبيعة الانسانية من حب التقليد دافعاً لهم على محاكاة أساليب العرب والباس علومهم الأدبية في لباس فارسي جديد »(٥٠). ويتضح ذلك في اعتراف صاحب « ترجمان البلاغة » بأنه ألف كتابه بعد أن لم يجد كتابا بلاغيا في الفارسية يشفي الغلة ، وانه نقل هذا العلم من العرب وطبقه

(٥٠) حدائق السحر ص٦٧ .

على الشعر الفارسي[٥١] • ولعل نصر بن الحسن المرغيناني سبقه الى ذلك في كتابه « محاسن الكلام »[٥٢] الذي رجع اليه وأقام فصول كتابه عليه •

٥ ــ ان علوم العربية لم تكن وليدة العصر العباسي وانما كانت لها جذور عميقة قبل ذلك ، وقد أشار الى هذه القضية الدكتور زكي مبارك فقال : « استبعد أن يكون العرب ظلوا خالي الذهن من العلوم الأدبية الى أن اتصلوا بالفرس والروم »[٥٣] ، وقرر أن علو مالغة العربية كانت معروفة معتمداً على كلام أحمد بن فارس الذي قال : « والدليل على صحة هذا وان القوم قد تداولوا الاعراب انا نستقري قصيدة الحطيئة التي أولها :

شاقتك أضعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والاعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف اعرابها لان تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لايكاد يكون • فان قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية وان الخليل أول من تكلم في العروض قيل له : نحن لانكر ذلك بل نقول : إنّ هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلاّ في أيدي الناس ثم جددهما هذان الامامان »[٥٤]• وقال : « ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر »[٥٥] • وانتهى الدكتور زكي مبارك الى القول بأن « الذي قصى به ابن فارس في نشأة النحو والعروض هو الذي نقضي به نحن في نشأة البديع ، بل نشأة البديع أظهر وأوضح ، فان القرآن سجّل مظهراً من مظاهر

(٥١) ترجمان البلاغة ص٢ •
(٥٢) ترجمان البلاغة ص٣ ــ ٤ •
(٥٣) النثر الفني ج١ ص٥٥ •
(٥٤) الصاحبي ص٣٧ ــ ٣٨ • (٥٥) الصاحبي ص٣٩ •

الزخرف والسجع فهو إذن كان موجوداً قبل الاسلام وليس السجع فقط هو الذي قيّده القرآن بل أكثر الفنون البديعية أخذت شواهدها من آيات القرآن»[٥٦] • وهذه مسألة ينبغي العناية بها والوقوف عليها ؛ لانه إذا صحّ ما ذكره ابن فارس فان كثيراً من البحوث والدراسات تتهاوى وبذلك يعود الحق الى نصابه وينال العرب شرف معرفة علوم لغتهم قبل أن يعرفوا الفرس واليونان ويتأثروا بهم كما يزعم بعض الباحثين •

٦ ــ ان ابن النديم ذكر كثيراً من كتب الفرس التي عرفها العرب أو نقلوها مثل كتب الطب والأسمار والباه والخبلان والاختلاج والفأل والزجر والمواعظ والآداب والحكم وكتب ماني وأصحابه ورسائلهم[٥٧] ،وليس بينها ما يتصل بالبلاغة وإن جاء اسم « عين البلاغة » أو « عش البلاغة » ، فهو كتاب عهد كسرى أنو شروان الى ابنه[٥٨] • ولو كان للفرس كتب بلاغية لذكرها وهو الذي قال عن كتابه : « هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها الى أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتأريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفياتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع الى عصرنا هذا ، وهو سنة سبع وثلثمائة للهجرة »[٥٩] •

فالبلاغة الفارسية متأثرة بالبلاغة العربية بل هي منقولة عنها ، كما ذكر صاحب « ترجمان البلاغة » من قدماء الفرس وأثبته الباحثون من فرس ومستشرقين وعرب كعباس اقبال وبراون وزكي مبارك وعبدالوهاب عزام ، وأيده تأريخ علوم اللغتين العربية والفارسية وبقيت مسألتان لا بدّ من الوقوف عليهما وهما :

---

(٥٦) النثر الفني ج١ ص٥٦ • وينظر بحث « بديع القرآن الكريم » في هذا الكتاب ص١٧٢ ــ ١٨٨ •

(٥٧) ينظر الفهرست ص١٣٢ ، ١٨٦ ، ٣٠٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٦ ، ٣٩٩ •

(٥٨) الفهرست ص٣٧٨ •　　(٥٩) الفهرست ص٣ •

الأولى : ان الجاحظ قال وهو يتحدث عن البلاغة : « قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل »[٦٠] • وليس غريبـاً أن يكـون هذا التعريف من وضع الجاحظ وهو المعروف بنسبة بعض مؤلفاتـه الى غيره ليقبل الناس عليها وينجو من كيد الاعداء وحسد الحاقدين[٦١] وليس فـي كتب الجاحظ نقل عن بلاغة الفرس إلاّ ما ذكره على لسان الشعوبيين : « ومن أحب أن يبلغ صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقـرأ كتاب كاروند »[٦٢] في حين أنه ذكر ترجمة الصحيفة الهندية حينما قيل : « ما البلاغة عند الهند»[٦٣] ولو كان للفرس كتاب أو صحيفة لسعى الجاحظ الى الحصول عليها ودوّنها في كتابـه « البيان والتبيين » كما فعـل بالصحيفة الهندية التي عرضها الأشعث على التراجمة ونقلها الجاحظ عنه •

ولو ذهب الباحث ينقّر عن الفصل والوصل عند الفرس ما وجد شيئاً ، بل ينتهي الى أن العرب أول من اهتم بهذا الاسلوب وان هناك أدلـة كثـيرة تثبت ذلك منهـا :

١ ـ ان الفصل والوصل من أساليب كلا مالعرب وكان معروفـاً فـي كلامهم لارتباط المعنى به ، وقد مرّ رجل بأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ومعه ثوب فقال : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا عافاك الله • فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : « لقد كنتم لو علمتم تعلمون » • قل : « لا ، وعافاك الله »[٦٤]• والوقف والابتداء أو القطع والاستئناف مما عرض له القـر"اء والنحـاة ؛ لأنه يتصل بقراءة كتاب الله وتفهم أغراضه ومعانيه ومثل تلك الكتب معروف وقد ذكر ابن النديم بعضها[٦٥] ، وطبع بعضها في السنوات الأخيرة •

---

(٦٠) البيان والتبيين ج١ ص٩٢ ـ ٩٣ •
(٦١) ينظر ما بين العداوة والحسد في رسائل الجاحظ ج١ ص٣٥٠ ـ ٣٥١ •
(٦٢) البيان والتبيين ج٣ ص١٤ •
(٦٣) البيان ج١ ص٩٢ ـ ٩٣ •
(٦٤) البيان ج١ ص٢٦١ • (٦٥) الفهرست ص٣٨ ـ ٣٩ •

٢ ـ ان العرب الأقدمين ذكروا الفصل والوصل ، وأشار أبو هلال العسكري اليه بقوله : « وكان اكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتّابه : « افصلوا بين كل معنى منقضٍ ، وصلوا اذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض » . وكان الحارث بن أبي شمر الغساني يقول لكاتبه المرقش : « إذا نزع الكلام الى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبعته من الالفاظ ، فانك اذا حذفت الفاظك بغير مايحسن أن تحذف به نفرت القلوب عن وعيها وملّته واستثقلته الرواة »[٦٦] .

٣ ـ ان الفرس لم يذكروا الفصل والوصل في كتبهم التي وصلت الينا ، فليس هناك ـ مثلاً ـ اشارة اليه في « ترجمان البلاغة » و « حدائق السحر » وهذا يدل على أنهم لم يهتموا به على الرغم من ان الجاحظ نسب الى الفارسي قوله إن البلاغة « معرفة الوصل من الوصل » .

٤ ـ ان موضوع الفصل والوصل لم يتعرض له مؤلفو البلاغة إلاّ في عهد متأخر ، وكانت بداية بحثه بلاغيا على يد عبدالقاهر الجرجاني (ـ ٤٧١ أو ٤٧٤هـ) في « دلائل الاعجاز » . وقد ذكر ما جاء في كتاب « البيان والتبيين » ولكنه لم ينسبه الى الفارسي ، قال : « وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّاً للبلاغة فقد جاء عن بعضهم انه سئل عنها فقال : « معرفة الفصل من الوصل » ذاك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لايكمل لاحراز الفضيلة فيه أحد إلاّ كمل لسائر معاني البلاغة »[٦٧] . وذكر الخطيب القزويني (ـ ٧٣٩هـ) مثل ذلك[٦٨] ، ولو كان القائل فارسيا لأشار اليه عبدالقاهر والقزويني ولم يقولا إنه جاء عن بعضهم او ان بعض العلماء قصَرَ البلاغة على معرفة الفصل من الوصل .

(٦٦) كتاب الصناعتين ص٤٤٠ .

(٦٧) دلائل الاعجاز ص١٧٠ ـ ١٧١ .

(٦٨) الايضاح ص١٤٧ .

وليس ما جاء في « كتاب الصناعتين » عنه مما قصد اليه البلاغيون حينما أدخلوه في علم المعاني وان جاء فيه ــ نقلاً عن الجاحظ كما يبدو ــ تعريف الفارسي للبلاغة من أنها « معرفة الفصل من الوصل »[69] . فالفصل والوصل عند أبي هــــلال يتصل بفصول القصيدة ومقاطعها أي بأواخر الأبيات التي تقابل مطالعها وابتداءاتها ، وهذا ما لم يرده عبدالقاهر والبلاغيون المتأخرون حينما بحثوا الموضوع وقالوا إن الوصــل عطف بعض الجمــل على بعض ، والفصل تركه ، ولكن منهما مواقع يصح فيها الفصل أو الوصــل أو لايصحان وهو لايريد بها علم البلاغة الذي نقله الفرس عن العــرب وانما يريد بلاغة الكلام ، وهي معروفة في كل لغة من لغات العالم . ولذلك لاتقف هذه الاشارات دليلاً على معرفة الفرس لعلم البلاغة ، ولاتكون شاهـــداً على مازعـم بعض الدارسين بعــد الــذي اتّضح ومــا أثبته الباحثــون الفرس والمستشرقــون .

وصفوة القول : إن الفرس تأثروا بالبلاغة العربية وبنـــوا دراساتهم البلاغية علىكتب العرب ، ولكي تتضح الصورة ويظهر الدليل ناصعا نعرض لأقدم كتابين من كتبهم هما « ترجمان البلاغة »و « حدائق السحر » .

البرهــان :

نسب « ترجمان البلاغــة » الى الشاعــر الفارسي فرخي ، قال ياقوت الحموي وهو يتحدث عن « حدائق السحر » لرشيدالدين الوطواط :« عارض به كتاب ترجمان البلاغة لفرخي الشاعــر الفارسي »[70] ، وقال حاجي خليفة : « ترجمان البلاغة » ، فارسي لفرخي الشاعر جمع فيه الصنائع البديعية »[71] ،

(69) كتاب الصناعتين ص٤٣٨ .
(70) معجم الادباء ج٧ ص٩١ .
(71) كشف الظنون ج١ ص٣٩٦ .

وقال المستشرق براون : « كتاب ترجمان البلاغة من وضع فرخي وهو من الشعراء المعاصرين للفردوسي ، وقد ذكر دولتشاه اسم كتابه »[٧٢] ، وقال : « وهو كتاب مفقود قد أودى به الزمان فيما نعلم ، وربما استعمله رشيدالدين الوطواط في تأليف كتابه « حدائق السحر »[٧٣] ، وتابعه الدكتور علي الشابي فقال : « وألف كتابا في فنون البلاغة اسمه « ترجمان البلاغة » يعتبر من النماذج الأولى لفن البلاغة باللغة الفارسية واعتمد رشيدالدين الوطواط عليه في تأليف كتابه « حدائق السحر في دقائق الشعر »[٧٤] ، وقال الباحث الايراني عباس إقبال : « أما الاستاذ أبو الحسن علي الفرخي الشاعر السجستاني الكبير المتوفى سنة ٤٢٩هـ فقد كان ـ فيما نعلم ـ أول من كتب كتابا في محاسن الشعر الفارسي[٧٥] ، وأول من استعمل بشكل جدي ماهر بعض الصناعات البديعية في أشعاره فأضفى على كلامه باستعمالها جمالاً ولطفاً بالغين ، وكتاب الفرخي معروف باسم « ترجمان البلاغة » وقد ضاعت نسخته ولم تصل الى أيدينا كما أن أحداً لم ينقل الينا باباً من أبوابه ، ومن أجل ذلك فنحن لانعلم على وجه التحقيق كيفية ترتيبه ولا محتوياته ولا السبب الذي دعا الى تأليفه أو المنابع التي اعتمد عليها المؤلف في كتابته أو الشخص الذي أهدى اليه الكتاب إذا صحّ اهداؤه الى أحد من الناس ، وكل ما نعلمه أن هذا الكتاب كان في يد رشيدالدين الوطواط عند كتابته لحدائق السحر ، وانه عارض به ـ كما يقول ياقوت ـ كتاب « ترجمان

(٧٢) تاريخ الادب في ايران ص٣٠ ، وتنظر ص١٣٣ .
(٧٣) تاريخ الادب في ايران ص١٤٤ .
(٧٤) الادب الفارسي في العصر الغزنوي ص٢٤٥ .
(٧٥) سبقه نصر بن الحسن في كتابه « محاسن الكلام » وقد ذكر ذلك صاحب « ترجمان البلاغة » ص٣ ، وذكر ناشر الكتاب نسخته المحفوظة في مكتبة الاسكوريال باسبانية . « تنظر مقدمته ص(ي أ) » . و « محاسن الكلام » هو اسم القسم الثاني من بديع ابن المعتز وبذلك يكون نصر قد اخذ التسمية منه .

البلاغة » لفرخي الشاعر الفارسي • ولكن رشيدالدين ــ مع ذلك ــ لم يذكر لنا صراحة اسم مؤلف « ترجمان البلاغة » وربما كان سبب ذلك انه اعتبر نفسه مقبلا على ذكر عيوب هذا الكتاب وقد أشعاره التي ربما كانت من صنع الفرخي نفسه ، فرأى من الخير أن يتجنب ذكر اسمه حتى لايسيء الى ذلك الشاعر العظيم مع ما عرف عنه من الفضل ورفعة القدر • ومن أبلغ دواعي الأسف أن يضيع هذا الكتاب من بين أيدينا فان أهميته لا تحدّ من ناحية قدم تأريخه ، ومن ناحية أنه مكتوب بلغة فارسية منثورة قام بتحريرها شاعر لطيف الطبع جميل الذوق فصيح الاسلوب ، ومن ناحية انه كان مشتملا ــ من غير شك ــ على طائفة كبيرة من أقوال الشعراء والأدباء الذين عاشوا في العهد الساماني الذي يعتبر الدورة الأولى لنشأة الشعر الفارسي • ونحن لانشك في أن رشيدالدين قد اقتبس بعض شواهده مما وجد في « ترجمان البلاغة » ولكن من دواعي الأسف أنه لم يصرح بذلك في موضع واحد من مواضع كتابه كما لم يذكر شيئا عن « ترجمان البلاغة » وسبب تأليفه وتفصيل محتوياته • ولسنا نعلم فيما عدا ذلك إذا كان رشيدالدين قد استعان في تأليف « حدائق السحر » بكتاب فارسي آخر أو أنه اقتصر على هذا الكتاب الذي ذكرناه »[٧٦] •

وذكر مثل ذلك الاستاذ أحمد آتش ناشر الكتاب وقال إن معظم مؤلفي الأدب الفارسي يذكرون أن هذا الكتاب من تأليف فرخي الشاعر الكبير في العصر الغزنوي[٧٧] • وكان الوطواط قد ذكره وقال : « إن الملك العادل خوارزم شاه اتسز ــ نوّر الله مضجعه ــ استدعاني يوما من أيام دولته التي انتظمت عقود الفضل وانهدمت فيها أبنية الجهل ، فأسرعت الى تلبية أمره وأدركت سعادة خدمته، فأطلعني على كتاب في معرفة بدائع الشعر الفارسي

(٧٦) حدائق السحر ص٦٩ ــ ٧٠ ، وتنظر ص٢٤ ، ٦٧ ، ٧١ •
(٧٧) ترجمان البلاغة ص (ط) •

يسموه « ترجمان البلاغة » فلما راجعته وجدت أن أبيات الشواهد المسطرة في هذا الكتاب غير مستطابة وانها جميعا متكلفة النظم قد جمعت طريق التعسف وانها بالاضافة الى ما بها من تكلف وتعسف لاتخلو من أنواع الزلل وأصناف الخلل ، فرأيت من الواجب عليّ ـ أنا الناشيء في هذه الاعتاب ـ أن أكتب هذا الكتاب في معرفة محاسن النظم والنثر في كلتا اللغتين : العربية والفارسية »[78] .

ويتضح مما قاله القدماء والمحدثون :

١ ـ ان كتاب « ترجمان البلاغة » للشاعر الفارسي فرخي .

٢ ـ ان رشيدالدين الوطواط بنى كتابه « حدائق السحر » على « ترجمان البلاغـة » .

٣ ـ ان الوطواط لم يذكر اسم فرخي لكي لايسيء اليه بعد أن وصف شواهد كتابه بالتعسف والتكلف والزلل والخلل .

٤ ـ ان الوطواط ـ ربما ـ اقتصر على « ترجمان البلاغـة » عند تأليفه كتاب « حدائق السحر » .

وكادت الحقيقة تبقى مطوية لولا أن الاستاذ أحمد آتش عثر على نسخة من « ترجمان البلاغة » في مكتبة الفاتح بتركية ضمن مجموع نسخ في أواخر شهر رمضان سنة ٥٠٧هـ (١١١٤م) ، وقد جاء في صفحتها الاولى « كتاب ترجمان البلاغة تصنيف محمد بن عمر الرادوياني »[79] . وهذا ينقض ما جاء في المصادر القديمة والحديثة في نسبة الكتاب الى فرخي المتوفى سنة

---

(٧٨) حدائق السحر ص٨٩ .

(٧٩) لم يترجم الكتاب الى العربية كما ترجم حدائق السحر ، ولعل سبب ذلك انه ألصق بالأمثلة الفارسية . وقد أعانني استاذي الدكتور احمد ناجي القيسي على قراءته وترجم لي مقدمتي الناشر والمؤلف وبعض ما احتجت اليه . جزاه الله كل خير وأبقاه ذخراً للباحثين . كان هذا عام ١٩٨٢م ، أما اليوم فعليه رحمة الله اذ توفي في ١٦/٥/١٩٨٧م .

٤٢٩هـ • والمؤلف الجديد مجهول في تأريخ الأدب الفارسي وليس له وجود في المصادر ، وقد اعتمد في كتابه « ترجمان البلاغة » على كتاب محاسن الكلام » لنصر بن الحسن المرغيناني وقال في مقدمته : « وعامة أبواب هذا الكتاب خرجتها على ترتيب فصول محاسن الكلام للخواجة الامام نصر بن الحسن — رضي الله عنه — وأخذت منه شواهده[٨٠] » أي أنه رتب كتابه كما رتبه الأول وأخذ أمثلته منه وبذلك تعيّن المصدر الثاني لكتاب « حدائق السحر » بعد ان كان معروفاً ان الوطواط تأثر بترجمان البلاغة وحده ، لانه لم يشر الى غيره • وقد أظهر الاستاذ أحمد آتش بمقابلة بعض الصفحات من الكتابين أن الأمثلة التي ذكرها الوطواط — غير أشعاره — مأخوذة من هذا الكتاب كما ان « ترجمان البلاغة » يحتذي كتاب « محاسن الكلام » ولايختلف عنه إلاّ في المسائل اليسيرة كالاختلاف في بعض المصطلحات وعددها واسمائها[٨١] ، وهو اختلاف غير كبير ولايؤثر في أخذ اللاحق من السابق •

إنصدور «ترجمان البلاغة» في استانبول سنة ١٩٤٥ — قلب كثيراً مما ذكره الباحثون اذ ظهر أنه ليس للشاعر فرخي ، وان رشيدالدين الوطواط لم يهمل اسم فرخي تقديراً بعد أن انتقده ، ولم يعتمد على « ترجمان البلاغة » وحده وانما استعان بكتاب آخر هو « محاسن الكلام » للمرغيناني • ولعل أهم ما يلفت النظر أن صاحب « ترجمان البلاغة » يذكر أمثلة من شعر فرخي فيقول مثلاً : « قال فرخي »[٨٢] و « يقول فرخي »[٨٣] ، ولا يعقل أن يقول فرخي عن نفسه مثل ذلك وانما كان يقول مثل ما فعله الوطواط حينما ذكر أمثلة من شعره وقال مثلاً : « ومن قولي بالعربية » و « أقول بالفارسية » و «مثله

(٨٠) ترجمان البلاغة ص٣ — ٤ •

(٨١) تنظر المقدمة التركية للكتاب ص٤١ • وقد أوضحها لي الاستاذ الدكتور عرفان عبدالحميد جزاه الله كل خير •

(٨٢) ترجمان البلاغة ص١٣ ، ٤٨ •

(٨٣) ترجمان البلاغة ص٣٢ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ٩٣ •

قولي بالفارسية » و « من قولي البيت الآتي » [٨٤] وغير ذلك من العبارات التي تدل على أن الشعر من نظمه ، ومما يدل على ان «ترجمان البلاغة» ألّف بعد وفـاة فرخي قـول الشاعـر ليبيي في الكتاب نفسـه « إن يمت فرخي فلماذا لم يمت عنصري ؟ يبقى الشيخ ويموت الفتى سريعا »[٨٥]. وكان فرخي قد مات سنة ٤٢٩هـ ومات استاذه عنصري سنة ٤٣١ او ٤٤٢ هـ .

وسبب تأليف الكتاب ان مؤلفه لم يجد في معرفة أجناس البلاغة وأقسام الصناعة ومعرفة الكلام بالزينة والمعاني الرفيعة كتاباً بالفارسية يؤنس الحر ويسلّي العاقل[٨٦] ، وانتظر طويلاً لعله يجد من يغنيه مهمة التأليف ، ولكنه لم يرَ أحداً يقـدم على التأليف في هـذا الباب فندب نفسه لذلك وترجم من العربية أصناف البلاغة ووضع لها أمثلة من كلام الفرس بعد أن عرّف كـل لون من ألوان البديـع .

وبدأ المؤلف كتابه بمقدمة موجزة تحدث فيها عن الأسباب التي دعته الى وضعه ثم بدأ بموضوعات البلاغة وأخذ يعرضها واحداً واحدا كمـا فعل ابن المعتز في « البديع » واسامة بن منقذ في « البديع في نقـد الشعـر » . ومنهجه العام انه يذكر المعنى اللغوي لاسم الفن أحيانا والمعنى الاصطلاحي ثم يذكر أمثلة من الشعر الفارسي . ومصطلحاته عربية وقد بلغـت ثلاثة وسبعين مصطلحا ، فالكتاب عربـي المصطلح ولايبتعد كثيراً عن كتب البلاغـة العربية في التحديد ، فالمؤلف يقول في الترصيع ــ مثلا ــ : « الترصيع لغـة هـو نظم الجواهر في عقد ، وتفسيره اصطلاحا ان الشاعر او الكاتب يأتي بالكلام أقساماً أقساماً بحيث تكـون الكلمتان متقابلتين ومتفقتين في الوزن وحروف الروي »[٨٧] . وهذا ما ذكر الوطواط أيضا فقال : « الترصيع في اللغة بمعنى

(٨٤) حدائق السحر ص٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٢ .
(٨٥) ترجمان البلاغة ص٣٢ .
(٨٦) يبدو أن كتاب « محاسن الكلام » لايؤنس الحر ولا يسلي العاقل .
(٨٧) ترجمان البلاغة ص٧ .

وضع الجواهر وغيرها في الذهب . ومعناه في أبواب البلاغة أن يقسم الكاتب أو الشاعر عباراته الى أقسام منفصلة ثم يجعل كل لفظ منها في مقابل لفظ آخر يتفق معه في الوزن وحروف الروي»[٨٨] . ولايخرج كلام هذين الفارسيين عما عرفته بلاغة العرب ، وقد قال قدامة بن جعفر عن الترصيع : « هو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف كمايوجد ذلك في أشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم وفي أشعار المحدثين المحسنين منهم »[٨٩] . فالفرس نهلوا من هذا المعين وذهبوا هذا المذهب ، ومثلما أقرّ قدامة بكثرة هذا الفن في شعر القدماء برهن الوطواط على أنه فن عربي قديم حينما ذكر أمثلة من كتاب الله وكلام النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأدب فصحاء العرب أي أن هذا الفن البديعي ليس فارسياً وانما هو عربي أصيل .

وفي « ترجمان البلاغة » أمثلة عربية ، ومن ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكلام بعض العرب[٩٠] وأبيات لمسلم بن الوليد وأبي نواس والبحتري[٩١] ، وفيه نقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدي لمصطلح « المطابقة » ودلالته على المتضاد[٩٢] ، وهو ماذكره الوطواط بعد ذلك أيضاً[٩٣] . وقد أثر « ترجمان البلاغة » في الدراسات البلاغية وكان صاحب « حدائق السحر » أول من احتذى حذو مؤلفه وذكر المصطلحات العربية والتعريفات المأخوذة من العرب ، ولكنه اختلف عنه في الاكثار من الكلام العربي فأصبح ميسراً لمن لايعرف الفارسية جيداً .

(٨٨) حدائق السحر ص٩٠ .
(٨٩) نقد الشعر ص٣٨ .
(٩٠) ينظر ترجمان البلاغة ص١١٩ ـ ١٢٧ .
(٩١) ترجمان البلاغة ص١٩ ، ١٠٧ ـ ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٥ ـ ١١٨ .
(٩٢) ترجمان البلاغة ص٣١ .
(٩٣) حدائق السحر ص١١٩ .

ومن مؤلفي البلاغـة الفارسية محمد بن محمد بن عبد الجليـل المعروف برشيد الدين الوطواط الذي ينتهي نسبه الى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ولذلك قيل له « العمري » . ولد في بلخ ومـات بخوارزم سنة ٥٧٣هـ[٩٤]. وذكر دولتشاه وأمين احمد رازي انه مات سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م) ولكن الأرجح ما ذكره ياقوت والسيوطي[٩٥].

ورشيد الدين الوطواط اديب بالعربية والفارسية قال ياقوت: « كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه في النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب. طار في الآفاق صيته، وسار في الاقاليم ذكره، وكان ينشيء في حالةواحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحـر آخـر ويمليهما معا »[٩٦]. وله رسائل وعـدة كتب ولكن « حدائق السحر في دقائق الشعر » أشهر كتبه ، وقد ألفه لابي المظفر خوارزم شاه.وعارض به كتاب « ترجمان البلاغة » . وقد رجـح الباحث الايراني عباس إقبال ان الوطواط ألف كتابه بين سنتي ٥٥١ و ٥٦٨هـ ، وهو من كتب البلاغة المبكرة في الفارسية وكان يظن قبل العثور على « ترجمان البلاغة » أنه أول كتاب وصل الى الفرس بلغتهم[٩٧] ، وقال عنه المستشرق براون : « هـو كتاب شهير جداً في البلاغة الفارسية في الشعر الفارسي »[٩٨]. وقد نشره بالفارسية عباس إقبال وقدّم له بمقدمات طويلـة تعرّض فيها لحياة الوطـواط ومؤلفاته ومنزلته في الشعر العربي والشعر الفارسي وطبعه في طهران سنة ١٣٠٨ الهجرية الشمسية ، وطبع مع ديوان الوطواط نقلاً عن طبعة إقبال . ونقله الى العربية الدكتور ابراهيم امين الشواربي وطبعه سنة ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) وبذلك قدّم

(٩٤) معجم الادباء ج٧ ص٩١ ، بغية الوعـاة ج١ ص٢٢٦ ، كشف الظنون ج١ ص٦٣٤ .

(٩٥) تاريخ الأدب في ايران ص٤١٨ ، حدائق السحر ص٤ .

(٩٦) معجم الادباء ج٧ ص٩١ .

(٩٧) حدائق السحر ص(ك) .

(٩٨) تاريخ الأدب في ايران ص٤١٧ .

خدمة جليلة للغة العربية لانه متأثر كل التأثر بكتب البديع العربية وهو الى جانب ذلك « دراسة مقارنة للبلاغتين العربية والفارسية نستطيع ان نعلم بواسطتها الى أي مدى تأثر علم البديع الفارسي زميله العربي فكان حاله في ذلك حال طائفة أخرى كبيرة من شعب العلوم الفارسية التي نشأت أولاً على غرار علوم العربية »[٩٩].

بدأ الوطواط كتابه بمقدمة موجزة استهلها بالعربية بقوله : « الحمد لله على ما أفاض علينا من نعمه المترعة الحياض ومنه الممرعة الرياض ، والصلاة على خاتم أنبيائه وسيد أصفيائه محمد وآله الابرار وصحبه الأخيار » . وختمها بقوله : « والمطلوب من الله — عز وجل — أن يعصمنا من الخطأ والزلل والخطل في القول والعمل ، انه الموفق للسداد والميسر للمراد » . ثم بدأ بفنون البلاغة وأولها « الترصيع » وأخذ يعرضها واحداً واحداً كما فعل ابن المعتز في « البديع » واسامة بن منقذ في « البديع في نقد الشعر » والرادوياني في « ترجمان البلاغة » . أي أن الوطواط لم يبحث البلاغة كما بحثها المتأخرون لان التقسيم الثلاثي لم يكن معروفاً في القرن السادس للهجرة ، ولذلك رتب الفنون كأوائل البلاغيين . وقد استهل كتابه بالترصيع والترصيع مع التجنيس والتجنيس وانتهى بحسن التعليل ، وهذه من فنون علم البديع عند المتأخرين . ولم يتعرض للاساليب البلاغية المعروفة في علم المعاني كالتقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والقصر ، والفصل والوصل ، والخبر والانشاء ، والايجاز والاطناب . وقد قال الاستاذ عباس إقبال إنه « اتبع في تأليفه اسلوباً جديداً أخرجه عن أن يكون تقليداً لأي كتاب عربي أو فارسي »[١٠٠] . وليس الأمر كذلك لسببين :

الأول : ان البلاغيين العرب سبقوه في هذ المنهج او الاسلوب .

الثاني : ان صاحب « ترجمان البلاغة » تقدمه ورتب فنون البلاغة كترتيبه

---

(٩٩) حدائق السحر ص(ك) . (١٠٠) حدائق السحر ص٧٠ .

ولذلك لم يكن منهج الوطواط بدعاً بل كان موضع مؤاخذة من المستشرق براون الذي قال انه « في بعض المواضع لم يحسن التنظيم والترتيب »[١٠١] ولذلك لم يتخذه دليلاً عند كلامه على البديع في الأدب الفارسي •

ومنهج الوطواط العام انه يذكر المعنى اللغوي للفن أحيانا ثم يأتي بالمعنى الاصطلاحي ، ويذكر أمثلة من القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام البلغاء وعلى رأسهم الامام علي بن أبي طالب — كرّم الله وجهه — والشعر العربي وشعره بالعربية والفارسية وبعض الشعر الفارسي • وهو بذلك يشبه ابن المعتز الذي رتب شواهد « البديع » وأمثلته مثل هذا الترتيب إذ بدأ بالآيات القرآنية فالأحاديث النبوية فكلام الصحابة فالشعر العربي قديمه ومحدثه • وفاقه في أنه كان يذكر بعد كل فن مما عيب من الشعر والكلام ليعرفه الأدباء فيتجنبوه •

وطوّف الوطواط في الشعر العربي قديمه ومحدثه ، وذكر كثيراً من أشعار امرىء القيس وزهير بن أبي سلمى ولبيد والنابغة الذبياني والنابغة الجعدي وحسان بن ثابت وعوف بن محلم وجرير ومجنون ليلى والبحتري وأبي تمام والمتنبي وأبي فراس الحمداني والمعري والسري الرفاء والابيوردي والصاحب بن عباد والوأواء الدمشقي والزمخشري والحريري وغيرهم من الشعراء الذين ذكر أشعارهم علماء البلاغة العرب • وقد اعترف بالفضل للمتنبي وأبي فراس والبحتري واستشهد للأول في واحد وعشرين موضعا وقال انه برّز في « حسن التخلص »[١٠٢]، وان له يداً بيضاء وطريقة زهراء[١٠٣]. وعدّ البحتري وأبا فراس من المبرزين في السهل الممتنع[١٠٤].

لقد أولى الوطواط النص العربي أهمية كبيرة وأقام عليه فنون كتابه الذي كان سرداً للأمثلة لانه لم يقسم الموضوعات كالمتأخرين إلاّ ما جاء في بعضها

---

(١٠١) تاريخ الادب في ايران ص٣١ •
(١٠٢) حدائق السحر ص١٢٦ •
(١٠٣) حدائق السحر ص١٨٦ •
(١٠٤) حدائق السحر ص١٩٣ •

كالتجنيس والمقلوب ورد العجز على الصدر والتشبيه • وليس في التعريف أو التقسيم او الامثلة شرح أو تعليق وكأنّ الوطواط لم يطلع إلاّ على كتب البديع ككتاب ابن المعتز، أو كأنـه لم يستفد مما اطلع عليه من كتب البلاغـة وكلام السابقين، فهو يشير الى مثل ذلك كقوله في الاشتقاق : « ويعتبـره أصحاب البلاغة نوعا من التجنيس »[(١٠٥)]، وقوله في الالتفات : « تكـون هذه الصنعة كما يقول بعض أهل العلم »[(١٠٦)]، وقوله في الابداع : « قـال أرباب البيان إن هذه الصنعة عبـارة عن نظم المعانـي البديعة في ألفـاظ حسنة بعيدة عن التكلف »[(١٠٧)]، ولا نعرف غرضه من ذكر « أصحاب البلاغة » و « بعض أهل العلم » و « أرباب البيان » ولعله يقترب في ذلك من معاصره الزمخشري الذي كرر كثيراً من المصطلحات كالبيان والمعاني والبديع، ولكنه لا يريد بواحد منها المصطلح الذي تعارف عليه المتأخرون • ويبدو أن الوطواط اطلع على كتب غير البديع ولكنه لـم يستفد منها وظـل مرتبطا بكتـاب « ترجمان البلاغة » في المنهج العام.•

ومصطلحات الوطواط عربية وقد بلغت خمسة وخمسين مصطلحاً يضاف اليها ستة عشر مصطلحا تخصّ الشعر كالمدح والهجاء والنسيب أو الشعـر والنثر كالمتنافر والمتلائم والجزالة والسلاسة والسهل الممتنع • وكان يذكر أحيانا عند تعريف الفن اسمه بالفارسية كالتضاد وهو « آخشيج » والمـدح الموجّه، وهو « پارسي موجّه دو روِيه باشد » والموشح وهـو « بربند » والمربـع، وهو « چهارسو » واللغـز، وهو « چيستان » والهجـاء، وهو « نفرين »[(١٠٨)]، ولا يؤثر ذلك في المصطلح عند الوطواط لان الاسماء الفارسية جاءت في التعريف أيضا، وبذلك يمكن القول ان«حدائق السحر»عربي المصطلح

(١٠٥) حدائق السحر ص١٠٣ •
(١٠٦) حدائق السحر ص١٣٤ •
(١٠٧) حدائق السحر ص١٨٨ •
(١٠٨) حدائق السحر ص١١٧، ١٣١، ١٦٠ — ١٦١، ١٧٢، ١٩٠ •

وإن قال الباحث الايراني عباس اقبال « إن شعراء الفرس ــ كما يستفاد من كتاب حدائــق السحر ــ وضعــوا مصطلحات من عندهــم لبعض الصناعــات البديعية في مقابل الاصطلاحات العربية فمثلاً أسموا « رد العجــز علــى الصــدر » بالمطابق أو المصــدّر ، كما أسموا اللغــز في لغتهــم بكلمة « چيستان » واهتمــوا اهتماما خاصاً بصناعــة السؤال والجــواب ، وكانوا يتبعون نظاما خاصا في التقسيم والتسميط »[١٠٩]. ولا يغير ذلك من الحقيقة شيئا فالمطابق أو المصدّر هو رد العجز على الصدر وقد سماه البلاغيــون العرب « التصديــر » أيضا ابتعاداً عما يوحيــه مصطلح ابن المعتــز من معنى الصــدر والعجــز .

أما في تعريفاته فانــه لايبتعد عن العرب كثــيراً فهو في ردّ العجز على الصدر يقول : « وتكون هذه الصنعة بأن يذكر الكاتب أو الشاعر في أول كلامه المنثور أو بيته المنظوم لفظة معيّنة ، ثم يذكرها ثانية في آخر العبارة أو البيت وهذه الصنعة على ستة أنواع »[١١٠] . وهذا ما قاله البلاغيــون العرب بل هو احتذاء لابن المعتز الذي قسمه ثلاثة أقسام وذكر له امثلة أخذ الوطواط بعضها كقول الشاعر :

سريع الى ابــن العم يلطم خــدّه وليس الــى داعي الندى بسريع[١١١]

ونقل بعض ما استشهد به ابن المعتز من كلام الله كقوله تعالى : «ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » وقــوله : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا بــه يستهزئون »[١١٢] . وبعض كلام النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مثــل : « من مقت نفسه فقد آمنه الله من مقته »[١١٣] .

(١٠٩) حدائق السحر ص٦٨ ــ ٦٩ . (١١٠) حدائق السحر ص١١٠ .

(١١١) البديع ص٤٨ ، حدائق السحر ص١١٠ .

(١١٢) البديع ص٤٨ ، حدائق السحر ص١١٥ .

(١١٣) البديع ص٤٨ ، حدائق السحر ص١١٥ .

ويتضح أنّ رشيدالدين الوطواط سار على منهج المتقدمين في عرض فنون البلاغة ، وهو يقترب في ذلك من ابن المعتز في بديعه ، وإن ذكر فنونا لم تكن مدروسة في القرن الثالث للهجرة وانما درست بعده بقليل في « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر و « البرهان في وجوه البيان » لمعاصره ابن وهب و « كتاب الصناعتين » لأبي هـلال العسكري وغيرهـا من الكتب التي ظهرت في القرن الرابع وما بعده . ولذلك يمكن القول إن البلاغة الفارسية أخذت من بلاغة العرب وانها احتذتها في المصطلحات والتعريفات والأمثلة . وقد كان « حدائق السحر » إيذانا باهتمام الفرس بالبلاغة ، ولذلك انتشر وذاع صيته وظهرت كتب تنحو نحوه منذ منتصف القرن السابع للهجرة ، وظهر « جملة من الشعراء قضوا أعمارهم في انشاء البديعيات والقصائد المصنوعة والملونـة »[١١٤] وهذا يدل على أن الصنعـة عند الفـرس لـم تكـن قديمة أخذهـا العـرب منهم حينما كتبـوا في البديع ، وانمـا ظهرت الصنعة فـي عهـد متأخـر .

ان « ترجمان البلاغة » و « حدائق السحر » بداية البحث البلاغي عند الفرس أي هما وليدا الفكر العربي بعد الاسلام وليس كما ذهب اليه بعض الباحثين من أن العرب تأثروا بالزخرفة القولية والبديع الفارسي . ويتضح بالموازنـة بين الكتابـين وكتب البلاغة العربيـة أنهما ينبعان من المعين العربي وانهما يتفقان في أسس أهمها :

١ ــ انهما لم يقسما البلاغة الى علومها الثلاثة ــ المعاني والبيان والبديـع لان هذا التقسيم حادث بعد القرن السادس على يد السكاكي المتوفى سنـة ٦٢٦هـ .

٢ ــ انهما رتبا فنون البلاغة كترتيب ابن المعتز في بديعه ، ولاسيمـا القسم الثاني منه الخاص بمحاسن الكلام . أي انهما جاءا بالفنون واحـداً بعد واحد من غير ترتيب خاص .

(١١٤) حدائق السحر ص٧٤ .

٣ ـ انهما ذكرا المصطلح العربي ووضعاه عنوانا لكل فن ، فالترصيع والتجنيس والسجع والاستعارة والتشبيه وتأكيد المدح بما يشبه الذم ومراعاة النظير والاعنات وتجاهل العارف وحسن التعليل وغيرها هي أساس الكتابين .

٤ ـ انهما عرّفا الفن وذكرا أمثلته من غير تقسيم عقلي دقيق أو شرح وتعليل ، وبذلك اقتربا من ابن المعتز الذي لم يفعل اكثر من ذلك إلا ما جاء من فصل الأمثلة الحسنة عن الرديئة أو القبيحة .

واختلف المؤلفان في بعض المسائل منها :

١ ـ ان صاحب « ترجمان البلاغة » ذكر ثلاثة وسبعين فناً من غير ما ينقسم بعضها الى أقسام ، وذكر الوطواط خمسة وخمسين فنا من غير الالفاظ والمصطلحات التي ذكرها في آخر الكتاب وهي ستة عشر لونا .

٢ ـ انهما اختلفا قليلاً في ترتيب الفنون ، فهما يبدءان بالترصيع والترصيع مع التجنيس والتجنيس ، ثم يبدأ بعض الاختلاف فيكون عند الاول : المقلوب والمقتضب والمضارعة والمطابقة والمتضاد والاعنات واعنات القرينة والاستعارة والتشبيه وحسن المطالع وحسن المخالص وحسن المقاطع الى آخر ذلك . ويكون عند الثاني بعد التجنيس : الاشتقاق والاسجاع والمقلوبات ورد العجز على الصدر والمتضاد والاعنات وتضمين المزدوج والاستعارة وحسن المطلع وحسن التخلص وحسن المقطع وحسن الطلب ومراعاة النظير الى آخر ذلك . وليس في هذا الاختلاف اليسير ما يغيّر شيئا من طريقة المؤلفين لانهما لم يتخذا منهجا دقيقا كما فعل قدامة بن جعفر وأبو هلال العسكري وغيرهما ممن تلا ابن المعتز وسبقا الفارسيين .

٣ ـ انهما اختلفا بعض الاختلاف في تسمية بعض المصطلحات وان كانت عربية ، فالمقتضب هو الاشتقاق او الاقتضاب ، وحسن المطالع

والمقاطع والمخالص هي حسن المطلع والمقطع والتخلص . وهذا الاختلاف لايؤدي الى تفاوت كبير بين المؤلفين ، وكان البلاغيون العرب قد اختلفوا قبلهما وبعدهما في اطلاق المصطلحات ولكنها كانت تدل على فنون معينة استقرت في كتب المتأخرين .

٤ ـ انهما اختلفا قليلاً في بعض أقسام الفنون فصاحب « ترجمان البلاغة » قسّم التجنيس الى المطلق والمركب والمردود والزائد ، وقسّمه الوطواط الى التام والناقص والزائد والمركب والمكرر والمطرف وتجنيس الخط . وقسم الأول التشبيه الى المكني والمرجوع عنه والشرطي والمعكوس والمزدوج ، وقسمه الثاني الى المطلق والمشروط والكناية والتسوية والعكس والاضمار والتفضيل . وليس في ذلك اختلاف كبير إذا قارنا الى دلالة كل قسم .

٥ ـ إن معظم أمثلة الرادوياني فارسية ومعظم أمثلة الوطواط عربية ، ولذلك جاء كتاب الثاني أقرب الى الروح العربية . ولعل سبب ذلك ان الوطواط كان أديبا بالعربية والفارسية وانه كان أكثر التصاقاً بكتب البلاغة العربية وتمثّل أساليبها والتأثر بفنونها ، ولذلك انتقد كتاب الأول وقال إنّ شواهده « غير مستطابة وانها جميعها متكلفة النظم قد جمعت بطريق التعسف » وانها « لاتخلو من انواع الزلل وأصناف الخلل » . وقد يكون ذلك سر ابتعاد الادباء عن « ترجمان البلاغة » ونسيان صاحبه ، واقترابهم من « حدائق السحر » والاشادة بمؤلفه . وقد عرف العرب رشيدالدين الوطواط وكان شعره ونثره العربيان أمثلة ترددت في كتبهم المتأخرة ، وتأثر به فخرالدين الرازي (ـ ٦٠٦هـ) ونقل بعض كلامه وامثلته ، وفعل مثله السكاكي (ـ ٦٢٦هـ) والخطيب القزويني (ـ ٧٣٩هـ) وشراح التلخيص [١١٥] . ويدل ذلك على أن الكتب العربية كانت تعدّ المؤلفات

---

(١١٥) ينظر البلاغة عند السكاكي ص٢٤٢ وما بعدها .

الفارسية وليدها ، وأنها لم تتحرج من الرجوع اليها ما دامت تغرف من نبع عربي أصيل • ولعل الباحث بعد ذلك يرى أن علم البلاغة عند الفرس نشأ في كنف البلاغة العربية ولم يكن فناً معروفاً قبـــل أن تستظل ايران بظل الاســلام وتتخذ العربية لغة للتعبير ومنهجا تسير عليه في مؤلفاتها وتدوين علومها ، ويجد الذين يذهبون الى غير ذلك قد أضلتهم بعض الدراســات ، فالدكتور طه حسين لم يكتف بما ذهب اليه من أن البيان العـــربي وثيق الصلة بالبيان اليوناني وانما حثّ تلميذه الدكتور زكي مبارك على الرجـــوع الى تاريخ الآداب الفارسية ليعرف من هم الكتّاب الذين أوحوا الى كتاب العربية فنون البديـــع • وجاء الردّ من المستشرقين والفرس واعترفوا بأن البلاغة الفارسية نشأت بعد الاسلام متأثرة بالبلاغة العربية ، وان فنون البديع لــم تعرف عندهم إلاّ في عهد متأخر •

تلك وقفة على أثر البلاغة العربية في البلاغة الفارسية ، وهو موضوع شُغلنا به طويلا وكنا نرى أن المتعمق بالفارسية أولى منا ببحثــه والخوض في مساربه ، ولكن الأعوام مضت وخشينا أن تظل بعض الاوهــام عالقــة بأقلام بعض الباحثين فجربنا الخوض فيه على الرغم من قلة الأداة • ولعل القادرين ــ إن هداهم الله تعالى ــ والمنصفين يكملون ما بدأنا ، ويصححون ما شاع في الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية ، ويكتبون تأريخ الحضارة العربية الاسلامية في ضوء الحقيقة الناصعة والدليل المبين •

المصـــادر :

١ ـ الادب الفارسي في العصر الغزنوي ـ الدكتور علي الشابي. تونس ١٩٦٥م .
٢ ـ الادب في ظـل بني بويـه ـ الدكتور محمود غنـاوي الزهـيري . القاهرة ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩ م .
٣ ـ الادب المقارن ـ الدكتور محمد غنيمي هلال . القاهرة ١٩٦٢م .
٤ ـ الادب والسياسة منذ قيام الدولة العباسية حتى منتصف القـرن الثالث الهجري ـ الدكتور عبد الكريم توفيق العبـود . رسالة دكتوراه من كلية الآداب بجامعة بغداد سنة ١٩٧٧م . (على الآلة الكاتبة) .

٥ ــ الأغاني ــ أبو الفرج الاصفهاني ، تحقيــق عبدالكريــم ابراهيــم العزباوي ، القاهرة ١٣٩١هـ ــ ١٩٧٢م .
٦ ــ الايضاح ــ الخطيب القزويني ، القاهرة ، (مطبعة السنة المحمدية) .
٧ ــ البديع عبدالله بن المعتز ، طبعة كراتشكوفسكي ، لندن ١٩٣٥م .
٨ ــ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ــ جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م .
٩ ــ البلاغة عند السكاكي ــ الدكتور أحمد مطلوب ، بغداد ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م .
١٠ ــ البيان والتبيين ــ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٣٦٧هـ ــ ١٩٤٨م .
١١ ــ تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعـدي ــ ادوارد انفيـل براون، ترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربي القاهرة ١٣٧٣هـ ــ ١٩٥٤م.
١٢ ــ ترجمان البلاغـة ــ محمد بن عمـر الرادوياني ، تحقيــق احمـد آتش ، (باللغة الفارسية) استانبول ــ تركية ١٩٤٩م .
١٣ ــ حدائق السحر في دقائق الشعر ــ رشيدالدين محمد العمري الوطواط، ترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربي ، القاهرة ١٣٦٤هـ ــ ١٩٤٥م .
١٤ ــ حدائق السحر في دقائق الشعر ــ رشيد الدين محمد العمري الوطواط ، (باللغة الفارسية) طهران ١٣٣٩هـ .
١٥ ــ الحياة العاطفية بـين العذرية والصوفية ــ الدكتـور محمد غنيمي هلال ، القاهرة ١٩٧٦م .
١٦ ــ دلائل الاعجاز ــ عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمد رشيد رضا ، الطبعة الخامسة ــ القاهرة ١٣٧٢هـ .
١٧ ــ ديوان أبي تمام بشـرح الخطيب التبريزي ، تحقيــق محمد عبده عزام ، دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٤م .
١٨ ــ رسائل البلغاء ــ محمد كرد علي ، الطبعة الرابعة ــ القاهـرة ١٣٧٤هـ ــ ١٩٥٤م .
١٩ ــ رسائل الجاحظ ــ تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م.
٢٠ ــ الصاحبي ــ احمد بن فارس ، تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي ، بيروت ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٤م .
٢١ ــ صبح الاعشى في صناعة الانشا ــ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، القاهرة ١٩٦٣ (عن طبعة دار الكتب المصرية) .

٢٢ ــ ضحى الاسلام ــ احمد امين . الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٣٥٢هـ ــ ١٩٣٤م .
٢٣ ــ ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد ــ الدكتور محمد زغلول سلام القاهرة ــ الطبعة الاولى .
٢٤ ــ فجر الاسلام ــ احمد امين . الطبعة الثالثة ــ القاهرة ١٣٥٤هـ ــ ١٩٣٥م .
٢٥ ــ فنون بلاغية ــ الدكتور احمد مطلوب . بيروت ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م
٢٦ ــ الفهرست ــ أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب المعروف بابن النديم . تحقيق رضا تجدد . طهران ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١م .
٢٧ ــ قصة الأدب في العالم ــ احمد امين وزكي نجيب محمود . القاهرة ١٩٤٣م .
٢٨ ــ قصة الحضارة ــ ول ديوارنت . ترجمة محمد بدران . القاهرة .
٢٩ ــ القصة في الأدب الفارسي ــ الدكتور امين عبد المجيد بدوي . القاهرة ١٩٦٤م .
٣٠ ــ كتاب الصناعتين ــ أبو هلال العسكري . تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م .
٣١ ــ كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ــ الحاج خليفة . منشورات مكتبة المثنى ببغداد (بالاوفسيت) .
٣٢ ــ مصطلحات بلاغية ــ الدكتور احمد مطلوب بغداد ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م .
٣٣ ــ مظاهر تأثير اللغة العربية في اللغة الفارسية . الدكتور حسين علي محفوظ . (بحث قدم الى ندوة الاضطهاد اللغوي في الاحواز التي عقدت ببغداد بين ٩ ــ ١١ كانون الثاني سنة ١٩٨٢م) .
٣٤ ــ معجم الادباء ــ ياقوت الحموي . طبعة مرغليوث الثانية . القاهرة ١٩٢٣م .
٣٥ ــ المعجم الأدبي ــ الدكتور جبور عبدالنور . بيروت ١٩٧٩م .
٣٦ ــ مقدمة ابن خلدون ــ عبدالرحمن بن خلدون المغربي . دار الكشاف ــ بيروت .
٣٧ ــ مناهج بلاغية ــ الدكتور احمد مطلوب . بيروت ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م .
٣٨ ــ موقف العجم من لغة العرب ــ الدكتور احمد ناجي القيسي . (بحث قدم الى ندوة الاضطهاد اللغوي في الاحواز التي عقدت ببغداد بين ٩ ــ ١١ كانون الثاني سنة ١٩٨٢م) .

٣٩ ـ النثر الفني في القرن الرابع ـ الدكتور زكي مبارك . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م .
٤٠ ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر . تحقيق كمال مصطفى . القاهرة ١٩٦٣م .
٤١ ـ نقد النثر ـ المنسوب الى قدامة بن جعفر . تحقيق الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادي . الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٣٨م .

* * *

(١١)

البلاغة عند السيوطي

(١)

كان منهج السكاكي (ــ ٦٢٦هـ) آخر ما تلقفه المؤلفون في البلاغة، وقد لخص القسم الثالث من كتابه «مفتاح العلوم» وشرح كثيراً. وسيطر على الدرس البلاغي حتى هذه الايام. وكان عبدالرحمن جلال الدين السيوطي (ــ ٩١١هـ) ممن أسهم في الدرس البلاغي في القرن التاسع للهجرة، ووضع عدة كتب في البلاغة منها: نكت على التلخيص سماه «الافصاح» و«عقود الجمان في علم المعاني والبيان» وشرحه، و«شرح أبيات تلخيص المفتاح» ومختصره، و«نكت على حاشية المطول» للفنري، و«حاشية على المختصر»، والبديعية المسماة «نظم البديع في مدح خير شفيع» وشرحها و«اللطائف المصاغة في الفصاحة والبلاغة»، و«الجمع والتفريق في أنواع البديع» و«النقاية» وشرحها «اتمام الدراية لقراء النقاية»، و«جنى الجناس». وتحدث عن البلاغة في كتبه الاخرى ككتاب «التحبير في علوم التفسير» و«معترك الاقران في إعجاز القرآن» و«الاتقان في علوم القرآن» و«المزهر في علوم اللغة وأنواعها»[(١)]. وتمثل هذه الكتب منهجين مختلفين في دراسة البلاغة:

* كان السيوطي من أواخر الذين جمعوا بين الذوق والقاعدة في البلاغة، وقد شاركت في مؤتمر السيوطي الذي عقدته جامعة مؤتة بالاردن، وقدمت هذا البحث فيه صباح الثلاثاء الخامس من تشرين الاول ١٩٩٣م الموافق للتاسع عشر من ربيع الثاني ١٤١٤هـ.
وأنا أنشره في هذا الكتاب تتمة للبحوث البلاغية.

١. ينظر القزويني وشروح التلخيص ص ٦٠٣ وما بعدها ومناهج بلاغية ص ٣١٢، ٣٤١، وتنظر كتبه البلاغية في السيوطي النحوي ص ١٢٨ وجلال الدين السيوطي ص ٢٦٤ ومابعدها.

الاول : دراسة البلاغة في كتب علوم القرآن وإعجازه من غير تقسيمها الى علومها الثلاثة المعروفة .

الآخر : دراسة البلاغة من خلال منهج السكاكي الذي أرساه الخطيب القزويني (ــ ٧٣٩هـ) بتلخيصه للقسم الثالث من «مفتاح العلوم» وبشرحه الذي سماه «الايضاح» ، وهو منهج يقسم البلاغة الى ثلاثة علوم : المعاني ، والبيان ، والبديع .

وقد اعطى الدكتور محمد علي رزق الخفاجي تصوراً لجهد السيوطي في البلاغة فقال : إنّ خطواته «تتدرج من الاعم الى الاخص . فقد بدأ بالاعجاز القرآني ، واتجه الى الاعجاز البلاغي ، ثم الى البلاغة بعلومها الثلاثة، ثم اتجه الى البديع ، وأخيرا ينتهي به المطاف في البحث البلاغي الى القول في لون واحد من ألوان البديع» . ثم قال بعد أن ذكر بعض كتب السيوطي التي تعرضت للبلاغة : «ومعنى هذا أنَّ السيوطي تدرجت جهوده البلاغية من الاعجاز البلاغي للقرآن ، ثم الى تناول علوم البلاغة ثم انتقل الى علم البديع ، ثم انتهى به المطاف الى التخصص الدقيق عندما تناول فنا بديعيا واحدا وألف فيه كتابا هو «جنى الجناس»[٢]» . والنظر في تاريخ الانتهاء من بعض كتبه يؤيد ما ذهب اليه الباحث ويرسم صورة للتدرج في الدرس البلاغي ، ولعل كتاب «التحبير في علم التفسير» من أقدم الكتب التي تعرض السيوطي فيها للبلاغة ، اذ ذكره في «الاتقان»[٣] ، وذكر بعض موضوعات البلاغة وهي : المجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والكناية والتعريض ، والايجاز والاطناب والمساواة ، والفصل والوصل ، والقصر ، والاحتباك ، والقول بالموجب ، والمطابقة والمجانسة ، والتورية والاستخدام، واللف والنشر ، والالتفات . وقد انتهى من تأليفه سنة اثنتين وسبعين

٢. مقدمة جنى الجناس ص ٩ـ١٠ .
٣. الاتقان في علوم القرآن ج١ ص ٤ـ٥ .

وثمانمائة ، وكتبه من هو في طبقة أشياخه من أولي التحقيق[٤] • وألف كتاب «معترك الاقران» قبل تأليفه « الاتقان » الذي ورد فيه اسم الكتاب ، قال في النوع التاسع والثلاثين ، وهو معرفة الوجوه والنظائر : « وقد أفردت في هذا الفن كتابا سميته معترك الاقران في مشترك القرآن »[٥] ، ونحا في هذا الكتاب منحى كتاب «التحبير» ، أي أنه تحدث عن موضوعات البلاغة عند كلامه على وجوه الاعجاز الخمسة والثلاثين والموضوعات التي تطرق اليها هي : الحقيقة والمجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والتعريض ، والايجاز والاطناب ، والبديع ، والخبر والانشاء •

والسيوطي في هذا الكتاب وفي « التحبير » لم يقسم البلاغة الى علومها الثلاثة وانما تعرض لها بوصفها أنواعا من علوم القرآن أو وجوها من وجوه إعجازه ، ولكنه لم يخرج في معالجة الموضوعات عن التراث البلاغي الذي وصل اليه ، ويكاد كلامه يكون اعادة لما ذكره السكاكي والقزويني وشراح التلخيص ، فهو في نوع التشبيه ـ مثلا ـ يعرفه كما عرفه السكاكي باعتبار طرفيه ، وباعتبار وجهه ، وباعتبار الاداة[٦] • ونهج في « الاتقان » نهجه في « معترك الاقران » وقد عدّ فنون البلاغة من علوم القرآن وتحدث عنها من غير أن يقسمها الى علومها الثلاثة • وتبدأ مباحث البلاغة من النوع الثاني والخمسين وهي : الحقيقة والمجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والكناية والتعريض ، والحصر والاختصاص ، والايجاز والاطناب ، والخبر والانشاء ، والبديع • وهذه هي الموضوعات التي عالجها في « معترك الاقران » •

ويلاحظ انه بدأ في الكتابين بموضوعات علم البيان ، ثم قفاها بموضوعات علم المعاني ، ثم بموضوعات علم البديع الذي لم يقسمه الى

٤. الاتقان ج١ ص ٥ .
٥. الاتقان ج١ ص ١٤٢ .
٦. ينظر معترك الاقران في اعجاز القرآن ج١ ص ٢٦٩ وما بعدها .

محسنات لفظية ومعنوية ، وإنْ اشار الى أنَّ التجنيس أو الجناس « من المحاسن اللفظية لا المعنوية »[٧] وهذا تقسيم معروف في الدرس البلاغي • وقد أخذ به السيوطي في كتبه التي اتخذ فيها منهج السكاكي سبيلا • ولم يتحدث عن السجع في نوع البديع :، وانما تكلم عليه في النوع التاسع والخمسين ، وهو فواصل الآي ، وألحق به نوعين بديعيين همــا : التشريع أو التــوأم ، ولــزوم ما لايلزم •

وبحث فــي كتاب « المزهر » الفصاحة ، والحــذف والاختصــار ، والمجاز ، والاستعارة ، والجناس الذي سماه « المشتــــرك » وأدخل فيه الاضداد[٨] • وليس للسيوطــي في هذه المباحث سوى الجمع والتــرتيب وتلخيص أقوال السابقين ، فهو في الحقيقة والمجاز ــ مثلا ــ لــم يخــرج عما ذكره أحمد بن فارس في فقه اللغة ، وابن جنــي فــي الخصائص ، وفخرالدين الرازي في نهاية الايجاز[٩] ، ولم يخرج عما ذكر القزويني في التلخيص والايضاح ، ونقل آراء المتقدمين • لقد جاءت موضوعات البلاغة في هذه الكتب خدمة للقرآن الكريم ، ولفقه اللغة ، ولذلك لم يقسمها كما قسمها السكاكي والقزويني ومن جاء بعدهما من الملخصين والشراح • ولكنه اتخذ من منهج السكاكي سبيلا في كتبه التي خصصها للبلاغة ، ولذلك جاءت صورة لما استقر في عهده • ولعل كتاب « النقاية » ــ الذي لم يخلص للبلاغة لانه تضمن أربعة عشر علما ــ أوضح شاهد على تحول السيوطي الى منهج السكاكي إذ خصص ثلاثة علوم منه للمعاني والبيان والبديــع ، وجاء كلامه عليها وعلى العلوم الاخرى مقتضبا ، فشرحه بكتاب « إتمام الــدراية لقراء النقاية» الذي فرغ من تأليفه يوم الثلاثاء ثالث ربيع الاول سنة ثلاث وسبعين

٠٧ الاتقان ج٢ ص ٩١ ، وينظر معترك الاقران ج١ ص ٤٠٢ •

٠٨ ينظر المزهر ج١ ص ٣٦٩ ، ٣٨٧ •

٠٩ ينظر المزهر ج١ ص٣٥٥

وثمانمائة للهجرة[١٠] . وهو في هذين الكتابين يتجــه اتجـاه السكاكي والقزويني في التقسيم والعرض والامثلة .

وسار على المنهج نفسه في كتبه البلاغية ، وظم ارجوزة في ألف بيت ، تضمنت تلخيص القزويني وسماها « عقود الجمان » . قال في أولها :ـ

قـال الفقـير عابـد الرحـمـن	الحمـد لله علـى البيــــــان
وأفضـل الصـلاة والسـلام	علـى النبــي أفصـح الأنـام
وهذه أرجـوزة مثل الجمـان	ضمنتها علـم المعانـي والبيـان
لخصت فيها ماحوى التلخيص مع	ضم زيـادات كأمثـال اللمــع
ما بـين اصـلاح لـما ينتقـد	وذكـر أشياء لهـا يعتمـد
وضـم ما فرقـــه للمشبـه	والله ربـي أسأل النفــع بــه
وأن يزكـي عملـي ويعرضـا	عن سوئه وان ينيلنـا الرضـا[١١]

وانتهى من نظمها يوم الاحد سلخ جمادى الثانية سنة اثنتين وسبعـين وثمانمائة للهجرة ، وقد اشار الى ذلك فقـال :

وتم ذا النظـم بتيسير الاحــد	سلخ جمادى الثاني في يوم الاحد
من عـام ثنتـين وسبعين التي	بعــد ثمانمائـــة للهجـــــرة
في ألف بيت كالنجـــوم تزهر	وكالريــاض فاح منهـا الزهـر
أرجـوزة فريدة فـي أهلهـــا	اذ لم يكـن في فنها كمثلها[١٢]

ورتب علـوم البلاغـة وموضوعاتها كما رتبهـا القزويني في تلخيصه وايضاحه ، فبدأ بالفصاحة والبلاغة ، ثم أخذ يعرض موضوعات علوم البلاغة

---

١٠. اتمام الدراية لقراء النقاية ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

١١. شـرح عقـود الجمـان ص٢ . ١٢. المصدر نفسه ص ١٧٦ .

الثلاثة المعروفة . ورأى ان الارجوزة تحتاج الى شرح فوضع « شرح عقود الجمان » الذي انتهى من تأليفه يوم الاحد خامس ربيع الاول سنة خمس وسبعين وثمانمائة[١٣] ، وقال في شرح أبياتها الاولى : « حاصل هذه الابيات ان هذه الارجوزة حاوية لما في تلخيص المفتاح مع تلخيص في العبارة ، وترك كثير من الامثلة والتعاليل ، معوضا عنها زيادات حسنة ، بعضها اعتراض عليه، وبعضها ليس كذلك ، وفيه أبحاث تلقفناها عن شيخنا الامام محيي الدين الكافيجي ، وهو المراد حيث أطلق فيها ، وربما قدمت وأخرت للمناسبة . ثم من الزيادات ما هو مميز بقلت ومنه ما ليس كذلك فأميزه هنا»[١٤] .

ويتضح في هذا النص :

١. ان الارجوزة تضم ما في تلخيص القزويني .
٢. ان فيها تلخيصا في العبارة .
٣. ان فيا تركا لكثير من الامثلة والتعليلات .
٤. أن فيها زيادات حسنة .
٥. أن فيها بحوثا تلقفها عن شيخه الكافيجي .

وهذا ما يميزها عن كتاب « التلخيص » ويجعلها أكثر يسرا ، وأقرب الى النفوس ، ولا سيما شرحها الذي امتاز بالسهولة والوضوح . وقد شملت زيادات السيوطي على القزويني معظم موضوعات البلاغة فهو في بيتيه :

يوصف بالفصاحة المركب ومفرد ومنشيء مرتب
وغير ثان صفة بالبلاغه ومثلها في ذلك البراعه

يقول : « والبراعة مثل البلاغة فيقال متكلم بارع وكلام بارع ، ولايقال: كلمة بارعة وقد حدها القاضي أبو بكر في الانتصار بما يقرب من حد البلاغة

١٣. المصدر نفسه ص ١٧٦ .
١٤. المصدر نفسه ص٣ .

وأهملها الجمهور وذكرها هنا من زوائدي»[١٥] وهو في بيته :

محتمـل للصدق والكذب الخبر وغـيره الإنشا ولا ثالـث قـر

يقول : « هذا البيت من زيادتي ، الا ان في التلخيص إشارة اليه في بيان وجه الحصر ، وحاصله أن الكلام إما خبر أو انشاء لا ثالث لهما»[١٦] ، وكان القزويني قد قال : « لان الكلام إما خبر أو انشـاء لانه إن كان لنسبته خارج تطابقه اولا تطابقه فخبر ، وإلا فانشاء »[١٧] .

وهو فـي بيته :ــ

أو كونـه معينـا أو ادعـــي أو المقـام ضيــق أو سمعـــا

يقول : في حذف المسند اليه : « ومنها ضيق المقام وهو من زيادتـــي وذكره في الايضاح ومثله الطيبي في التبيان»[١٨] . وتتضح زيادات السيوطي في فنون البديع ، وقد أشار الى ذلك بقوله : « وذكر صاحب التلخيــص من البديع المعنوي ثلاثين نوعا ، ومن اللفظي سبعة ،وذكر في أثنائهـــا أمــوراً ملحقة بها تصلح أن تعد أنواعا أخر ،وقد زدت عليه الجم الغفير »[١٩] . ومــن ذلك : التفويف ، والسلب والايجاب ، والتغاير ، ويسمى التلطف ، والترشيح ، والتوهيم ، والتفصيل ، والتسليــم ، والجنــاس المعنوي ، والتسبيــغ ، والفرائد ، وغير ذلك من الفنون التي تبارى علماء البلاغة ــ ولا سيما اصحاب البديعيات ــ في تنويعها والاكـثـار منها .

وأطالت هذه الزيادات الارجوزة وشرحها ولولا ذلك لجاءت في أقل من ألف بيت . قال السيوطي : « وانما بلغت ذلك لما فيها من الزيادات الجمة ،

---

١٥. المصدر نفسه ص٤ .
١٦. المصدر نفسه ص٩ .
١٧. التلخيص ص ٣٨ .
١٨. شرح عقود الجمان ص١٤ . وينظر الايضاح ص٣١ ، والتبيان ص.٤٠ .
١٩. المصدر نفسه ص١٠٥ .

ولو اقتصرنا على مافي التلخيص لم تزد على النصف من ذلك إلاّ قليلا»[٢٠].

ولم يشأ السيوطي أن تخلو آثاره من بديعية يزين بها كتبه فنظم بديعية « نظم البديع في مدح خير شفيع » ، وهي مائة وأربعون بيتا مشتملة على مثلها من الأنواع ، ومطلعها :

من العقيق ومن تذكار ذي سلم براعة العين في استهلالها بدم

عارض فيها بديعية ابن حجة الحموي التي مطلعها :

لي في ابتداء مدحكم يا عرب ذي سلم براعة تستهل الدمع في العلم

وضمنها اسم النوع البديعي كما فعل الحموي قال : « فهذه بديعية مدحت فيها من وجب على الخلق امتداحه وتحلى بقلائد اوصافه الكريمة مداحه،معارضا بها بديعية الشاعر الماهرتقي الدين أبي بكر بن حجة في التورية باسم النوع البديعي ضارعا الى الله تعالى أن يمن علي بالتحلي بأجمل الاوصاف»[٢١].

وقد نظمها قبل تأليف شرح عقود الجمان ، قال : «وقولي في بديعيتي :

روض ودم وارح ردد وود وزر وازر ووال دواداء وزد ورم[٢٢]

وقبل « جنى الجناس » قال في خاتمة الجناس المعنوي : «ولم يلم أحد من أصحاب البديعيات بشيء من ذلك ،بل جروا على قطار الصفي فما أتوا بطائل ، خصوصا بيت ابن حجة فانه من أسمج البيوت ، وهو مع ما فيه من الجبل والصخر أوهى من بيت العنكبوت ، وقد تعقبه عليه البارزي ، وأما النواجي فنادى عليه مناداة اللحم السمين ، وهو معذور ، وقد كنت لم أنظمه في بديعيتي فلما انجلى هذا الانجلاء نظمته فيها فقلت :

حوى الجمال بمعناه وصورته وخاطبته الظبا والبدن بالكلم

كنيت بالبدن عن الجمال ليجانس الجمّال»[٢٣] .

---

٢٠. المصدر نفسه ص ١٧٦ .

٢١. ينظر الصبغ البديعي ص ٤٤٩ ، ومقدمة جنى الجناس ص٢١ .

٢٢. شرح عقود الجمان ص١٥٦ . ٢٣ . جنى الجناس ص٢٨١ — ٢٨٢ .

وأراد أن يفرد كتابا لنوع من أنواع البديع فألف «جنى الجناس» قال في مقدمته : « هذا كتاب ألفته في أقسام الجناس التي استخرجتها وحصرتها ولم أسبق الى ذلك ، ووصلتها الى نحو الاربعمائة قسم ، وأكثرت فيها من ايراد شواهدها القرآنية والحديثية والشعرية ، وغالب ما أوردتــه من القرآنية والحديثية انا الذي استخرجته ولم أسبق الى استخراجه ، وقد يكون فـي الشاهد الشعري عـدة جناسات فأذكره في أول مواقعـه واستغني عـن اعادته فيما بعد وسميته «جنى الجناس» وبالله أعوذ رب الناس من شر الوسواس الخناس فأقول : أصول انواع الجناس ثلاثة عشر نوعا تحت كل نـوع منها عدة أنواع »[٢٤] . وهذه الاصول هي: التام المفرد ، والتام المركب ،والمغاير، والخطي أو المصحف ، والمخالف ، والمطمع ، وتجنيس الترجيح ، والجنـاس اللفظي ، والمقارب ، والمطلق ، والمشوش ، والجناس المعنوي ، والتجنيـس المضاف . وتبدو في هذا الكتاب التقسيمات الكثيرة للجناس ، والشواهـد والامثلة الكثيرة لتلك الانواع . ولعل هذا الكتاب آخر ما ألف السيوطـي في البلاغة فقد ألفه بعد عودته من مكة المكرمة سنة تسع وستين وثمانمائة بأربعين عاما . قال وهو يتحدث عن أحد انواع الجناس التام : « وأظـن أني رأيت من ذكر هذا النوع أزيد من أربعين سنة بمكة المشرفة فـي بديعيـة غريبة ليوسف الغلاني ، ونظمت فيه اذ ذاك ، وأظنه سماه الملمع[٢٥] » وقال: « وقلت قديما وكتبهما عني الحافظ نجم‌الدين بن فهد بمكة سنة تسع وستين وثمانمائة »[٢٦] . ومعنى هذا ان السيوطـي ألـف « جنى الجنـاس » قبل موته بعام أو بعامين .

(٢)

وأهم القضايا البلاغية التي عالجها السيوطي هي إعجاز القرآن الكريـم وقد تحدث عنها السابقون « وأنهى بعضهم وجوه اعجــازه الى ثمانين ،

٢٥. جنى الجناس ص ٧٣-٧٤ . ٢٦. جنى الجناس ص ١٦٠ .
٢٤. جنى الجناس ص ٧١ .

والصواب انها لا نهاية لوجوه اعجازه »[٢٧] وذكر خمسة وثلاثين وجهـا للاعجاز ، ومنها وجوه بلاغية هي : حسن تأليفه والتئام كلمـه ، ووقوع الحقائق والمجاز فيه ، وتشبيهه واستعاراته ، والكناية والتعريض ، وايجـازه في آية وأطنابه في أخرى ، ووقوع البدائع البليغة فيه ، واحتواؤه على الخبر والانشاء ، وهذه الموضوعات بحثها في كتبه المختلفة ، فكانت انواعـا من علوم القرآن في « الاتقان » ، ووجوها من وجوه الاعجاز في « معتـرك الأقران » وعلوما لغوية في « المزهر » ، وفنونا بلاغية في كتبه الاخـرى . وقد عدّ الوجه الخامس والثلاثين — وهو الالفاظ المشتركة — مـن أعظـم وجوه الاعجاز « حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف الى عشريـن وجهـا وأكثر وأقل ، ولايوجد ذلك في كلام البشر »[٢٨] . ورتـب الالفاظ المشتركة ترتيبا معجميا ليسهل الرجوع اليها ، وشرحها كما جاءت فـي كتـاب الله ، ومثال ذلك كلامه على « شعائر الله » : « ما جعله الله علما لطاعته ، واحدتها شعيرة مثل الجرائم ، يقول : لاتحلوه . وكان المشركون يحجـون ويعتمرون فاراد المسلمون أن يغيروا عليهم فقيل لهم : لاتغيروا عليهم ولاتصدوهم وقيل: هي الحرم واحلاله الصيد فيه ، وقيل : هي ما يحرم على الحـاج من النسـاء والصيد وغير ذلك ، واحلاله فعله »[٢٩] .

ويلحق بالفنون البلاغية والالفاظ المشتركة ماتحدث عنـه فـي الوجه العشرين من وجوه إعجاز القرآن الكريم وهو « روعته وهيبته » وهذه مسألة نفسية ، قال : « الروعة التي تلحق قلوب سامعيه واسماعهم عند سماعـه ، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وابانة خطره وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورا — كما قال تعالى — ويودون انقطاعه لكراهتهم له ولذا قال عليه السلام : « إنّ القـرآن صعب مستصعب

٢٧ . معترك الاقران ج١ ص ٣ .
٢٨ . معترك الاقران ج١ ص ٥١٤ .
٢٩ . معترك الاقران ج٣ ص ٢٨٤ .

على من كرهه ، وهو الحكم » . وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته اياه مع تلاوته توليه انجذابا وتكسبه هشاشة لميل قلبه اليه وتصديقه به ، قال تعالى : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ...»[٣٠] ، الآية ، وقـال تعـالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل »[٣١] الآية . ويدل على هذا شيء خص به أنه يعتريه من لايفهم معانيه ولايعلم تفاسيره ... وهذه الروعة قد اعترف بهـا جماعة قبل الاسلام وبعده »[٣٢] . وذكر بعض الروايات التي تشـير الـى روعته وهيبته وأثرهما في القلوب . ويتصل بهذا الوجه من الاعجـاز الوجه الحادي والعشرون وهو « ان سامعه لايمجه وقارئه لايمله ، فتلذ له الاسماع ، وتشغف له القلوب ، فلا تزيده تلاوته إلاّ حلاوة ولا ترديـده إلاّ محبـة ، ولايزال غضا طريا وغيره من الكلام ــ ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغـه ــ يمل مـع الترديد ويعادى اذا أعيد لان اعادة الحديث على القلب أثقـل مـن الحديد ، وكتابنا بحمد الله يستلذ به في الخلوات ، ويؤنس بـه في الازمات ، وسواه من الكتب لايوجد فيها ذلك حتى أحدث لها أصحابها لحـونا وطربا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها ، ولهذا وصف رسـول الله ــ صى الله عليه وسلم ــ القرآن بأنه لايخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عبره ، ولا تفنى عجائبه ، وليس بالهزل ، لايشبع منه العلماء ولاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الالسنة»[٣٣] . وهذا الاثر النفسي للقرآن مما ذكره المتقدمون ، وأكدوه بروايات موثقة من ذلك تحير الوليد بن المغيرة فيما يصف به كتاب الله

٣٠. الآية ٢٣ (سورة الزمر) هي : « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الـى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلـــل الله فما له مـن هـاد » .

٣١. الآية ٢١ (سورة الحشر) هي : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتـه خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلـك الامثـال نضربها للناس لعلهـم يتفكـرون » .

٣٢. معترك الاقران ج١ ص ٢٤٢ .

٣٣. معترك الاقران ج١ ص ٢٤٤ ، وينظر الاتقان ج١ ص ١٢٣ .

وقصة اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي[34] ، وكان السكاكي قد أكد أثر القرآن النفسي ورأى أنّ إعجازه لايوصف ، قال : « واعلم ان شأن الاعجاز عجيب يدرك ولايمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولايمكن وصفها ، وكالملاحة • ومدرك الاعجاز عندي هو الذوق ليس إلاّ ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين ـــ المعاني والبيان ـــ نعم للبلاغة وجوه ملتثمة ربما تيسرت اماطة اللثام عنها لتجلى عليك . أما نفس الاعجاز فلا»[35] • وقال « وهذه أقوال أربعة يخمسها مايجده أصحاب الذوق من أن وجه الاعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة»[36] ، وهو ما نقله السيوطي ، فقال : « والصواب انه لانهاية لوجوه اعجازه كما قال السكاكي في المفتاح »[37] • ولذلك اهتموا بدراسة البلاغة لانها مما يوصل الى إدراك الاعجاز قال أبو هلال العسكري : « وقد علمنا أنّ الانسان اذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الايجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلّله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه ، وجزالتها ، وعذوبتها ، وسلاستها ، الى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها»[38] • فالسيوطي يؤمن باعجاز القرآن الكريم كما يؤمن به غيره ولكن وجوه اعجازه كثيرة ومنها ما فيه من فصاحة وبلاغة يعجز عنها الخلق ، وما فيه من ألفاظ مشتركة ، وما له من روعة وهيبة في النفوس ، ولذة في الاسماع والقلوب ، وهو ما حام حوله المعاصرون ، وحاولوا أن يوضحوا إعجاز القرآن النفسي والفني ، كما فعل سيد قطب في تفسيره للقرآن الكريم المسمى « في ظلال القرآن » وفي كتابيه « التصوير الفني

٣٤. ينظر سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧٠ ، ٣٨٢ .
٣٥. مفتاح العلوم ص ١٩٦ .
٣٦. مفتاح العلوم ص ٢٤٣ .
٣٧. معترك الاقران ج١ ص٣.
٣٨. كتاب الصناعتين ص ١.

في القرآن » ، و « مشاهد القيامة في القرآن » ، وكما فعل أمين الخولي في بحثه « البلاغة وعلم النفس » الذي تحدث فيه عن الاعجاز النفسي ، والتفسير النفسي ، وقال : « إن هذا القرآن من حيث هو فن أدبي معجز ، ثم من حيث هو هدى وبيان ديني لن يدار الامر فيه إلا على سياسة النفوس البشرية ورياضتها ، لان الفن هو نجوى الوجدان ، والدين هو حديث الاعتقاد وخطاب القلوب ، فصلته بالنفس ومناجاته للروح أوضح من أن يستدل لها أو تخص بالشرح ، وفيما مضى من رأى ـ قديم أو حديث ـ عن أثره في النفوس وحظوته لديها أقرب شاهد وأدناه»[٣٩] وفي بحثه « علم النفس الادبي » الذي تحدث فيه عن الاعجاز الفني قال : « إنَّ هذا القرآن انما يعلل إيجازه واطنابه وتوكيده واشاراته ، واجماله ،وتفصيله ، وتكراره واطالته ، وتقسيمه وتفصيله ، وترتيبه ومناسبته ، يعلل كل أولئك وما اليه بالامور النفسية لا غير »[٤٠] . وكما فعلت الدكتورة بنت الشاطىء ـ عائشة عبدالرحمن ـ في كتبها « التفسير البياني للقرآن الكريم » و « مقال في الانسان » و « الاعجاز البياني للقرآن»[٤١] .

(٣)

ولا تخلو كتب السيوطي من آراء ، ولعل أهم آرائه ما جاء في الرد على من أنكر المجاز في القرآن الكريم ، قال : « وقد أنكر قوم وقوع المجاز فيه وقالوا : انه أخو الكذب ، والقرآن منزه عنه ، وان المتكلم لايعدل اليه الا اذا ضاقت الحقيقة فيستعير ، وذلك محال على الله تعالى . وهذه شبهة باطلة ، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن ، فقد اتفق البلغاء على ان المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولو وجب خلو القرآن عن المجاز وجب خلوه من الحذف

٣٩. مناهج تجديد ص ٢٠٣ .
٤٠. مناهج تجديد ص ٢٣٠ .
٤١. ينظر بحثنا التفسير الادبي والاعجاز (كتاب اعجاز القرآن) ص ٤٧ـ٦٤ .

والتوكيد وتكنية القصص وغيرها»[٤٢] . وليس هذا رأيه لأن المتقدمين ذكروه ، ولكنه اختار هذا الرأي ، لأنه وجد في القرآن الكريم كثيرا من المجازات ، وهي لون من ألوان التعبير التي درج العرب عليها في كلامهم ، ولكنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل مجازات الكتاب العزيز .

وقسم المجاز كما قسمه عبدالقاهر والسكاكي والقزويني وغيرهم من الملخصين والشراح وهو نوعان :

الاول : المجاز في التركيب ، ويسمى مجاز الاسناد ، والمجاز العقلي .

الثاني : المجاز اللغوي ، وهو ما أطلق عليه اسم المجاز المرسل .

ولم يذكر الاستعارة فيه وهي مجاز لغوي وانما عد التشبيه والاستعارة الوجه الرابع والعشرين من وجوه الاعجاز . وكان الوجه الثالث والعشرون هو وقوع الحقائق والمجاز فيه ، وقد تحدث فيه عن المجاز العقلي والمجاز اللغوي أو المجاز المرسل ، ولكنه قال « زوّج المجاز بالتشبيه فتولد بينهما الاستعارة فهي مجاز علاقته المشابهة ، ويقال في تعريفها : « اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الاصلي » والاصح انها مجاز لغوي لانها موضوعة للمشبه به لا للمشبه ولا لأعم منهما »[٤٣] . واهتم بفنون البديع وقال إنّ : « أنواعه ـ وهي الوجوه المذكورة ـ كثيرة جدا تربو على المائتين ، وفي بديعية الصفي منها مائة وخمسون نوعا »[٤٤] ، وقال : إن «الاصل في حسن أنواع البديع اللفظية تبعية اللفظ للمعنى لا عكسه »[٤٥] وقال في خاتمة المحسنات اللفظيـــة :

وأصل حسن ما مضى أن يتبعا اللفظ معنى دون عكس وقعا

٤٢. معترك الاقران ج١ ص ٢٤٦ ، وينظر الاتقان ج٢ ص ٣٦ .
٤٣. معترك الاقران ج١ ص ٢٧٥ ، الاتقان ج٢ ص ٤٣ .
٤٤. اتمام الدراية لقراء النقاية ص ١٦١ .
٤٥. المصدر نفسه ص ١٧٢ ، وينظر شرح عقود الجمان ص ١٠٥ .

« أصل الحسن في الانواع اللفظية أن تكون الالفاظ تابعة للمعاني لا أن تكون المعاني تابعة للالفاظ ، بأن يؤتى بألفاظ متكلفة مصنوعة المعنى كما يفعله من له شغف بايراد المحسنات اللفظية فيجعل الكلام غير مسوق لافادة المعنى ، ولايبالي بخفاء الدلالة وركاكة المعاني ، فاذا تركت المعاني على سجيتها طلبت لأنفسها الفاظا تليق بها ، وعند ذلك تظهر البلاغة وتتميز الكامل من القاصر »[٤٦] وهذا ماردده المتقدمون كالجرجاني والسكاكي والقزويني وغيرهم من الملخصين والشراح • ونبه على أن بعض موضوعات المعاني وردت في البديع ، قال : « قد انتهى القول في علم المعاني ولله الحمد والمنة وفيه أمور أوردها جمع في البديع ، منهم الطيبي في التبيان ، وأصحاب البديعيات وهي : الالتفات والخطاب العام ، والتغليب ، والاسلوب الحكيم ، والايضاح بعد الابهام ، والتكرار ، والترديد والتعطف ، والترجيح ، وذكر الخاص بعد العام وعكسه ، والايغال ، والتذييل ، والتكميل ، والاحتراس ، والتتميم، والاشارة ، والبسط »[٤٧] وهو مانبه عليه السكاكي حينما بحث الالتفات في علم المعاني وقال : «ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني »[٤٨] وذكره في المحسنات المعنوية ولم يشرحه واكتفى بأن قال : « وقد سبق ذكره في علم المعاني»[٤٩] • وللسيوطي رأي في الاستخدام والتورية ، قال عن الاندلسي « صرح بأن الاستخدام أجلّ من التورية ، وأعذب وألطف ، وان كان المختار عندي أنهما سيان»[٥٠] • واهتم بالجناس من بين فنون البديع وتحدث عنه في كتبه • وهو في « عقود الجمان » يذكر قسمي الجناس الناقص ويسمي الاول المردوف « لان حرف الزيادة مردوف بما وقع فيه التجانس كقوله تعالى : « والتفت الساق بالساق • الى ربك يومئذ المساق »[٥١] والثاني

٤٦. شرح عقود الجمان ص١٥٧ • ٤٧. المصدر نفسه ص ٧٦-٧٧ •

٤٨. مفتاح العلوم ص ٩٥ •

٤٩. مفتاح العلوم ص ٢٠٢ ، وينظر البلاغة عند السكاكي ص ١٣٦ •

٥٠. شرح عقود الجمان ص ١١٢ ، وتنظر ص ١١٣ •

٥١. سورة القيامة الآيتان ٢٩ ، ٣٠ •

المكتنف « لان حرف الزيادة فيه مكتنف أي متوسط بين ما اكتنفاه كقولهم « جدي جهدي »[٥٢] وقال عن الجناس : إنه « نوع متوسط في البديع ليس كالتورية والاستخدام والطباق ونحوها ، واتفقوا على انه انما يحسن اذا قل ، فان كثر سمج وخرج الى حد النزول بخلاف التورية ونحوها ، فــان جعــل الجناس تورية ، وانحصر المعنيان في ركن واحد فقد علت رتبته وارتفعــت رتبته ، وصارت تسمى بالتورية التامة »[٥٣]. وألف كتابا خاصا بالجناس هو « جنى الجناس » فصل القول فيه وذكر انواعه المختلفة وأمثلته المتعددة وزاد في الجناس التام المفرد قسما تاسعا « وهو أن يكون الاسمان من لغتين عربية ومعربة وعاشرا : وهو أن يكون الاسم من لغة غير العرب والفعل مــن لغــة العرب » قال : « وأظن أني رأيت من ذكر هذا النوع أزيــد من أربعين سنة بمكة المشرفة في بديعية غريبة ليوسف الغلاني ، ونظمت فيه اذ ذاك وأظنه سماه الملمع »[٥٤] ومن ذلك قول أبي عِمران موسى بن محمد الطوالقي :

اذا قيل أي الناس في الارض زينة   أجبنــا وقلنا أبهــج الارض بُسْتُها

فلو أنني أدركــت يومــا عميدها   لزمت يد البستي دهري وبُسْتُهــا

قال : « قلت : هذا من لغتين ، فان البوس بمعنى التقبيل ليس من لغــة العرب ، ونظيره قولي قديما من قصيدة نبوية :

أَوَتْ اليه جميع المعتفين فلــم   يُجِب بغير أَوَتْ للعرب والعجمِ

أَوَتْ بمعنى نعم بالتركية »[٥٥] . وله فيه بعض الآراء الخاصــة مــن ذلك رأيه في الجناس التام المركب فهو عنده « أشــرف أنواع الجنــاس وأحلاها »[٥٦] . وكانت له قدرة على استقراء الشواهــد والامثلة من القرآن

---

٥٢. شرح عقود الجمان ص ١٤٥ .
٥٣. المصدر نفسه ص ١٤٨ .
٥٤. جنى الجناس ص ٧٣ .
٥٥. جنى الجناس ص ١١١ .   ٥٦. جنى الجناس ص ١٢١ .

الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب ، وهذا واضح في الكتاب كل الوضوح ، وهو مايمتاز به على كتبه الاخرى التي تعرضت لدراسة البلاغة

وختم كتابه « جنى الجناس » بست فوائد :

الأولى : أن أسامة بن منقذ ذكر أن عمرو بن العلاء ذكر اسم الجناس وهو يتحدث عن شعر أبي دواد الايادي ، وورد تجنيس التركيب والترجيع والتصحيف والتحريف فيه • فقال : « قلت : في نقل هذا عن أبي عمرو نظر ، فان اسم الجناس لم يكن موجودا في زمانه وانما حدث بعده بدهر فقد ذكروا ــ منهم ابن رشيق ــ ان أول من اخترع اسم التجنيس عبدالله بن المعتز في سنة أربع وسبعين ومائتين وذلك بعد موت أبي عمرو»[٥٧] • ولكن ابن المعتز ذكر ان الاصمعي الف «كتاب الاجناس»[٥٨] ، ولايشترط أن يكون اسم الفن البديعي معروفا في زمن أبي دواد ولكنه ، كان مستساغا في الشعر مقبولا •

الثانية : أن ضياءالدين بن الاثير ذكر أن بعض البلاغيين وقع في خطأ عندما أدخل في التجنيس ما ليس فيه مثل بيت أبي تمام :

أظن الدمع من عيني سيبقى رسوما من بكاي في الرسوم

ولم يعترض على ابن الاثير •

الثالثة : أن ابن النفيس قسم التجنيس في كتاب « طريق الفصاحة » الى حقيقة ومجاز ،والحقيقي أنه نوع واحد باستعمال اللفظ تارة في معنى وتارة في غيره ، ولايشترط أن يكون ذلك في موضع مخصوص بخلاف السجع والتصريع • قال : « وهذا الذي قرره في الجناس التام خلاف ما قرره غ

---

٥٧. جنى الجناس ص ٢٨٨ •
٥٨. البديع ص ٢٥ •

واحد من انه يشترط أن يكون اللفظ حقيقة في المعنين ولا جناس في حقيقة ومجاز»[٥٩] .

الرابعة : ان التنوخي أورد في « الاقصى القريب » فكرتين : الاولى مقياس تأثير التجنيس بتكرير الحروف من غير أن يكون بينهما بعد بحيث ينصرف منه الذهن عن الاول ، والثانية تقسيم التجنيس . ولم يُعلّق على هذا التقسيم .

الخامسة : ماذكره شهاب‌الدين الحلبي في « حسن التوسل » والليلي والثعالبي من أن التجنيس يحسن اذا قل وأتى في الكلام عفواً من غير كد ولا استكراه .

السادسة : ذكر فيها أبيات الجناس في بديعية شعبان الآثاري ، ولم يُعلّق عليها .

وابتدع السيوطي بعض أنواع البديع ، كالتأسيس والتفريع ، قال :

وقد وجدت مقصدا بديعا — سميته التأسيس والتفريعا

قاعدة كلية يمهدها — ينبني عيها شعبة يقصدها

مثاله لكل دين خلق — وخلق ذا الدين الحياء الموثق

« هذا نوع لطيف اخترعته لكثرة استعماله في الكلام النبوي ولم أرَ في الانواع المتقدمة ما يناسبه فسميته التأسيس والتفريع ، وذلك أن يمهد قاعدة كلية لما يقصده ثم يرتب عليها المقصود كقوله صلى الله عليه وسلم: « لكل دين خلق وخلق هذا الدين الحياء»[٦٠] .

ونفي الموضوع قال :

والنفي للموضوع قصدا صنعه — مثاله ليس الشديد الصرعه

---

٥٩. جنى الجناس ص ٢٩٠ . ٦٠. شرح عقود الجمان ص ١٤٠ .

« هذا النوع أيضا من مخترعاتي وسميته نفي الموضوع ، وهــو كثــير في الحديث وكلام البلغاء ، بأن يكون اللفظ موضوعا لمعنى فيصـــرح بنفيه ويثبته لغيره مبالغة في ادعاء ذلك الحكم ، ومثاله ما رواه الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٦١] .

وتمهيــد الدليل ، قــال :

وإن أتــى بجمــل للمقصــــد توصــلا لحكــم ما بــه ابتدي
وصح حــذف الوسط الموصول فذلــك التمهيــد للدليـــــل

« وهذا نوع ثالث اخترعته وسميته تمهيد الدليل ، وهو أن يقصد الحكم بشيء فيرتب له أدلة تقتضي قطعا بأن يبدأ بالمقصود ويخبر عنه بجملة مسلمــة ثم يخبر عن تلك الجملة بأخرى مسلمة فيلزم ثبوت الحكم للاول بأن يحذف الوسط ويخبر بالاخير عن الاول ، وهذا شكل من أشكال المناطقــة ونحــن ــ معاشــر أهل السنة ــ لانتبعهم أصــلا وهم مصرحــون بأنه في طبع أهل الذوق والذكاء ، والقرآن والسنة طافحان باستعماله ، ثم تارة يكون الوسط جملة واحدة ، وتارة يكون أكثر ، فمن الاول قوله صلى الله عليه وسلم :ــ « لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » رواه مسلم، لانه يصح أن يحذف الوسط فيقال : « ولا تدخلوا الجنة حتى تحابــوا ، من لم يؤمن بالله لم يؤمن بي ، ولم يؤمن بي من لايحب الانصار »[٦٢].

والتصحيف ، قــال :

ومنــه تصحيــف بأن يعتمــدا بــه وبالتصحيف أمــن قصــدا

« هذا نوع رابع اخترعته ، وهو أن يأتي في المقصود بكلام لتصحيفه معنى معتبر فيقصد ذلك لتذهب نفس السامع الى كل من معنييه كما حكي عن

٦١. المصدر نفسه ص ١٤١ . ٦٢. المصدر نفسه ص ١٤٢ .

بعض الأذكياء أنه كتب الى بعض أصحابه أن يشتري له من البضائع الرائجة، وأمر ان لاينقط ليصلح للرائجة والرابحة»[٦٣] .

هذا مما ابتدعه من المحسنات المعنوية ، أما المحسنات اللفظية فقد ابتدع التضييق ، قال :

قلت فان كان اللزوم في الروي أو كلمات فهي تضييق قوي

«هذا النوع اخترعته وسميته بالتضييق بأن يلتزم في الروي أمراً لايلزم، وانما لم يذكروه لظنهم أن الروي يلزم أن يكون على حرف واحد فلا يقع فيها التزام ما لايلزم . وأشرت بما ذكرته الى أن الروي قد يكون مثلا على الهاء فيلتزم أن لايأتي بها ضميرا ، أو الالف فيلتزم أن لايأتي بها ألف اطلاق، وقد عمل العماد الاصبهاني قصيدة هائية لاضمير فيها وادّعى البراعة ، وعارضه أبو اليمن الكندي بقصيدة مطلعها :

هل أنت راحم عبرة وتولّه ومجير صب عندما عَنْه نهي

هيهات يرحم قاتل مقتوله وسنانه في القلب غير منهنه

مَنْ مل ٌ من داء الغرام فانني مذ حلّ بي مرض الهوى لم أُنْقَه

عارضها البهاء السبكي بقصيدة وابن نباتة والصلاح الصفدي ، ولي في ذلك قصيدة ذكرتها في طبقات النحاة . ويلحق بذلك ما اذا التزم أمرا في كل كلمات البيت أو الرسالة . وللصرصري قصائد التزم في كل كلمة منها صادا ، وقصائد التزم في كل منها عينا ، وللحريري رسالة التزم في كل كلمة منها سينا»[٦٤] .

والمتحل ، قال :

واللفظ اذ يقرؤه الالثغ لا يعاب قد سميته المتحلا

٦٣. المصدر نفسه ص ١٤٢ .

٦٤. المصدر نفسه ص ١٥٤ .

« هذا النوع اخترعته وسميته المنتحل والمنتقى والمتحري ، وهو أن يختار لفظ اذا قرأه الالثغ لايعاب عليه تحريا ، وقد رأيت في ذلك بيتين في الراء لبعض الاقدمين وهما :

من شاء جمع معانٍ قد خصصت بها   وجاوزت كل حد لم ينل وطرا
وكيف يُستطاعُ أن تُحْصى فضائلها   وز نْدك الفرد مهما تقتدحه ورا[٦٥]

(٤)

هذه وقفة عند كتب السيوطي التي تعرضت للبلاغة، وقد اتضح أنها تمثل أربعة أهداف :

الاول : خدمة القرآن الكريم ، ويتجلى ذلك في « التحبير في علوم التفسير » و « معترك الاقران » و « الاتقان » .

الثاني : خدمة اللغة العربية وفقهها ويتضح ذلك في « المزهر » .

الثالث : خدمة البلاغة العربية بعلومها الثلاثة ، وتيسير دراستها نظما أو تلخيصا أو شرحا ويبدو ذلك في الكتب التي نحت نحو السكاكي في التقسيم والعرض والتمثيل ، ومنها ما جاء في « النقاية » وشرحها و « عقود الجمان » وشرحها .

الرابع : التعمق في لون بديعي واحد هو الجناس ، ويظهر ذلك في « جنى الجناس » الذي يعد حلقة من حلقات التأليف في هذا الفن ، اذ ألف الثعالبي قبله كتابي « أجناس التجنيس » و « الانيس في غرر التجنيس » ووضع الصفدي كتاب « جنان الجناس » وقد اتبع السيوطي بهذه الكتب[٦٦] . ولاينكر فضل السيوطي في كتبه ، فهو وإن كان ناقلا ، الا أن

---

٦٥. المصدر نفسه ص ١٥٧ ، وتقرأ : وطفا ـ وغا .
٦٦. تنظر مقدمة جنى الجناس ص ٤٣ـ٥٥ .

جهده يتضح في العرض أو الشرح أو التلخيص، واضافة بعض الامثلة، وابتداع بعض أنواع البديع ، وهو جهد كبير في عهده الذي شهد انكفاءً وعودةً الى التراث القديم . ولابد بعد هذا العرض والتقويم من تحديد منزلة السيوطي في الدرس البلاغي وهو العالم الكبير الذي قال عن نفسه : « ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء لا عى طريقة العجم وأهل الفلسفة»[٦٧]. ويريد بطريقة العرب البلغاء ما أطلق عليها اسم « المدرسة الادبية » وبطريقة العجم وأهل الفلسفة ما أطلق عليها « المدرسة الكلامية » . فهل وفق السيوطي في هذا الوصف ؟

إن دراسة كتبه التي اتخذ فيها منهج السكاكي والقزويني سبيلا تؤكد أنه سار على طريقة العجم والفلاسفة ، وإنْ أكثر من الامثلة في بعض المواضع من كتبه . وأن مطالعة كتبه التي تحدث فيها عن علوم القرآن ووجوه الاعجاز وفقه اللغة توضح أنه لم يبتعد كثيرا عن السكاكي والقزويني في التقسيم والعرض والامثلة وإن لم يقسم البلاغة الى علومها الثلاثة المعروفة . ولاتختلف عنها بديعيته وشرحها فهو قد سار على نهج أصحاب البديعيات معارضا ابن حجة في تسمية النوع البديعي ، وهذه البديعيات وأن لم تقسم البلاغة الى علومها الثلاثة ــ احتفظت بطابع البلاغة الذي توقف تجددها بعد مفتاح العلوم للسكاكي ولذلك لم تأتِ بجديد إلاّ زيادة المحسنات ، ولم تكن بديعية السيوطي أروع من البديعيات الاخرى ، فهي قد نهجت نهجها ، وهي كغيرها « لا روح فيها ولا قوة ولا بهجة ولا روعة»[٦٨] . ويبقى « جنى الجناس » فما لونه ؟ قال الدكتور محمد علي رزق الخفاجي :

إنه « نقل السيوطي من المدرسة الكلامية الى المدرسة الادبية ، أو قد

---

٦٧. حسن المحاضرة ج١ ص ١٩٠ ، وينظر القزويني وشروح التلخيص ص ٦٠٣ ــ ٦٠٥ .

٦٨. الصبغ البديعي ص ٤٤٩ .

اعاده اليها ، وذلك اذا صنفنا معترك الاقران في البلاغة[٦٩] » • وقـال : « أخرج السيوطي بكتابه هذا فن الجناس من التقسيمات الجافة التي عرفت في المدرسة الكلامية وجعله فنا بلاغيا يميل الى الادب والذوق • وقـد تهيأ له ذلك بفضل ما أورده من شواهد قرآنية وحديثية كثيرة وأمثلة أدبية شعرية ونثرية ، وكأنّ الكتاب بهذا الحشد الكبير من الشواهد والامثلة معـرض حافل بالالوان والانواع الادبية التي غالبا ما جاءت منتقاة »[٧٠] • ولا تعني كثرة الامثلة في كتاب « جنى الجناس » أن السيوطي انتقل الـى المدرسـة الادبية لأنّ الكتاب لايخرج عما اختطه علماء البلاغة من اتبـاع المدرسـة الكلامية ، اذ قسم السيوطي الجناس الى ثلاثة عشر نوعا وذكر تحت كل نوع عدة أقسام بلغت الاربعمائة ، قال : « هذا كتاب ألفته في أقسام الجنـاس التي استخرجتها وحصرتها ولم أسبق الى ذلك ووصلتها الى نحو الاربعمائة قسم »[٧١] • ولم يفعل السكاكي والقزويني وشراح التلخيص ما فعله في كثرة التقسيمات ولكنه ـ على الرغم من ذلك ـ أعطى فن الجناس روحـا أدبيـة وجعل القارىء يستروح ويطوف في ألوان من الكلام ، وبذلك تفوّق عليهم بهذا الجانب الذي لم يصله المتقدمون كالثعالبي والصفدي • وهذا واضـح لان السكاكي وأتباعه بحثوا الجناس في اطار البديع ، ولذلك لم يكثروا من الشواهد والامثلة ، في حين ان السيوطي أفرد له كتابا ، ولابـد للكتـاب الذي يبحث في موضوع خاص أنْ تُملأ دفتاه بالنصوص ليكون سِفْـراً لا فصلا أو مبحثا في كتاب • وقد أحسن السيوطي صنعا بذكر هذه الشواهد والامثلة الكثيرة التي تدل على ثروته الادبية وذوقه في الاختيار ، وهو ـ وان تمسك بأهداب السكاكي والقزويني ـ أرحب أفقا وأجلـى بيانا ، ولعـل شعوره بهذا التفوق جعله يقول أنّه تبحر في البلاغة « على طريقـة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة » وهي اشارة الى اختلاف القدماء

٦٩. مقدمة جنى الجناس ص ٢٢ .
٧٠. مقدمة جنى الجناس ص ٢٨ . ٧١. جنى الجناس ص ٧١ .

في دراسة البلاغة ، وقد نبهت الباحثين المحدثين الى هذا التفاوت ، فتحدثوا عن المدارس البلاغية وذكروا المدرسة الكلامية والمدرسة المصرية ، والمدرسة الادبية[٧٢] ، وهذا توسع في الدرس البلاغي وكشف للاتجاهات التي مرت بها البلاغة العربية في عهودها المختلفة ، وفي ذلك نفع عظيم .

المصـــادر :

١. الاتقان في علوم القرآن ــ جلال‌الدين السيوطي . القاهرة ١٣٦٨هـ .

٢. اتمام الدراية لقراء النقاية ــ جلال‌الدين السيوطي . مطبوع على حاشية مفتاح العلوم لابي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي . الطبعة الاولى ــ القاهـرة ١٣١٧هـ .

٣. البديع ــ عبدالله بن المعتز . طبعة كراتشكوفسكي . لندن ١٩٣٥ .

٤. البلاغة العربية في دور نشأتها ــ الدكتور سيد نوفل . القاهرة ١٩٤٨م .

٥. البلاغة عند السكاكي ــ الدكتور أحمد مطلوب . بغداد ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م .

٦. التفسير الادبي والاعجاز ــ الدكتور أحمد مطلوب . بحث منشـور فـي كتاب (اعجاز القرآن) الذي اصدرته وزارة الاوقاف والشـؤون الدينية ــ بغـداد ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م .

٧. التلخيص في علوم البلاغة ــ جلال‌الدين القزويني بتحقيق عبدالرحمـن البرقوقي . الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٣٥٠هـ ــ ١٩٣٢م .

٨. جلال‌الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية ــ الدكتور عبدالعـال سالم مكرم . بيروت ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م .

٩. جنى الجناس ــ جلال‌الدين السيوطي . تحقيق الدكتور محمد علي رزق الخفاجي . الدار الفنية للطباعة دروس ١٩٨٦م .

١٠. حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ــ جـلال‌الدين السيوطـي . القاهـرة ١٢٩٩هـ .

١١. دروس في البلاغة وتطورها ــ الدكتـور جميل سعيد . بغداد ١٣٧٠هـ ــ ١٩٥١ .

---

٧٢. للتوسع في هذه الاتجاهات ينظر فن القول ، ومناهج تجديد ، والبلاغة العربية في دور نشأتها ، ودروس في البلاغة وتطورها ، والبلاغـة عند السكاكي ، والقزويني وشروح التلخيص .

١٢. السيرة النبوية لابن هشام – تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي . الطبعة الثانية – القاهرة ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م .
١٣. السيوطي النحوي – الدكتور عدنان محمد سلمان . بغداد ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م .
١٤. شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان – جلال‌الدين السيوطي . القاهرة ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م .
١٥. الصبغ البديعي في اللغة العربية – الدكتور أحمد ابراهيم موسى . القاهرة ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م .
١٦. القزويني وشروح التلخيص – الدكتور احمد مطلوب . بغداد ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م .
١٧. كتاب الصناعتين – ابو هلال العسكري . تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم – القاهرة ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م .
١٨. المزهر في علوم اللغة وأنواعها – جلال‌الدين السيوطي . تحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي . القاهرة .
١٩. معترك الاقران في أعجاز القرآن – جلال‌الدين السيوطي . تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة .
١. ج١ سنة ١٩٦٩م .
٢. ج٢ سنة ١٩٧٠م .
٣. ج٣ سنة ١٩٧٣م .
٢٠. مفتاح العلوم – ابو يعقوب يوسف بن ابي بكر محمد بن علي السكاكي . القاهرة ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م .
٢١. مناهج بلاغية – الدكتور أحمد مطلوب . بيروت ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م .
٢٢. مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب – أمين الخولي . القاهرة ١٩٦١م .

يضاف الى هذه القائمة مصدران اضيفا الى الحواشي وهما :
١ – الإيضاح في علوم البلاغة – جلال‌الدين محمد بن عبدالرحمن المعروف بالخطيب القزويني . تحقيق أساتذة من الجامع الازهر – القاهرة .
٢ – التبيان في البيان – شرف‌الدين الحسين بن محمد بن عبدالله الطيبي . تحقيق الدكتور توفيق الفيل وعبداللطيف عبدالله . الكويت – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م .



الخاتمـــــة

لم تكن بحوث هذا الكتاب تأريخا يعرض ، وانما هي مناهج أريد بها تبيان ما وقف عنده علماء البلاغة لتكون منطلقا الى البلاغة التي توضح معالم الأدب الجديد الذي اغترف من التراث الغربي ولم يرجع الى الاصول العربية التي رسمت المعالم في الطريق يوم كان الأدب مزدهرا والفكر متقدا . إن البلاغة روح الأدب وما المناهج النقدية التي شاعت في السنوات الأخيرة إلا ومضات منها وان جاءت بأسماء ترجمت ، واشارات استحدثت ، متابعـة لما حدث من تغير في المواقف والأهداف بعد أن توقفت البلاغة عنـد حدود رسمتها مرحلة الجمـود .

ونحن ــ العرب ــ بهرنا ببعض المناهج وعددناها خير ما أنجز العقل الغربي فضربنا عن الفكر العربي صفحا لما آلت اليه البلاغة في عصر الجمـود ، ولما أصبح عليه النقد الأدبي في مطلع القرن العشرين حـين اتخذ الذوق سبيلا ، والانطباع منهجا ، والتأثرية أسلوبا ، ولم نَصْحُ إلا حينمـا شاعت الدراسات الاسلوبية التي اتخذت من دراسة النص منهجا ، وظهرنا فـاذا بكثير مما قيل يرجع الى أصول البلاغة ، واذا بنا ندعو الى « علـم النـص » ليكون بديلا من البلاغة أو هو البلاغة الحديثة .

لقد قاد الجهل أو الضياع الى انكار ما للعرب من مناهج بلاغية ومالديهم من نظرات صائبة وتحليل للنص ينبع من طبيعة اللغة العربية وروح أدبهـا ، فأعرض الباحثون عن العودة الى النبع الأصيل طلبا للراحة أو تباهيا بالحداثة التي تصوروا أنها هدّامة للتراث ، وقد نسوا أنها لاتنهض من غير أصول ، وان التجديد عكوف على الموروث ، وفهم وتمثل له ، وانطلاق الى الآفاق . وهذا ما فعلـه الاوربيون في نهضتهم الحديثة إذ عـادوا الى تراثهم يدرسونه

ويقفون عند قضاياه وقفة المتأمل ، ويستخلصون منه ما ينسجم ومعـــالم نهضتهم ، وما يصور واقعهم الذي ارتبطوا به لغة وثقافة وطموحا ، وبـذلك جاءت مناهجهم أصيلة تمثل حضارتهم ، وجديـدة تعبر عـن فكـرهم ، وتنبثق من أدبهم الذي يستمد لغته وأسلوبه وتصوره وأفكاره من واقعهم الذي رسمته قرون درجت فيها أوربة وهي تتلمس طريقهـا في الحيـاة • وشتان ما بين تأريخ أوربة وتأريخنا ، فنحن أمة شرفها الله بالأنبيـاء وكـان آخرهم الرسول العربي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذي بشـر بقرآن منزل من السماء ، وعقيدة فتحت أمام الانسان آفـاق الحياة ، وبشـــرته بنعيم مقيم ، فانطلق في ضوء ذلك يبني مجتمعه ، ويشيد حضارته ، ويعمـق ثقافته ، ويرسم أدبه ، ويقبس ما فيه الخير وما ينمي مواهبه ، ويوسع مداركه، ويفتح أمامه سبل الحياة الفضلى ، وبذلك حقق ذاته ، وأصبح ذا كيـــان يحرص عليه حرصه على وجوده ، ولولا ذلك ما كان للعرب دور عظيم في بناء الحضارة الانسانية التي عمرت البلاد وغذت العقول •

إن لكل أمة طابعا مميزاً في الحياة ، وأن لها تصوراً للوجود ، وأن لها كيانا تعتز به ، والأمة العربية وهي ذات الحضارة العريقة لابدّ من أن تحقق ذاتها وهي تستشرف القرن الحادي والعشرين ، وأن يكون لثقافتها تميز بين ثقافات الأمم التي تسعى الى ترسيخ ثقافتها ونشرها وفرضها على الشعوب ، ومن ذلك الأدب وهو وليد اللغة ، وربيب الحضارة ، وعطائهـــا العميم • وما البلاغة إلا جذور ذلك الأدب الأصيل ، أما الفسيل فيبقى في مهـب الريح تتقاذفه الأهواء ولايستطيع أن يتلقى النور إلا بالنظر الكليل • وليـس مثل هذا يراد للأدب العربي وأصول نقده وتحليله ، ومن هنا كانت الدعـوة الى تمثل البلاغة العربية تمثلا واعيا ، والانطلاق منها الى آفاق رحيبـــة بعـد الانتفاع بما لغير العرب من فكر بنّاء ، ومناهج رسختها عقـول وقـادة ، وسعت الى أهداف نبيلة ، لاعقول مريضة ، ومناهج لاتتخذ من المنطق السليم سبيـــلا •

والثقافة العربية وهي تستشرف القرن الحادي والعشرين تواجه تحديات كبيرة تريد اختراقها وطمس معالمها لتفقد الأمة هويتها ، وتتنكر ذاتها «والبلاغة من تلك الثقافة العربية التي بنتها عقول نيرة وأقام أصولها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » ولن يكون للنقد العربي مستقبل إن بقي رجاله بعيدين عن أسسه ، ولعل من أول مايسعى اليه المؤمن بأمته وثقافتها أن يطيل التأمل في الموروث وأن يقف عنده « وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه » وأن يدرسه دراسة مستوعبة ليستخلص منه ما ينفع وما يقوّم الأدب الجديد ، غير مستنكر الدعوات الصادقة ، والآراء الصائبة ، والمناهج القويمة ، فقد خلق لهذا الزمان ولابدّ من أن يكون للمعاصرة طابعها ، وأن تكون له شخصيته الراسخة الأصول • وما البحوث التي حفل بها هذا الكتاب إلا دعوة الى التأمل الطويل ، والتفكير العميق فيما ترك العرب من تراث بلاغي ونقدي ضخم استمد أصوله من اللغة العربية وأدبها ، وامتد الى اللغات الاخرى موجها ومؤثرا •

إن العودة الى البلاغة العربية تقتضيها النزعة العلمية والنفحة الروحية ، فضلا عن تحقيق الذات وارساء أصول النقد العربي الجديد بعد أن طغت على الدرس الأدبي اتجاهات متصارعة لم تثبت فمن الاسلوبية الى الشكلانية الروسية فالواقعية الاشتراكية والبنيوية وما بعد البنيوية ، والظاهراتية والتشكيكية وما الى ذلك من تيارات نبع معظمها في فرنسا وانتقل الى العرب بعد أن فقد بريقه في موطنه وتجاوزته الدراسات ، إما ثورة عليه أو تجريبا لاتجاهات تمليها نزعات وتوجهات لاتخدم الفكر الأصيل في كثير من الأحيان •

إن طغيان هذه التيارات التي أنكر معظمها أصحابها أبعدت النقد العربي عن البلاغة التي لم تفهم حق الفهم ، ولم تدرس بعناية كبيرة ، وظنّ أنها فنّ الاقناع كما فهمها قدماء اليونان وورثو حضارتهم ، في حين انها عند العرب

أوسع من ذلك ، لأنها ترتبط بفهم إعجاز القرآن الكريم ، وتتصل بتعليم فن القول ، والنقد الأدبي ، واختيار النصوص ، ومعرفة الجيد من الرديء ، فهي ـ إذن ـ روحية وتعليمية ونقدية ، وهذا ما نص عليه أبو هلال العسكري في مقدمة « كتاب الصناعتين » .

هذا الفهم الواسع والادراك العميق للبلاغة العربية يجعل العودة اليها خيراً للأدب والنقد بعد أن ضاعا في غمرة التيارات ، وتعصب بعضهم لهذا أو ذاك ، واتهم بعضهم بعضا بما لم ينزل الله به من سلطان ، وكادوا يقتتلون كأنهم في حومة الوغى ، ولم يعوا أنهم يخدمون اتجاهات بعيدة عن واقع اللغة العربية ، ويعلون من لايستحق أن يذكر في عالم التأليف .

وانتهى المطاف الى الضياع أو الى التعصب لاتجاه لايصور النقد بمعناه العام وانما ينظر في جانب منه ، ويبقى النص بعد ذلك محتاجاً الى سبر أغواره ، ومن ذلك تفسيره وتقويمه وهما مهمان في العملية النقدية ، فضلا عن ايضاح أبعاده المختلفة والوقوف على منشئه ومتلقيه . ولا يعني هذا ان الانتفاع بالاتجاهات المختلفة محظور ، وانما يراد من النقد أن يكون تكامليا ، أي دراسة النص الأدبي والنظر فيه من جميع جوانبه ، لا من جانب بنيته وحدها والاكتفاء بالوقوف على مستوياته الصوتية والتركيبية والدلالية في ضوء ما دعت اليه الاسلوبية ، لا في ضوء البلاغة بعلومها التي ذكرتها الكتب العربية وأضفت عليها مسحة ذوقية ونفحة روحية لايجدها الناقد في كثير من الاتجاهات التي أحاطت به من كل جانب ، ولم يستطع تمثلها والانتفاع بها ، وغرق في لجتها في حين أن أصحابها تجاوزوها وخلفوها وراءهم ظهريا . ولو عاد العربي الى بلاغة لغته لوجدها حية وإنها ـ كما قال القدماء ـ : « لم تنضج ولم تحترق » وما أحرى بالناقد أن يعود اليها دارساً ومتمثلا ، ومدركا مقاصدها ، ومضيفا اليها ما استجد لتسير مع الأدب كما سارت

في مراحلها الأولى وقبل أن يعتريها الجمود الذي لفّ علـوم اللغة العربية في عهـود الظـلام •

وبعــــد :

فلم تكن بحوث هذا الكتاب مزجاة للوقت ، وانما هي بحوث جاءت بعد تأمل طويل ، وتمثّل لتراث العرب البلاغي ، ووقوف واعٍ جـاد على ما عند الأجانب لتكون شاهدا على ما للعرب من أصالة ، ودليلا لمن يريد أن يقيـم نقدا عربيا تمتد جذوره في عمق الثقافة العربية ، وتزهر أغصانه في ظلال حرية الفكر والتعبير • وسيبقى الفكر العربي خالدا ينفع الناس ويهديهم سـواء السبيل ، مهما تعرض للعزوف والنكران ممن فقدوا ذاتهم ، وأنكروا هويتهم، وصدق الله تعالى حينما قـال :

« فَأَمَّا الزَّبَـدُ فَيَذْهَـبُ جُفَـاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّـاسَ فَيَمْكُثُ فِـي الأَرْضِ »

الأحد ١٨ ربيع الثاني ١٤١٧هـ	الدكتور احمـد مطلـوب
الاول من أيلول ١٩٩٦م	عضـو المجمع العلمـي
	وامينـه العـــام

❁ ❁ ❁

الملحــــق

في البحث الأول من هذا الكتاب أهم مصـادر البلاغـة القديمة ، ويضـاف اليهـا :

١ ـ الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة ـ محمد بن علي الجرجاني •

٢ ـ الاعجاز والايجاز ـ أبو منصور الثعالبي •

٣ ـ الايجاز في علم الإعجاز ـ لطف الله بن محمد الغياثي الظفيري •

٤ ـ التبيان في البيان ـ شرف‌الدين الحسين بن محمد بن عبدالله الطيبي •

٥ ـ جنى الجناس ـ جلال‌الدين السيوطي •

٦ ـ رائق التحلية في فائق التورية ـ أحمد بن زرقالة •

٧ ـ في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ـ أبو أحمـد الحسـن بن سعيـد العسكري •

٨ ـ كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ـ ضياء‌الدين بن الاثير •

٩ ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ـ عبدالرحيم العباسي •

١٠ـ المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء ـ أحمـد بـن محمـد الجرجانـي الثقفـي •

١١ـ الوشي المرقوم في حل المنظوم ـ ضياء‌الدين بن الأثير •

وهناك كتب بلاغية مطبوعة لم تصل اليها اليد ، أما المخطوطة فلاتزال بعيدة عن أيدي كثير من الباحثين ، ولذلك لم تذكر في هذا الكتاب •

والدراسات البلاغية الحديثة كثيرة ، إذ حظيت البلاغة العربية باهتمام بالغ في القـرن العشريـن ، ولكن معظمها كـان تأريخاً أو القاءً ضوء على

مصطلحاتهـا وفنونها • وظلت على واقعهـا القديـم إلا ما جـاء من دعوات تجديدية ، وكان المرحـوم أمين الخولي من أكثـر المعاصرين اهتماما بالمنهج الذي رسمه في بحوثه أو في كتابه « فن القول » ولم يطبقه • وتبعه باحثون كثيرون إلا أنهم ساروا في التطبيق على منهج السكاكي والقزويني وشرّاح التلخيص ، وكان معظم ما ألفوا كتبا تعليمية • ولم يخـرج على تقسيم البلاغة الثلاثي دعاة التجديد ،فهم ما زالوا يبحثون في مستويـات النـص الصوتيـة والتركيبية والدلالية ، وهي ما يدخل في الفصاحة والمعاني والبيان وبعض فنون البديع ، وبذلك عادوا الى البلاغة القديمة وهم لايشعرون •

إن تجديد البلاغة لن ينهض به إلا باحث درس القديم دراسة واعية ، وعرف مسالكه ومقاصده معرفة دقيقة ، وتمثله تمثلا عميقا ، وعرف المناهج الحديثة ، وكان ذا ذوق رفيع •

ولعل من النافـع المفيد أن نذكر في هـذا الملحق بعـض ما صـدر من دراسات بلاغية لتكون منطلقا للبحث في البلاغة العربية التـي لـم تنضج ولم تحترق .• وكان الاستاذ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي « الجامعة الاردنية » قد عقد الفصل الرابع من كتابه « مقدمة فـي دراسـة البيـان العربي » ــ عمان ١٩٨٦ ــ لمكتبة الدراسات البلاغية ، ذكر فيه كثيراً من كتب البلاغة القديمة والحديثة ، المطبوعة والمخطوطة ، وأتى ببعض البحوث البلاغية المنشورة في المجلات العلمية ، وأثبت بعض الدراسـات الجـامعية التي لم تطبع • والنظر في هذا الجهد العظيم يظهر عناية الباحثين بالبلاغة ، ولكن الانتفاع بها كان قليلا إذ عزف عنها وعن مصادرها معظـم النقـاد واتجهوا الى اعلاء شأن النقد الغربي الذي لم يكن كله بريئا أو سليمـا ، فضلا عن أن معظمه كان بعيداً عن واقع الأمة العربية فكراً ومصيرا •

وفي هذا الملحق أسماء بعض ما طبع من الدراسـات البلاغيـة ، أريد بها أن تكون دليلاً للباحثين ، وبرهانا على أن البلاغة العربية تستحق الدرس

والعناية ، والتزود منها في النقد الأدبي الحديث ، وهو تتمة لما ذكر في المبحث الأول من هذا الكتاب وفي مطلع هذا الملحق من مصادر قديمة تعد أصول الدرس البلاغي والنقدي عند العرب •

الهمـــزة

وأهم هذه الدراســات :

١ ــ ابن أبي الاصبع المصـري بين علماء البـلاغة ــ الدكتور حفنـي محمــد شـرف •

٢ ــ ابن رشيق القيرواني ــ الدكتور عبدالرؤوف مخلوف •

٣ ــ ابن رشيق الناقد الشاعر ــ الدكتور عبدالرؤوف مخلوف •

٤ ــ ابن المعتـز وتراثـه في الأدب والنقد والبيان ــ الدكتور محمــد عبدالمنعـم خفاجـي •

٥ ــ أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة ــ الدكتور محمد علي أبو حمدة •

٦ ــ أبو هــلال العسكـري ومقاييســه البلاغية والنقــدية ــ الدكتور بدوي طبانـة •

٧ ــ الأثر الاغريقي في البلاغة العربية ــ الدكتور مجيد عبدالحميد ناجي •

٨ ــ أثر البلاغة في تفسير الكشاف ــ الدكتور عمر الملا حويش •

٩ ــ أثر النحاة في البحث البلاغي ــ الدكتور عبدالقادر حسين •

١٠ ــ أحاديـث في تأريــخ البلاغــة وفي بعض قضاياهــا ــ الدكتــور عبدالكريم محمــد الأسعد •

١١ــ الأدب والبلاغة ــ الدكتور ابراهيم أبو الخشب •

١٢ـ أساس البلاغة ـ الدكتور محمد السيد شيخون •

١٣ـ أساليب الاستفهام في القرآن ـ الدكتور عبدالعليم فودة •

١٤ـ أساليب بلاغية ـ الدكتور أحمد مطلوب •

١٥ـ أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ـ الدكتور قيس اسماعيل الأوسي •

١٦ـ الاستعارة (نشأتها ـ تطورها ـ أثرها في الأساليب العربية) ـ الدكتور محمد السيد شيخون •

١٧ـ أسرار التكرار في القرآن ـ أحمد عبدالقادر عطا •

١٨ـ أسرار التمثيل بين الطريقة الأدبية والتقريرية ـ عبدالمتعال الصعيدي•

١٩ـ الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ـ الدكتور مجيد عبدالحميد ناجي •

٢٠ ـ الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لاصول الأساليب الأدبية) أحمد الشايب •

٢١ـ الأسلوب الكنائي (ـ نشأته ـ تطوره ـ بلاغته) ـ الدكتور محمد السيد شيخون •

٢٢ـ أصول البيان العربي (رؤية بلاغية معاصرة) ـ الدكتور محمد حسين علي الصغير •

٢٣ـ الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ـ الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء)•

٢٤ـ الاعجاز الفني في القرآن ـ عمر السلامي •

٢٥ـ الاعجاز في نظم القرآن ـ الدكتور محمد السيد شيخون •

٢٦ــ إعجاز القرآن ــ الدكتور عبدالكريم الخطيب •
٢٧ــ إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق ــ الدكتور حفني محمد شرف •
٢٨ــ إعجاز القرآن بين المعتزلة والاشاعرة ــ الدكتور منير سلطان •
٢٩ ــ إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لأسرار البلاغة ومعاييرها ــ عبدالكريم الخطيب •
٣٠ــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ــ مصطفى صادق الرافعي •
٣١ــ إعجاز النظام القرآني ــ أحمد عبدالوهاب •
٣٢ ــ أمالي علي عبدالرازق في علم البيان وتأريخه ــ علي عبدالرازق •

البـــاء

٣٣ــ الباقلاني ناقدا أديبا ــ الدكتور فاضل محمد عبدالله •
٣٤ــ الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن ــ الدكتور عبدالرؤوف مخلوف •
٣٥ــ البحث البلاغي عند العرب ــ الدكتور أحمد مطلوب •
٣٦ــ بحوث بلاغية ــ الدكتور أحمد مطلوب •
٣٧ ــ بحوث وآراء في علوم البلاغة ــ أحمد مصطفى المراغي •
٣٨ــ بحوث ومقالات في البلاغة ــ الدكتور فتحي عبدالقاهر فريد •
٣٩ــ البديع في ضوء أساليب القرآن ــ الدكتور عبدالفتاح لاشين •
٤٠ ــ البديعيات في الأدب العربي (نشأتها ــ تطورها ــ أثرها) ــ الدكتور علي أبو زيد •
٤١ ــ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ــ الدكتور ابراهيم سلامة •
٤٢ ــ البلاغة التطبيقية دعامة النقد الأدبي السليم ــ الدكتور أحمد موسى •
٤٣ــ البلاغة تطور وتأريخ ــ الدكتور شوقي ضيف •
٤٤ ــ البلاغة العربية ــ الدكتور أحمد مطلوب •
٤٥ــ البلاغة العربية بين القيمة والمعيارية ــ الدكتور أسعد أحمد أبو الرضا •
٤٦ــ البلاغة العربية تأريخا وتطبيقا ــ الدكتور المحمدي عبدالعزيز الحناوي •

٤٧ـ البلاغة العربية (تأريخها ـ مصادرها ـ مناهجها) ـ الدكتور علي عشري •
٤٨ـ البلاغة العربية في تأريخها ـ الدكتور محمد علي سلطاني •
٤٩ـ البلاغة العربية في ثوبها الجديد ـ الدكتور بكري شيخ أمين •
٥٠ـ البلاغة العربية في دور نشأتها ـ الدكتور سيد نوفل •
٥١ـ البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل ـ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي •
٥٢ـ البلاغة العربية (نشأتها وتطورها) ـ الدكتور حفني محمد شرف •
٥٣ـ البلاغة (عرض وتوجيه وتفسير) ـ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي •
٥٤ـ البلاغة العصرية واللغة العربية ـ سلامة موسى •
٥٥ـ بلاغة العطف في القرآن الكريم (دراسة أسلوبية) ـ الدكتور عفت الشرقاوي •
٥٦ـ البلاغة عند الجاحظ ـ الدكتور أحمد مطلوب •
٥٧ـ البلاغة عند السكاكي ـ الدكتور أحمد مطلوب •
٥٨ـ البلاغة الفنية ـ علي الجندي •
٥٩ـ بلاغة القرآن ـ محمد الخضر حسين •
٦٠ـ بلاغة القرآن بين الفن والتأريخ ـ الدكتور فتحي أحمد عامر •
٦١ـ بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار وأثره في الدراسات البلاغية ـ الدكتور عبدالفتاح لاشين •
٦٢ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ـ الدكتور محمد حسنين أبو موسى •
٦٣ ـ البلاغة والأسلوب ـ الدكتور محمد عبدالمطلب •
٦٤ـ البلاغة والتطبيق ـ الدكتور أحمد مطلوب والدكتور كامل البصير •
٦٥ـ البلاغة والنقد بين التأريخ والفن ـ الدكتور مصطفى الصاوي الجويني •
٦٥(ب)ـ بناء الصورة الفنية في البيان العربي ـ الدكتور كامل حسن البصير •

٦٦ـ البهاء السبكي وآراؤه البلاغية والنقدية ـ الدكتور عبدالفتاح لاشين •
٦٧ـ البيان العربي ـ الدكتور بدوي طبانة •
٦٨ـ البيان في إعجاز القرآن ـ محمد محمد السباعي الديب •
٦٩ـ البيان في ضوء أساليب القرآن ـ الدكتور عبدالفتاح لاشين •
٧٠ـ البيان القرآني ـ الدكتور محمد رجب البيومي •
٧١ـ البيان النبوي ـ الدكتور عدنان زرزور •

التــاء

٧٢ـ تأثير الفكر الديني في البلاغة العربيـة ـ الدكتـور مهـدي صالح السامرائـي •
٧٣ـ تأريخ علو م البلاغة والتعريف برجالها ـ أحمد مصطفى المراغي •
٧٤ـ تأريخ فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة حتى عصرنا الحاضر ـ نعيم الحمصـي •
٧٥ـ تأريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ـ الدكتور محمد زغلول سلام •
٧٦ـ التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري ـ الدكتور وليد قصاب •
٧٧ـ التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عنـد عبدالقاهر ـ الدكتـور عبدالفتـاح لاشـين •
٧٨ـ التركيب اللغوي للادب ـ الدكتور لطفي عبدالبديع •
٧٩ـ التشبيهات القرآنيـة والبيئة العربيـة ـ الدكتورة واجـدة مجيد الاطرقجـي •
٨٠ـ التشبيه البليغ هل يرقى الى درجة المجاز ـ الدكتور عبدالعظيم ابراهيم•
٨١ـ التشبيه والتمثيل ـ الدكتور يوسف البيومي •

٨٢ـ التصور الأدبي في كتاب معاهـد التنصيص على شواهـد التلخيص لعبدالرحيم العباسي ـ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي •

٨٣ـ التصوير البياني ـ الدكتور حفني محمد شرف •

٨٤ـ التصوير البياني ـ الدكتور محمد أبو موسى •

٨٥ـ التصوير الفني في القرآن ـ سيد قطب •

٨٦ـ تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية ـ الدكتـور عمر الملا حويش •

٨٧ـ تطور الصورة الفنية في الشعر العربـي الحديـث ـ الدكتور نعيم حسـن اليافي •

٨٨ـ التعبير البياني ـ الدكتور شفيع السيد.•

٨٩ـ التعبير الفني في القرآن ـ الدكتور بكري شيخ أمين •

٩٠ـ التفسير البياني للقـرآن الكريـم ـ الدكتـورة عائشـة عبدالرحمن (بنـت الشاطىء)

٩١ـ التفكير البلاغي عند العـرب (أسسه وتطـوره الى القرن السادس) ـ الدكتور حمادي صمود •

٩٢ـ تقيالدين بن حجة الحموي ـ الدكتور محمود رزق سليم •

الجيـــم

٩٣ـ جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العـرب ـ الدكتور ماهر مهدي هلال •

٩٤ـ جولة مع ضياءالدين بن الأثير ـ أحمد محمد عنبر •

الحـــاء

٩٥ ـ حـازم القرطاجني ونظريـات أرسطو في الشعر والبلاغـة ـ الدكتور عبدالرحمن بدوي •

٩٦ــ الحديث النبوي (مصطلحه وبلاغته) ــ الدكتور محمد الصباغ •
٩٧ــ الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ــ الدكتور عزالدين السيد •
٩٨ــ حول إعجاز القرآن ــ الدكتور علي العماري •

الخـــاء

٩٩ــ خصائص التراكيب ــ الدكتور محمد أبو موسى •
١٠٠ــ خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم ــ الدكتور محمد رجب البيومي •
١٠١ــ الخيال في الشعر العربي ــ محمد الخضر حسين •

الـــدال

١٠٢ــ دراسات بلاغية ونقدية ــ الدكتور أحمد مطلوب •
١٠٣ــ دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير ــ عبدالهادي العدل •
١٠٤ــ دراسات في الأدب والبلاغة ــ الدكتور سعد ظلام وآخرون •
١٠٥ــ دراسات في الأدب والنقد والبلاغة ــ الدكتور أحمد عبدالمنعم البهي •
١٠٦ــ دراسات في البلاغة الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي •
١٠٧ــ دروس في البلاغة وتطورها ــ الدكتور جميل سعيد •
١٠٨ــ دفاع عن البلاغة ــ أحمد حسن الزيات •
١٠٩ــ دلالات التراكيب ــ الدكتور محمد أبو موسى •

الســـين

١١٠ــ سر العربية وبيانها ــ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي •
١١١ــ السرقة الأدبية ــ الدكتور بدوي طبانة •

الشـــين

١١٢ـ الشريف الرضي بلاغيا ـ الدكتورة مناهل فخرالدين فليح .

الصـــاد

١١٣ـ الصبغ البديعي في اللغة العربية ـ الدكتور أحمد ابراهيم موسى .

١١٤ـ الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ـ الدكتور حفني محمد شرف .

١١٥ـ الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ـ الدكتور حفني محمد شرف .

١١٦ـ صور من تطور البيان العربي ـ الدكتور كامل الخولي .

١١٧ـ الصورة الأدبية ـ الدكتور مصطفى ناصف .

١١٨ـ الصورة البلاغيـة عند بهاءالدين السبكي ـ الدكتـور محمد بركات حمدي أبو علي .

١١٩ـ الصورة البلاغيـة عند عبدالقاهر الجرجاني ـ الدكتـور علي أحمد دهمـان .

١٢٠ـ الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي ـ مدحة سعد محمد الجيار .

١٢١ـ الصـورة الفنيـة في التـراث النقدي والبلاغـي ـ الدكتـور جابر أحمـد عصفور .

١٢٢ـ الصورة الفنية في شعر أبي تمام ـ الدكتور عبدالقادر الرباعي .

١٢٣ـ الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ـ الدكتور نصرة عبدالرحمن .

١٢٤ ـ الصـورة الفنيـة فـي المثـل القرآنـي ـ الدكتـور محمد حسين علي الصغير .

١٢٥ـ الصورة الفنية معيارا نقديا ـ الدكتور عبدالاله الصائغ .

١٢٦ـ الصورة في شعر الأخطل الصغير ـ الدكتور أحمد مطلوب .

١٢٧ـ الصورة في شعر بشار بن برد ـ الدكتور عبدالفتاح صالح نافع .

١٢٨ــ الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ــ الدكتور علي البطل •

١٢٩ــ الصورة والبناء الشعري ــ الدكتور محمد حسن عبدالله •

الضاد

١٣٠ــ ضياءالدين بن الأثير ــ الدكتور أحمد مطلوب •

١٣١ــ ضياءالدين بن الأثير ــ الدكتور محمد زغلول سلام •

١٣٢ــ ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد ــ الدكتور محمد زغلول سلام •

العين

١٣٣ــ عبدالقاهر الجرجاني (بلاغته ونقده) ــ الدكتور أحمد مطلوب •

١٣٤ــ عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية ــ الدكتور أحمد أحمد بدوي •

١٣٥ــ عبدالقاهر والبلاغة العربية ــ الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي •

١٣٦ــ علم البديع (نشأته وتطوره من ابن المعتز حتى أسامة بن منقذ) ــ الدكتور عبدالرزاق أبو زيد زايد •

١٣٧ــ علم البديع والبلاغة عند العرب ــ كراتشكوفسكي •

١٣٨ــ علم الفصاحة العربية ــ الدكتور محمد علي رزق الخفاجي •

الفاء

١٣٩ــ الفاصلة في القرآن ــ محمد الحسناوي •

١٤٠ــ الفاصلة القرآنية ــ الدكتور عبدالفتاح لاشين •

١٤١ــ فخرالدين الرازي بلاغيا ــ الدكتور ماهر مهدي هلال •

١٤٢ــ فصول في البلاغة ــ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي •
١٤٣ــ فصول من البلاغة ــ صادق ابراهيم خطاب •
١٤٤ــ فصول من علم البلاغة ــ عبدالعظيم الروبي •
١٤٥ــ فكرة النظم بين وجوه الاعجاز في القرآن الكريم ــ الدكتور فتحي أحمد عامر •
١٤٦ــ فلسفة البلاغة ــ جبر ضومط •
١٤٧ــ فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ــ الدكتور رجاء عيد •
١٤٨ــ فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث ــ الدكتور لطفي عبدالبديع •
١٤٩ــ فن الاستعارة ــ الدكتور أحمد عبدالسيد الصاوي •
١٥٠ــ فن الأسجاع ــ علي الجندي •
١٥١ــ فن البلاغة ــ الدكتور عبدالقادر حسين •
١٥٢ــ فن التشبيه ــ علي الجندي •
١٥٣ــ فن الجناس ــ علي الجندي •
١٥٤ــ فن القول ــ أمين الخولي •
١٥٥ــ فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب ــ الدكتور فتحي عبدالقادر فريد •
١٥٦ــ فنون بلاغية ــ الدكتور أحمد مطلوب •
١٥٧ــ في الأدب والبيان ــ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي •
١٥٨ــ في إعجاز القرآن الكريم ــ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي •
١٥٩ــ في البلاغة العربية ــ الدكتور رجاء عيد •
١٦٠ــ في تأريخ البلاغة العربية ــ الدكتور عبدالعزيز عتيق •

القــاف

١٦١ــ القاضي الجرجاني ــ الدكتور أحمد أحمد بدوي •
١٦٢ــ القاضي الجرجاني ــ الدكتور محمود السمرة •

١٦٣ـ قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ـ الدكتور بدوي طبانة •.
١٦٤ـ القرآن بين الحقيقة والمجاز والإعجاز ـ محمد عبدالغني حسن •
١٦٥ـ القرآن والصورة البيانية ـ الدكتور عبدالقادر حسين •
١٦٦ـ القزويني وشروح التلخيص ـ الدكتور أحمد مطلوب •
١٦٧ـ قضايا النقد الأدبي والبلاغة ـ الدكتور محمد زكي العشماوي •
١٦٨ـ قضية عمود الشعر العربي القديم (ظهورها وتطورها) ـ الدكتور وليد قصاب •

الكاف

١٦٩ـ كتاب أرسطو طاليس في الشعر ـ الدكتور شكري محمد عياد •
١٧٠ـ كتاب سر الفصاحة لابن سنان (دراسة وتحليل) ـ الدكتور عبدالرزاق أبو زيد زايد •

اللام

١٧١ـ اللغة والبلاغة ـ عدنان بن ذريل •
١٧٢ـ لمحات في أصول الحديث والبلاغة النبوية ـ الدكتور محمد أديب الصالح •

الميم

١٧٣ـ المبالغة في الشعر العباسي ـ عبدالعزيز بن عبدالله الشبيلي •
١٧٤ـ المجاز في البلاغة العربية ـ الدكتور مهدي صالح السامرائي •
١٧٥ـ المجاز وأثره في الدرس اللغوي ـ الدكتور محمد بدري عبدالجليل•
١٧٦ـ محاضرات في فلسفة البلاغة العربية ـ الدكتور حلمي علي مرزوق•
١٧٧ـ المختصر في تأريخ البلاغة ـ الدكتور عبدالقادر حسين •

١٧٨ـ المدخل الى دراسة البلاغة ـ الدكتور فتحي فريد .
١٧٩ـ المدخل الى دراسة البلاغة العربية ـ الدكتور السيد أحمد خليل .
١٨٠ـ المذهب البديعي في الشعر والنقد ـ الدكتور رجاء عيد .
١٨١ـ مشكلة السرقات في النقد العربي ـ الدكتور محمد مصطفى هدارة.
١٨٢ـ مصادر التفكير النقدي والبلاغي عند حازم القرطاجني ـ الدكتور منصور عبدالرحمن .
١٨٣ـ مصطلحات بلاغية ـ الدكتور أحمد مطلوب .
١٨٤ـ مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيّن للجاحظ ـ الشاهد البوشيخي .
١٨٥ـ المصطلح النقدي في نقد الشعر ـ ادريس الناقوري .
١٨٦ـ معالم المنهج البلاغي عند عبدالقاهر الجرجاني ـ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي .
١٨٧ـ المعاني الثانية في الاسلوب القرآني ـ الدكتور فتحي أحمد عامر .
١٨٨ـ المعاني في ضوء أساليب القرآن ـ الدكتور عبدالفتاح لاشين .
١٨٩ـ مع بلاغة القرآن ـ الدكتور عبدالحميد العبيسي .
١٩٠ـ المعجم الأدبي ـ الدكتور جبور عبدالنور .
١٩١ـ معجم البلاغة العربية ـ الدكتور بدوي طبانة .
١٩٢ـ معجم مصطلحات الأدب ـ الدكتور مجدي وهبة .
١٩٣ـ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ـ الدكتور أحمد مطلوب .
١٩٤ـ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ـ مجدي وهبة وكامل المهندس .
١٩٥ـ معجم النقد العربي القديم ـ الدكتور أحمد مطلوب .
١٩٦ـ مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين ـ الدكتور أحمد السيد عبد الصاوي .

١٩٧- مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة ـ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي .

١٩٨- مقدمة في دراسة البيان العربي ـ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي .

١٩٩- ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية في القرن السابع الهجري ـ الدكتور مصطفى الصاوي الجويني .

٢٠٠- من أساليب البيان في القرآن الكريم ـ الدكتور محمد علي أبو حمدة .

٢٠١- من أسرار التركيب البلاغي ـ الدكتور سيد عبدالفتاح حجاب .

٢٠٢- من بلاغة النبوة ـ الدكتور عبدالقادر حسين .

٢٠٣- مناهج بلاغية ـ الدكتور أحمد مطلوب .

٢٠٤- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ـ أمين الخولي .

٢٠٥- مناهج وآراء في لغة القرآن ـ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي .

٢٠٦- من بلاغة القرآن ـ الدكتور أحمد أحمد بدوي .

٢٠٧- المنهاج الواضح للبلاغة ـ حامد عوني .

٢٠٨- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه ـ الدكتور مصطفى الصاوي الجويني .

٢٠٩- من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ـ محمد خلف الله أحمد .

٢١٠- الموجز في تأريخ البلاغة ـ الدكتور مازن المبارك .

النون

٢١١- نحو بلاغة جديدة ـ الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي والدكتور عبدالعزيز شرف .

٢١٢- نصوص النظرية البلاغية في القرنين الثالث والرابع للهجرة ـ الدكتور داود سلوم والدكتور عمر الملا حويش .

٢١٣ـ نظرات في البلاغة والاسناد ـ الدكتور محمد عبدالرحمن الكردي •
٢١٤ـ النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين ـ محمد الصغير بناني •
٢١٥ـ نظرية إعجاز القرآن عند عبدالقاهر الجرجاني ـ محمد حنيف الفقيهي •
٢١٦ـ نظرية البلاغة بين النقد العربي والنقد اليوناني ـ الدكتور السعيد السيد عبادة •
٢١٧ـ نظرية عبدالقاهر في النظم ـ الدكتور درويش الجندي •
٢١٨ـ نظرية العلاقات أو النظم بين عبدالقاهر والنقد الغربي الحديث ـ الدكتور محمد نايل أحمد •
٢١٩ـ نظرية المعنى في النقد العربي ـ الدكتور مصطفى ناصف •
٢٢٠ـ نظرية النظم (تأريخ وتطور) ـ الدكتور حاتم صالح الضامن •
٢٢١ـ النظم الفني في سورة الرعد ـ محمد بن سعد الدبل •
٢٢٢ـ النظم الفني في القرآن ـ عبدالمتعال الصعيدي •
٢٢٣ـ النظم القرآني في كشاف الزمخشري ـ الدكتور درويش الجندي •
٢٢٤ـ النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري في القرن الرابع ـ الدكتور محمد علي أبو حمدة •
٢٢٥ـ النقد التحليلي عند عبدالقاهر الجرجاني ـ الدكتور أحمد عبد السيد الصاوي •

وبعد :

فهذا ما وقعت عليه اليد من دراسات بلاغية مطبوعة ، وهناك مئات الكتب التعليمية والرسائل الجامعية يصعب الوقوف عليها ، ولعل ما جاء في

هذا الملحق من « بحوث بلاغية » يدفع النقاد الى الانتفاع بها وبمصادر البلاغة والنقد القديمة ليقيموا صرح نقد عربي أصيل .

« قُلْ هـذهِ سَبِيلي أَدْعو الـى اللهِ على بَصيرةٍ أنا ومـن اتَّبَعَني ، و سُبْحَـانَ اللهِ ، ومـا أنا مِـنَ المُشْـرِكين » . ــ صـدق الله العظيم ــ .

* * *

بحـوث الكتـــاب

* * *



٤١٤،٠٧

أ ٣٨٤ احمد مطلوب

بحوث بلاغية / تأليف أحمد مطلوب ـ

بغداد : مطبوعات

المجمع العلمي، ١٩٩٦م .

٣٢٠ ص ؛ ٢٤سم .

١ ـ البلاغة العربية ـ دراسات

أ. العنوان

م . و

١٩٩٦ / ٢٣٨

المكتبة الوطنية (الفهرسة أثناء النشر)